مكتبة العرب الحصرية
https://t.me/bookArb
by. https://t.me/d110d

على فراش طاغية

الكتاب: على فراش طاغية
المؤلف: هشام فياض
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: هند محمود
رقم الإيداع: 2019/2146

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

هشام فياض

على فراش طاغية

رواية

@bookArb

ن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى حفيدتي: ريانا..

لو تعلمين كم كنت أنتظرِكِ لأتَيتِ إلى الحياة قبل أن أُولدَ أنا.

جدُّك

هشام فياض

@bookArb

(1)

أنهى وسام عبد العزيز رحلته في أبو ظبي، والتي استغرقت خمسة أيام، تسلَّم خلالها جائزة الشيخ زايد في الآداب عن روايته الأخيرة «الصعود إلى أسفل»، ثم توجه بعدها إلى مطار دبي الدولي ليستقل الطائرة المتجهة إلى العاصمة الرومانية بوخارست، وذلك من أجل لقاء صديقته روكسانا، لقد وعَدها أكثر من مرة بالزيارة، لكن ظروفه العائلية كانت تحول بينه وبين تحقيق رغبته في رؤيتها وقضاء بعض أيامٍ معها يستعيدُ فيها ذكرياتٍ سعيدةٍ مضَت.

حلقت طائرة «فلاي دبي» فوق الخليج العربي، ثم أخذت وِجهتَها صوب إيران والعراق وسوريا وتركيا ثم عبرت البحر الأسود.

كان وسام طوال الرحلة يسترجع ذكرياته مع روكسانا في ألمانيا، عندما كان يتولى إدارة مكتب الأهرام هناك لعشر سنوات، والتي استطاع خلالها بناء علاقات قوية مع جميع السفارات العربية هناك، والمساهمة في شركة سياحية مع صديق طفولته صلاح عجور الذي يمتلك أكثر من شركة سياحية في كبريات المدن الأوروبية، وهو الذي ساعده في الحصول على الجنسية الألمانية بعد زواج صوري عن طريق محامٍ متخصص في ذلك.

بعد مرور قرابة خمس ساعات، أعلن قائد الطائرة عن هبوط الطائرة خلال عشرين دقيقة، وأن درجة الحرارة سبع عشرة درجة مئوية.

هالَه للحظة الأولى تواضع مطار هنري كوانداً، مطار بدائي وليس به أي لمسة جمال، خاصةً وأنه قادم من مطار دبي الدولي، والذي يُصنَّف كأهم مركز جوي على مستوى الشرق الأوسط، وكواحد من أفضل عشرة مطارات على مستوى العالم.

كانت روكسانا في انتظاره في الساحة المواجهة للمطار، طال العناق بينهما لفترةٍ طويلةٍ اختصرت شوق السنين وأذابت جليد الفراق القسري، ثم وضعت حقائبه في سيارتها «رانج روفر» ذات الدفع الرباعي وانطلقا.

حاول وسام طوال الطريق أن يعرف إلى أين هما ذاهبان، لكن روكسانا كانت تتهرب من الإجابة وتمازحه بقولها:

- لقد قمتُ باختطافك، وسوف أطالب بفدية كبيرة من أجل عودتك إلى وطنك، الآن أنتَ في بلدي، أُترك لي نفسك كي أريك الجمال الساكن بين حنايا وخبايا الجبال، فأنا منذ أربعة أعوام، وعندما أتيت إليك في القاهرة، تركتُ لك تحديد أماكن الزيارة ولم أعترض، إذن المعاملة بالمثل.

امتثل وسام إلى تخطيط روكسانا، وحاول أن يُغمِض عينيه علَّه ينام بعض الوقت، إذ أنه لم ينَم منذ يومين، لكنها باغتته بسؤالٍ لم يتوقعه:

- هل ما زلتَ تذهب إلى ألمانيا؟

فقال وهو ما زال مُغمَض العينين:

- نعم، لكن على فترات بعيدة من أجل إجراء بعض الفحوصات الطبية وزيارة الأصدقاء، لقد قلَّت زياراتي بعد تصفية أعمالي هناك، وأستقر الآن ما بين القاهرة والإسكندرية؛ ابنتي الآن في حاجة ماسَّة إلى وجودي، وزوجتي أيضًا في الفترة الأخيرة بدأت تنسج حولي سياجًا من الشك لا مبرر له، وعندما تأكدَت أنني قد قطعتُ علاقتي بك، وأنكِ عُدتِ إلى بوخارست وتسلَّمتِ عملك هناك في وزارة البيئة، أصبحَت لا تُعارض عندما تعلم أنني ذاهب إلى ألمانيا، لذلك سوف أُخفي عنها جواز سفري الألماني وأعود بالجواز المصري.

استغرق الطريق حوالي الساعتين من بوخارست إلى منطقة بران في مقاطعة براشوف، وحين استيقظ وسام من غفوته، وجد نفسه على ارتفاع شاهق واسم مدينة بران مكتوب بحروف كبيرة بارزة فوق قمة أحد الجبال في الجهة الأخرى، كان المكان في غاية الروعة والجمال، ومُحاطًا بالنباتات والأشجار، والهواء كان مُحملًا برائحة الزهور البرية المنتشرة في الأرجاء.

حدثت روكسانا نفسها وهي في غاية السعادة:

- وسام هو الرجل الوحيد الذي جعلني أشعر بأنني امرأة رائعة تستحق الحب والاحترام، هو فقط من استطاع أن يُحرِّك بوصلة قلبي بعد أن توقفت عن المِلاحة سنين طويلة، لقد فجَّر بركان أنوثتي، ونفضَ عني تلَّ الرماد الجاثم فوق شبابٍ كاد أن يُهدَر سُدى.

لم تنسَ تجربتها مع ميركو الذي كان يكبرها بعشر سنوات

ويعمـل أجـيرًا في أرض والدهـا أثنـاء دراسـتها في المرحلـة الثانويـة، فقـد جذبهـا إليـه بكلامـه المعسـول وتـودده إليهـا، وكان يجمـع زهـور السوسـن السـوداء التـي تعشـقها كل صبـاح، ثـم ينتظرهـا حـين تخـرج لركـوب الحافلـة التـي تُقِلهـا إلى المدرسـة ويعطيهـا إياهـا، ويُقرِضهـا بعـض السـجائر دون عِلـم والدهـا، حيـث أن القانـون الرومـاني يمنـع مـن هـم دون الثامنـة عـشرة مـن شراء التبـغ بأنواعـه، ومـع مـرور الوقـت توطـدت علاقتهـما، فكانـت تذهـب إليـه ليـلًا في الخفـاء في السـكن المُلحَـق بالمزرعـة، لأنهـا قـد أدمنَـت مخـدر الحشـيش الـذي كان يخلطـه بتبـغ السـجائر دون علمهـا، حتـى تطـورت الأمـور وأصبحـت مدمنـةً أيضًـا للهيرويـن، ثقتهـا بـه جعلتهـا تسـتجيب إليـه في كل شيءٍ يطلبـه منهـا، فاسـتنزفَ أموالهـا وأمـوال والدهـا.

إدمانهـا للهيرويـن جعلهـا ليِّنـةً ولقمـةً سـائغةً طيِّعـةً لـه ولـكل أوامـره، جعلهـا تـسرق خزينـة والدهـا الموجـودة في حجـرة نومـه، فالرقـم الـسري الـذي تُفتَـح بـه هـو تاريـخ ميلادهـا، وهـي فقـط مـن كانـت تعلمـه، فقـد أخبرهـا والدهـا بـه بعـد وفـاة والدتهـا، ووضـع جميـع المجوهـرات الخاصـة بهـا داخـل الخزينـة، وقـال حينهـا وهـو يحتضنهـا: سـوف أعطيـكِ إياهـا يـوم عرسـك، لكنهـا أعطَتهـا إلى ميركـو قطعـةً بعـد قطعـةٍ كي يبيعهـا ويشـتري لهـما الهيرويـن، وعندما اكتشـف والدهـا السرقـة طردَهـا مـن المنـزل، فذهبـت لتعيـش في منـزل عائلـة ميركـو بعـد أن طـرده والدهـا هـو أيضًـا مـن العمـل في المزرعـة.

بعـد أن فـرغ مـا في جُعبـة روكسـانا مـن أمـوال، بـدأ ميركـو في التملمـل والزهـق والـردود المقتضبـة والوجـود خـارج منـزل عائلتـه

لساعاتٍ طويلة، والتي تحولت فيما بعد إلى أيام، وطالب روكسانا بعدها بالبحث عن عمل، ثم كانت الطامة الكبرى، عندما طلب منها صراحةً أن تُضاجِع صديقه الذي يجلب لهما الهيروين من أجل أن يحصلا على جرعتين من المخدر، وقتها فقط فرَّت هاربةً واتجهت إلى بيت والدها الذي سامحها بعد أن عرف أبعاد قصتها، وأنها كانت ضحية مؤامرةٍ دنيئةٍ من شخص وصولي وناقم.

أدخلها والدها مصحَّة خاصة لعلاج الإدمان حتى استعادت عافيتها وعادت مرة أخرى إلى المدرسة، ثم التحقت بالجامعة وأنهَت دراسة الهندسة المعمارية، ثم ذهبت إلى ألمانيا من أجل الدراسات العليا في هندسة البيئة.

كانت منعزلةً تمامًا عن الجنس الآخر، ميركو جعلها تفقد الثقة في كل الرجال، إلى أن التقت وسام في شركة السياحة في فرانكفورت من أجل قضاء إجازة أعياد الميلاد في شرم الشيخ، قدم لها وسام عدة عروض، ومن بينها عرضٌ مميزٌ جدًّا لزيارة كل من القاهرة وأسوان وشرم الشيخ، وكان هو المشرف على ذلك الفوج، خاصة أن تلك كانت هي المرة الأولى التي تُعِد فيها شركته زيارةً إلى مِصر، وهناك على أرض القاهرة العامرة بدأت قصة الحب بينهما ثم اكتملَت فصولها في ألمانيا.

أمسكت روكسانا بيد وسام بعد أن عادت من استرجاع الذكريات، وهو منصاعٌ لها وكأنه طفل صغير مُتعلِّق بتلابيب أمه، ومن حين إلى آخر كان يسألها:

- إلى أين نذهب؟

في حين تزيد هي من القبض على راحة يده دون أن تَنبِس ببنت شفَة، ولكنها كانت تبتسم وهي تشعر بإرهاق إثر جرٍّ مئة كيلو جرام؛ وزن حبيب قلبها وسام.

بعد صعود عددٍ كبيرٍ من درجات السلم الذي تمَّ نحته وسط الجبل، وصلا إلى مطعم «كلوب ميلا بران» الذي يتمتع بشهرة واسعة في مقاطعة براشوف، يُطِل على غابات كثيفة بين أحضان الجبال، العاملون في المطعم يرتدون الزي الوطني الروماني بألوانه المزركشة المتداخلة والبديعة.

ترك وسام لروكسانا اختيار الطعام، فالفترة التي قضياها معًا كانت كفيلةً بأن تعلَم ما يحبه من صنوف الطعام، قامت بطلب لفائف الكرنب المَحشي بالأرز المخلوط باللحم البقري المفروم مع بعض التوابل، بجانب الذرة المطبوخة والكريمة الحامضة مع حساء الفاصوليا، عندما رأى وسام لفائف الكرنب، خبط براحة يده فوق هامته قائلًا:

- مَحشي!

فضحكت قائلة:

- إنه يختلف كثيرًا عن المحشي المصري، حاول أن تتناوله مع قليلٍ من الكريمة الحامضة وبعض الذرة المطبوخة، إنه لذيذ جدًا.

وطلبت بعضًا من حلوى بابا ناش، ونوعًا آخر من أصابع العجين الحلو، مما جعل وسام يضحك بصوتٍ عالٍ وهو يقول:

- أصابع زينب في رومانيا، أشعر وكأنني في شبرا!

نـزلا عـدة درجـاتٍ مـن الطريـق المـؤدي إلى قلعـةٍ شـاهقة، فوقـف وسـام ينظـر إليهـا بتعجـب:

- ما هذا؟!

قالت:

- أنتَ الآن في قلعة دراكولا.

ازداد تعجُّب وسام:

- كنـت أظـن أن قصـة دراكـولا مـن محـضِ خيـال الكاتـب الأيرلنـدي بـرام سـتوكر!

ضحكت روكسانا وقالت:

- دراكـولا ليـس مصـاصَ دمـاء، ولكـن لـه قصـة أخـرى سـوف أسرِدهـا لـك أثنـاء تِجوالنـا داخـل القلعـة.

(2)

دراكـولا هـو الأمـير الرومـاني فـلاد، وقـد عـيَّن ملـك المجَـر والـدَه دراكـول حاكـمًا عسـكريًا لترانسـفانيا، ثـم أرسـل دراكـول ولديـه فـلاد وراؤول إلى بـلاد الأتـراك لتعلـم فنـون القتـال والعلـوم الإنسـانية، وذلـك في عهـد السـلطان محمـد الفاتـح، فتعلـما القـرآن، وفنـون القتـال، والخطـط الحربيـة.

كان فـلاد عكـسَ شـقيقه راؤول الـذي أصبـح مـن أخلـص أصدقـاء السـلطان، فقـد كان فـلاد متخوفًـا مـن الأتـراك والمسـلمين بوجـهٍ عـام، لذلـك تعلـم منهـم فنـون القتـال جيـدًا، وكذلـك خططهـم الحربيـة وكيـف يفكـرون، وقـد سـاعده ذلـك فيـما بعـد عـلى مواجهـة جيـوش محمـد الفاتـح.

عندمـا أتى الأتـراك لاحتـلال رومانيـا، اعـترف فـلاد بسـيادة الدولـة العثمانيـة عـلى أرضـه، لكنـه كان يُعِـد لهـم العُـدَّة ليتفـادى الحـرب والمواجهـة المبـاشرة معهـم، لأنـه كان متأكـدًا مـن نتائجهـا، وخضوعـه لهـم كان ظاهريًـا ومؤقتًـا، بعدهـا انضـم إلى أمـير الـصرب بمباركـةِ ملـك المجـر وأعلنـا الحـرب عـلى السـلطان العثـماني.

وعـرف عـن فـلاد -دراكـولا- حبـه لمشـاهدة تعذيـب ضحايـاه،

وتفنُّنِه في صناعة آلاتٍ جديدةٍ للتعذيب، كان يستمتع بسماع أنَّات المُعذَّبين، ويفضل تناول طعامه وسط رجاله وحوله الخوازيق المحمول فوقها ضحاياه من أسرَى الأتراك؛ يدخل الخازوق من مؤخرة الرجال ويخرج من أفواههم.

كان من حينٍ إلى آخر يطلب من الحراس سلخَ أقدام الأسرى ثم يأمرهم بوضع الملح فوقها، ويأتي بالكلاب لتلحسَه إمعانًا في العذاب، ويُحكَى عنه أيضًا أنه دعا جميع الشحاذين الموجودين في إمارته على مأدبة طعامٍ فاخرةٍ مملوءةٍ بشتى أصناف الطعام، فأكلوا الطعام وشربوا الخمر حتى الثمالة، ثم أمر حراسه بإشعال النار في المكان وتخلص منهم جميعًا.

حاول محمد الفاتح الوصول إليه وتأديبه بعدما أعدم البِعثة التي أرسلها إليه من أجل التفاوض والخضوع له، لكنه تمكن من الهرب والذهاب إلى ملك المجر، وظل هناك خمسة عشر عامًا إلى أن مات، هذه هي قصة دراكولا الحقيقة، وهذه هي قلعته، وهذه المدينة إمارته.

كانت الشمس تغادر بِرْن عندما انتهيا من زيارة قلعة دراكولا، وكان منظر الغروب في غاية الجمال، السيارة تتهادى أثناء نزول الجبل، والشمس تختفي وراء قمة جبلٍ ثم تظهر مرةً أخرى في الفراغ القائم بين جبلين، تكرر منظر الظهور والاختفاء للشمس إلى أن غربت تمامًا عن مقاطعة براشوف، لتنير مكانًا آخَر يستيقظ أهله من أجل أن تدور عجلة الحياة.

في طريق العودة إلى بوخارست، شعرت روكسانا بالإرهاق

وميـولٍ جامـحٍ إلى النعـاس، فانتحَـت بالسـيارة عـلى جانـبَ الطريـق، وتوقفـت أمـام محطـةٍ للوقـود، ثـم نزلـت بصحبـة وسـام مـن أجـل تنـاول قـدح مـن القهـوة، لكنـه أصرَّ عـلى قضـاء الليلـة في أي فنـدقٍ قريـبٍ مـن أجـل أن يأخُـذا قسـطًا كافيًـا مـن الراحـة.

أرشـدهم عامـل محطـة الوقـود إلى فنـدق يبعـد خمسـة كيلومـترات عـن المحطـة، عـلى يسـار الطريـق مـن مدينـة بريديـال.

فنـدق «بيريـول ريـشي»، والـذي يقـع فـوق ربـوةٍ مرتفعـة، مُحـاطٌ بحدائـق غنـاء، وبـه بحـيرة صناعيـة كبـيرة يتوسـطها صالـة للطعـام متصلـةٌ بالشـاطئ بجِـسرٍ مـن الحديـد المشـغول.

حمـل عامـل الفنـدق الحقائـب إلى الحجـرة رقـم أربعـة وثلاثـين، وقبـل أن يغـادر قـال:

- هذه الحجرة كانت مخصصةً لرئيس الجمهورية الأسبق تشاوتشيسكو.

وقعَ الخبر على وسام كالصاعقة، فنظر إلى روكسانا قائلًا:

- كيف أنام على فراش طاغية؟!

***

رغـم شـوقي الجـارف إلى روكسـانا، إلا أننـي وجـدتُ نفـسي مسـتغرقًا في تفكـيرٍ عميـق، شـعوري بأننـي موجـودٌ في مـكانٍ قـد نـام فيـه يومًـا مـا ذلـك الديكتاتـور الـذي حكَـم شـعبه بالحديـد والنـار، جعلَنـي أجلـس بملابـسي كاملـةً عـلى حافـة الفـراش، ظهـري إلى روكسـانا ونظـري مُعلَّـق بجداريـةٍ مـن الفسيفسـاء بهـا عـدد مـن النسـاء يتمايلـن ويرقصـن

بملابس شبيهةٍ بالملابس الفرعونية، ورجالٌ يعزفون على آلاتٍ وترية.

في تلك الأثناء، قفزت أمامي صورة تشاوتشيسكو وزوجته إلينا داخل تلك الجدارية، والجيش ينفذ فيهما حكم الإعدام رميًا بالرصاص بعد محاكمةٍ صوريةٍ استغرقَت أقل من ستين دقيقة، وقد أدانتهما فيها بتهمة الإبادة الجماعية وتخريب الاقتصاد.

اندلعت المظاهرات في رومانيا في نهاية عام 1989 في مدينة تيميشوارا، وذلك بعد تدهور الأحوال الاقتصادية وانخفاض مستوى المعيشة وارتفاع الأسعار وانتشار الرشوة والمحسوبية، لكن تشاوتشيسكو أمر جنوده بإطلاق النار على المتظاهرين، مما سبَّب وقوع عددٍ كبيرٍ من القتلى والجَرحى، بعدها زادَت المظاهرات وانتشرت في كل المدن الرومانية إلى أن وصلت إلى العاصمة بوخارست.

أخذت الأفكار تتصارع داخل عقلي والصور تتداخل، صورة ميدان الجمهورية في بوخارست والذي تجمَّع فيه أكثر من مليون شخصٍ يُطالِب تشاوتشيسكو بالرحيل، وصورة ميدان التحرير أثناء ثورة يناير، ثم تداخلت فجأةً صورة ماكبِث -أكثر نساء شكسبير شرًّا وطغيانًا- وحثها الدؤوب لزوجها على اغتيال الملك وسرقة عرشه، مع صورة إلينا زوجة تشاوتشيسكو التي حثت زوجها على عدم الانصياع لمطالب الإصلاح السياسي في رومانيا، واقتحمت الموقف صورة سوزان مبارك وهي تحكم مِصر من وراء ستار، فتُحرِّك رجالات الدولة كالدمى، وتحث زوجها على مؤامرة

التوريث من أجل الحفاظ على أسرتها والنظام، التشابه كبيرٌ بين الشخصيات الثلاثة، كلٌّ منهن قد أثرت بشكلٍ أو بآخر في النهاية المأساوية لزوجها، كل منهن تحلَّت بالغرور والنرجسية والغطرسة وحب السيطرة.

حينما كنت مُغيَّبًا تمامًا عن اللحظة ومُسترسِلًا في التفكير، باغتَتني روكسانا، جذبتني بشدة وألقَتني على الفراش، نجحَت في الفوز عليَّ بلمسِ الأكتاف، ونثرت شعر جسدها المتوهج الذي قارب على الانصهار فوقي، اختلط الأمر عليَّ وأصبحت لا أعرف مَن الذي احترق أولًا، الشمع أم الفتيل، أم كلاهما معًا في بوتقةٍ واحدة، وتحولنا من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة، فالحالة الغازية، ثم تلاشينا مع هواء غرفة الاحتراق؛ غرفة تشاوتشيسكو.

ألقيتُ بنفسي تحت رذاذ الماء الدافئ المندفع بقوةٍ من ثقوب موجودة داخل حوض الجاكوزي، لعله يذيب ويزيح ما تبقى من رمادِ شموع الأمس، وروكسانا حاولت أن تُزاحِمني المساحة المتبقية، فتحوَّل الزحام إلى ملاطفة، إلى استسلام، ثم رفع للراية البيضاء.

بعد تناول وجبة الإفطار، كتبتُ مقالًا بعنوان: «على فراش طاغية» على جهاز الحاسوب الذي لا يفارقني، ذكرتُ فيها كل ما جالَ في خاطري بالأمس، وأرسلته إلى جريدة «الأنباء» التي أترَأَّس تحريرها، ثم غادرنا بعدها فندق «بيريول ريشي» واتجهنا صوب بوخارست.

***

مكتبة العرب الحصرية
https://t.me/bookArb
by. https://t.me/d110d

(3)

كانت علياء عودة - مديرة مكتب (وسام عبد العزيز)- تجلس في حجرة سامي المغازي - نائب رئيس التحرير- من أجل مراجعة وإخراج العدد الأسبوعي للجريدة، فهي الصديقة الوفية لوسام، ويعتمد هو عليها في كل شيءٍ ويثق بها تمامًا؛ هما صديقان منذ أكثر من خمسةٍ وثلاثين عامًا، درسا معًا في المرحلة الجامعية، وابنة خالة زوجته نادين في الوقت نفسه، وهي من قام بدور الوسيط بينهما، ورغم أنها تحبه منذ البداية، فإنها ظلَّت محتفظةً بحبها في جوفِ قلبها، ولم تسمَح له بحرية الحركة خارج حدود قفصها الصدري، وكأنه داخل سجنٍ قضبانه من عظام، أبَت أن تبتعد عنه رغم عدم اهتمامه، أو ربما إهماله المُتعمَّد لها، فهو يعلم بحبها له، لكنه كان يستغل ذلك الحب في فرض طغيانه عليها، لعلمِه المُسبَق بعدم قدرتها على الابتعاد عنه، فكان يتعمَّد ذبحها من حين إلى آخر، بأن يقُصَّ على مسامعها غرامياته اليومية، أو أن يأمرها بالتقرُّب والتودُّد لفتاةٍ ما من أجل أن يصِل هو إليها، إلى أن طلب منها يومًا أن تُدبِّر له لقاءً مع ابنة خالتها نادين الطوخي، والتي رآها في حفل التخرج الخاص بكلية الإعلام، وكانت تدرس الطب في جامعة عين شمس.

علياء عودة، نوعٌ خاصٌّ من النساء، والنادر وجوده الآن على وجه البسيطة، أحبَّت وسام بكل جوانحها وظلت دون زواجٍ من أجل البقاء بجواره كمديرةِ لمكتبه، فقد انتقلت معه من جريدة «الأهرام» بعد أن وصلت إلى منصب مدير العلاقات الدولية بها، لتعمل معه مديرةَ مكتبه في جريدة «الأنباء»، وقد رفضت كثيرًا من الوظائف المميزة التي عُرِضت عليها بعد استقالتها من «الأهرام»، إنه الحب! حب بلا رجاء، حب عذري محكوم عليه بالفناء قبل أن يولد، ولكنها وهبَت نفسها إليه، فأصبحت جزءًا مما ملكَت يداه.

نسخَت علياء المقال الذي أرسله وسام عبر البريد الإلكتروني وذهبت به إلى قسم المراجعة ليكون في صدارة العدد الأسبوعي، تعجَّبت لأنه كتبَ مقاله من رومانيا، فهي على عِلم بعلاقته مع روكسانا، وخافت لو علمت الدكتورة نادين زوجته بسفره إلى رومانيا فينشَب بينهما خلافٌ كبير، أما هي فليس من حقها الاعتراض.

حاولت الاتصال بوسام من أجل أن يُغيِّر المقال، ولكن دون جدوى؛ لقد أغلق هواتفه بعد كتابة المقال الأسبوعي وتفرَّغ تمامًا لروكسانا، والتي اصطحبته إلى مدينة أورادیا كي يزور حمامات «فيليكس»، أكبر مراكز الاستجمام والاستشفاء في رومانيا، والذي يقع في منطقة سهلية، يتميز بمناخ منعش ولطيف، وترجِع شهرته إلى مياهه المعدنية الساخنة التي تصل درجة حرارتها إلى تسعٍ وأربعين درجةً مئوية، أعدت روكسانا هذه الرحلة خصيصًا بعد أن اشتكى وسام من آلامٍ في ركبتيه أثناء صعود درجات السلم المؤدي إلى المطعم الجبلي، حيث تحتوي هذه المياه على عناصر كيميائية ومعادن مفيدة

مثـل الكالسـيوم والحديـد، فتسـاعد عـلى عـلاج الأمـراض الروماتيزميـة وآلام الركـب، وعـلاج أمـراض الجهـاز الهضمـي وأمـراض القلـب، وذلـك عـن طريـق الـشرب.

حاولـت علياء عـدم نـشر المقـال، لكـن الأسـتاذ سـامي المغـازي أصرَّ عـلى نـشره بصفتـه نائـبَ رئيـس التحريـر والمسـئول الأول عـن الجريـدة في غيـاب الأسـتاذ وسـام.

الدكتـورة نادين زوجـة وسـام، تشـغل منصـب مديـر هيئـة المصـل واللقـاح، لا تهتـم كثـيرًا بمـا يكتبـه زوجهـا، خاصـةً بعـد المشـاكل الكثـيرة التـي نشـبت بينهـما طـوال رحلـة الـزواج التـي قاربـت عـلى الثلاثـين عامًـا، فسـخَّرت وقتهـا وحياتهـا مـن أجـل تربيـة ابنتيهـا التوأمتـين ريانـا وريحانـا، واللتـان أتيتـا بعـد رحلـة عـلاجٍ طويلـة، وهـا هـما الآن تدرسـان الطـب في جامعـة القاهـرة.

تأكـدت علياء بعـد زيـارة خاطفـة لـنادين، أنهـا لم تقـرأ المقـال ولم تعـرف أيـن يوجـد وسـام الآن، فقـد سـألتها نادين إذا كان لديهـا علـمٌ حيـث أنهـا مديـرة مكتبـه: «متـى سـيعود مـن أبـو ظبـي؟».

أرسـل وسـام رسـالة عـلى البريـد الإلكـتروني أخـبر فيهـا علياء بعودتـه مـن أبـو ظبـي صبـاحَ الثلاثـاء، وطلـب منهـا ألا تُخـبِر أحـدًا بذلـك، لأنـه يريـد الراحـة لمـدة يومـين في العـين السـخنة ليسـتريح مـن آثـار السـفر.

بعـد أن قـرأت الرسـالة، أزاحـت بيدهـا بعـض الأوراق الموجـودة فـوق سـطح المكتـب، ثـم اسـتدارَت بمقعدهـا الجلـدي المتحـرك وهـي تهمِـس:

- أتريدُ أن تستريح من آثار السفر أم من آثار روكسانا يا وسام؟!

(4)

لم تنَم علياء ليلتها تلك، فقد قتلها القلق من لقاء وسام المُرتقَب بعد غيابٍ طال إلى أكثر من عشرين يومًا، كل مرةٍ تلقاه فيها كانت تخشى أن تفضحها عيناها، لذلك كانت تضع دائمًا نظارةً قاتمة، الغيرة كادت أن تفتك بها عندما علمَت بذهاب وسام للقاء روكسانا، فهي تعلم أن علاقته مع نادين قد توقفت منذ أكثر من سبعة أعوام، وأن الذي يجمع بينهما الآن هو الشكل الاجتماعي والعائلي من أجل الصحة النفسية لابنتيهما، وأن كلًّا منهما ينامُ في حجرةٍ منعزلة.

لقد بنَت صروحًا من الخيال بأن وسام سوف يُغيِّر يومًا مسار عقدَي الصداقة والهبة الشفويَّين المُبرَمين بينهما إلى ورقةٍ عرفيةٍ تحفظ بها ماء وجهها أمام نفسها، لكن دائمًا «مزمار الحي لا يُطرِب»، و«الشيخ البعيد سرُّه باتع»، وفي هذه المرة لم يكن الشيخ بعيدًا فقط، بل هو في قارةٍ أخرى.

نظرَت في ساعة الهاتف بعد أن غفَت عيناها للحظات، فإذا بها تُشير إلى السابعة صباحًا، ألقَت بنفسها تحت رذاذ الدش الفاتر، ثم أغمضت عينيها وحدثت نفسها:

- ما زلتَ تستهين بحبي وشوقي إليك يا وسام، إنك ترتكِن على حائط رصيد حبٍّ لدي قاربَ على الانتهاء، لا تغرَّنكَ ملامحي الهادئة، فكل شيءٍ بداخلي قد شظِي، لا تستهِن بامرأة صنعَت لك دائمًا رغيفَ السعادة من قمح وجنتيها، سوف يتوقف قلبي عن التسوُّل والوقوف عند باب شفتيك، سوف أغادر يومًا محطتكَ المكتظة بالنساء، فأنا أمقتُ ازدحامَ القلوب، سوف أحمل روحي المُتعَبة، وأجرُّ بقايا أحلامي المعطلة، وألتحِف ستائر النسيان، كان عليَّ أن أُجهِض جنينَ حبك قبل أن يلتصِق برحِم أحلامي، لكن أعدكَ بأنني سوف أنساك.

فتحَت عينيها ونظرت إلى بقايا الصابون وهو ينسابُ فوق ثنايا الجسد المُتعطِّش، ثم أمسكَت بقطعة الإسفنج وحكَّت بشدةٍ الجهةَ اليسرى من أسفل ثديها، وكأنها أرادت أن تُنظِّف قلبها من دنَس حبه، ازداد الحكُّ قوةً وسرعةً وهي تردد:

- نعم، أعدكَ بأنني سوف أنساك، ولكن من فضلك عِدني أنتَ أيضًا بألا تخطُر على بالي، كفى قسوتي على قلبي، فقد حمَّلتُه فوق طاقته، سوف أتركه يضخ الدم المُؤكسَد إلى بقية أعضاء جسدي.

انخرطَت في البكاء، في حين اختلط الدمع بالماء، شعرَت بسخونةٍ شديدةٍ في الماء المنساب من الصنبور، كأن قطرات الدمع الدفينة في الأجفان ماءٌ من نار، جفَّفت جسدها الذي ما زال ممشوقًا، ووضعت منشفةً من القطن فوق شعرها وجلست أمام المرآة، ثم أشارت بسبابة يمينها إلى صورتها في المرآة قائلة:

- في كل مرةٍ ترددين هذه الكلمات إن غاب عنكِ وسام، وعندما

ترينَه أمامكِ تنسين كل شيء، وترتمين بين أحضانه، وتغفرين له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكأنكِ نصف إله، ونصف امرأة، ونصف لسانٍ لا يُطالِب أبدًا بحقه في الحياة!

ارتدت أجملَ ما لديها من ثياب، بحثت عن المفاتيح الخاصة بشاليه العين السخنة، وضعتها في حقيبة يدها، وذهبت إلى مطار القاهرة تنتظر الطائرة العائدة من أبو ظبي.

بدا على وسام الإرهاق، هكذا رأته علياء وهو يجرُّ عربةَ حمل الحقائب، فابتسمت حينما تلاقت عيناهما وسارت تجاهَه يحدوها الأمل بأن تقضيَ معه عدة أيام بعيدًا عن أعين المتلصصين، مدَّت يدها إليه تصافحه، فجذبها نحوه وعانقَها، لتهمسَ قائلة:

- لقد افتقدكَ كثيرًا!

ربَّت وسام على كتفَيها بعد أن طالت لحظة العناق وقال:

- هيا بنا، العيون ترمقنا، فلندَع العتاب إلى وقتٍ آخر، لدينا مُتَّسع من الوقت، سوف أقضي معكِ خمسة أيامٍ كاملة.

فابتسمت علياء ابتسامةً غلَّفها الرضا والشغف إلى لقاءٍ طال انتظاره.

وضع وسام حقيبته فوق المقعد الخلفي للسيارة، وجاور علياء التي أصرَّت على قيادتها، مُعلِّلة ذلك بأنه مرهق من آثار السفر وتبَعاته، فضحك وسام وهو يردد كلمة «تبعاته»، ثم سألها:

- ماذا تعنين؟

قالت:

- لا شيء، لا شيءَ على الإطلاق.

أخـذت عليـاء تسـابق الريـاح كي تصـل إلى الشـاليه الخـاص بهـا في قريـة «كنـاري بيتـش»، كان الشـاليه مِلـكَ لـواء شرطـة سـابق في مباحـث أمـن الدولـة، ولأسـبابٍ أمنيَّـةٍ تخلـص منـه عندمـا تـم رصـدُه مـن جماعـات تكفيريـة، وقـد توسَّـط وسـام الـذي تجمعـه علاقـة صداقـةٍ مـع اللـواء عـماد العـارف - مالـك الشـاليه- كي يتـم تقسـيط نصـف المبلـغ المطلـوب عـلى خمسـة عـشر قسـطًا، ورغـم أن القريـة كانـت مُؤمَّنـةً بالكامـل ويقطنهـا عـدد كبـير مـن رجـال وزارة الداخليـة بمـا فيهـم الوزيـر الأسـبق، كان اللـواء عـماد العـارف بعـد أحـداث ثـورة الخامـس والعشريـن مـن ينايـر، واغتيـال سـاعِده الأيمـن عـلى يـد الجماعـات المتطرفـة، والقبـض عـلى قيـادات كبـيرة في وزارة الداخليـة ومحاكمـة الوزيـر نفسـه، قـرر الابتعـاد تمامًـا عـن أي تجمُّـعٍ خـاصٍّ بأفـراد الشرطـة، خاصـة في النـوادي والمستشـفيات، حتـى لا يتـم رصـده مـن قِبَـل أفـراد الجماعـات المتطرفة، لأنـه كان المسـئول عـن ملـف الإرهـاب في قطـاع مباحـث أمـن الدولـة قبـل الثـورة، وقـد كـوَّن خلالهـا عـداءاتٍ كثـيرةٍ بينـه وبـين قيـادات تلـك الجماعـات في الخـارج والداخـل، لذلـك تـرك منزلـه في التجمُّـع الخامـس واشـترى فيـلا صغـيرة في الشـيخ زايـد بمدينـة السـادس مـن أكتوبـر.

قامـت عليـاء بفتـح جميـع نوافـذ الشـاليه، وطلبـت مـن أحـد أفـراد الأمـن المنتشريـن في القريـة أن يـأتي لهـا بمَـن يهتـم بتنظيـف الشـاليه لحـين عودتهـما مـن تنـاول طعـام الغـداء في «بـورت سـخنة».

حاولت التماسك وعدم إظهار ما بداخلها من رغبةٍ دفينةٍ لضَم وسام إليها، ودسِّ رأسها بين طيات ضلوعه، ومعانقة شعيرات صدره ومداعبتها بشفتيها وشدها من حين إلى آخر بقواطعِ أسنانها كما كانت تفعل سابقًا، وقررت هذه المرة أن تُغرِق مشاعرها في بحر اليأس وألا تجعل وسام هو المتحكم الأوحَد في دفة سفينة روحها؛ أرادت الاستقلال عنه ومنه، ولم تُرِد أن تكون بطلةً لإحدى رواياته المشوقة، بل أرادت أن تضعَ هي الخاتمة والنهاية المدهشة لهذه الرواية الهزلية والكوميديا السوداء، تعلم أنها واحةٌ خصبةٌ لرغباته، والبديل المثالي والمُنتظِر على أُهبَّة الاستعداد دائمًا لعثراته ونزواته لكي يُطبِّب روحه وقلبه، لقد ملَّت تمثيل دور العاشقة المجانية وقصة الحب الواهية التي ضاعت معالمها في صحراء زيف وصَلف وغرور وسام.

حدَّثت نفسها بصمتٍ وهي تزيد من سرعة السيارة في حركةٍ لا إرادية:

- من اليوم أنا فيكَ من الزاهدين، لا عاصمَ لكَ اليوم من غضبتي.

نبَّهها وسام أن الطريق المؤدي إلى «بورت سخنة» قد فات منذ بضعة أمتار، وأن عليها الرجوع إلى الخلف «مارشدير» لأن الدوران إلى الخلف بعد خمسة كيلومترات.

بدَّلت علياء وضع عصا تغيير السرعات إلى الخلف، وكأنها هي أيضًا تسترجع ذكرياتٍ مضَت مع وسام الذي حافظ لأكثر من ثلاثين عامًا على «شعرةِ معاوية» بينه وبينها، كلما حاولت شدَّها والتملص من رِجس حُبِّه أرخاها هو، وكلما أرخَتها وأفرطَت

في إبداء شعورها نحوه شدَّها هوَ كي تعود إلى وعيِها وتعلم أنه متزوجٌ من ابنة خالتها، سنونٌ مرت بين الجذب والشد، والنتيجة دائمًا كانت لصالحه، فهو الفائز على مدار تلك العلاقة والمتحكم في مؤشر صعودها وهبوطها بالقدر الذي يُتيح له راحةَ البال.

توقفت السيارة أمام مطعم حلقة السمك، ورحَّب بهما النادل الذي يعرف الأستاذ (وسام) جيدًا، فهو ضيف دائم في البرامج التليفزيونية، وقد أثارَت روايته الأخيرة جدلًا واسعًا في الأوساط الثقافية، لتناولها التابوهات الثلاثة - الدين والجنس والسياسة- بشكلٍ جريء، مما جعل أحد المحامين يُقيم ضده قضية حِسبة، مثل تلك التي تم رفعُها من قَبل ضد نصر حامد أبو زيد وفرج فوده ونجيب محفوظ، وقد طالب فيها المُدَّعي بالحق المدني التفريقَ بين وسام عبد العزيز وزوجته نادين الطوخي، ورغم أن قانون الحسبة قد أُلغيَ عام 1955، فإن بعض المحامين يستغلون بعض الثغرات القانونية لرفعِ مثل هذه القضايا.

رحَّب مدير المكان بهما وطلب من النادل أن يجهز لهما الطاولة الخاصة به، طلبت علياء من وسام أن يختار هو الطعام لثقتها في ذوقه، فنظر في قائمة الطعام ثم قال:

- فتة جمبري، كاليماري فاهيتا، كبيبة سي فود، شوربة قواقع البحر بالكريمة.

بعد أن انصرف النادل، ابتسمت علياء قائلة:

- لماذا كل هذا الطعام؟! ألم تقُل لي إنكَ قد تناولت الطعام على متن الطائرة؟

رد وسام وهو يحاول الإمساك بيدها:

- أشـعر بحاجـةٍ ماسَّـةٍ إلى وجبـةٍ فسـفورية، فاليـوم لـدي عمـل يتطلـب منـي مجهـودًا إضافيًّا.

فسـحبت يدهـا بحنـقٍ معـبرةً عـن عـدم رضاهـا للإيحـاءات التـي أراد أن يُظهِرهـا مـن حديثـه.

(5)

في طريق العودة من «بورتو سخنة» إلى الشاليه، كانت الشمس تكاد أن تغرقَ تارةً خلف الجبال وتارةً أخرى داخل مياه البحر الزرقاء، في حين كانت الأنابيب المرتفعة في محطات تكرير البترول تُخرِج من فوهتها شُعَل النار مثل الشموع المُضاءَة فوق كعكةٍ جبلية، ووسام الذي يحفظ تضاريس تلك المنطقة جيدًا أخذ ينطلق بأقصى سرعة، حيث عمِل أثناء وبعد تخرُّجه في هذه المنطقة في إحدى شركات البترول بتوصيةٍ من خاله، والذي كان يشغَل منصبًا كبيرًا في وزارة البترول حينها.

تخلصت علياء من ملابسها وألقت بنفسها داخل حوض الاستحمام الذي ملأته بالماء الفاتر ورمَت فيه مقدارًا من صابون الاستحمام، فوجئ وسام أنها وللمرة الأولى قد أغلقَت باب الحمام من الداخل، لكنه لم يهتم بالأمر، وبدَّل ملابسه ثم أخرج كيسًا بلاستيكيًّا من حقيبته ووضعه بجواره على الفراش منتظرًا خروجَها.

طال انتظاره، لقد غاصَت علياء في النوم من شدة الإرهاق والتفكير المستمرين، فدقَّ الباب بلطفٍ مناديًا بصوتٍ يكاد يكون رقيقًا:

- علياء، هل أنتِ بخير؟

فاستيقظَت من غفوتها، وهبَّت واقفةً والماء صار يتساقط منها وكأنها نافورة بشرية وسط أحد الميادين، ثم أجابت النداء:

- سوف أخرج حالًا.

وقف أمامها ويده اليمنى خلف ظهره ممسكةً بالكيس البلاستيكي، وطلب منها أن تُغلِق عينيها، حاولت أن ترفض الفكرة لكنه أصر فأغلقت عينيها، وإذا به يُخرِج قميصًا من النوع الذي يُطلَق عليه «بيبي دول» مصنوعًا من الشيفون الأبيض الشفاف المُطعَّم بالحرير الأسود، ويطلب منها أن تفتحَ عينيها، فإذا بها تُلقي بالقميص أرضًا.

جثَت على ركبتيها ممسكةً بتلابيب روبِها المصنوع من قماش المناشف، وكأنها تريد أن تغلق كل ثغرةٍ تُظهِر مفاتنها، حاول وسام رفعها إلى الأعلى دون جدوى، فجثا هو أيضًا على ركبتيه وحاول أن يضُمَّها إليه، لكنها أشاحَت بوجهها بعيدًا عنه، فقال:

- ما أغضبَك؟ ماذا فعلت؟

قالت:

- هديتكَ هي سبب غضبي، كنت أود لو أنكَ اشتريت لي زهرةً أو زجاجةَ عطر، إصرارَك على أن تذكرني دائمًا أنني عشيقتك، في كل مرة تُوجِّه إليَّ الإهانة وأنا أتغاضى عنها دائمًا، أجدُ لكَ ألف عذر، لكن هذه المرة وبعد أن قضيتَ إجازتكَ مع حبيبتك السابقة روكسانا، تأتي لي بهذه الهدية كي تؤكد لي أن دوري لا يتعدَّى أبدًا

دور العاشـقة، لـو سـألتُكَ: مـاذا أهديـتَ حبيبتـك ؟ أعـرِف مسـبقًا أنـكَ سـوف تكـذِب، لقـد مللتُـك يـا وسـام.

لم ينبِـس وسـام ببنـتِ شـفة، وفـرَّت مـن عينيـه دمعـاتٌ خرجَـت رغـمًا عنـه، فقبَّـل عليـاء مـن هامتهـا، ثـم رفعهـا برفـقٍ وأجلسـها فـوق الفـراش ثـم غـرسَ رأسـه بـين نهديهـا، وراحَ في نـواحٍ شـديدٍ تخلَّلَتـه كلـماتٌ ليسـت مفهومـةً أو ربمـا هـي مقضومـةٌ وغـير مكتملـة النمـو، فوضعَـت يدهـا فـوق شـعره وأخذت تمشـطه بأظافرهـا حتـى غلبَـه النـوم.

نـام وسـام فـوق فخذيهـا وهـي مـا زالـت تغـوصُ بأناملهـا في خريطـة رأسـه، ثـم بـدأت تتحـدث إليـه وكأنهـا أمـه تقـص عليـه حكايـة مـا قبـل النـوم:

- لمـاذا يـا وسـام صوَّبـت بندقيـة بَوحِـك نحـو يمامـةِ حـزني؟! لم ترحَـم ضعفـي وأنـت تعلـمُ بـأن في جعبتـك وحـدك الترياق والسـم، معـك مفتـاح سـعادتي وكفـن مـوتي، وأنـا الزهـرة المغروسـة بـين ثنايـاك، أُعطِّـر روحـك وأُلطِّـف طقسَـك، أنـثر عبقـي في أرجـاءِ مدينتـك، لا أريـد منـك جـزاءً ولا شـكورا، أرأيـتَ يومًـا مَـن يُعانِـق الشـمس ويتلـذذ بلهيبهـا؟ مَـن يُكـرِم جـلاده كل يـومٍ بـكأسٍ مـن دمائـه ورُضابِـه؟ مَـن يُقيـم الزينـات ويـوزع حلـوى نخـب هزيمتـه؟! أنـا يـا وسـام فعلـت كل ذلـك مـن أجلـك، ألم يحِـن الوقـت كي تسـحبَ جيـش أشـواقك وتغـادر أرضي بـلا تفـاوض؟ لـن أبحـثَ عنـك مـن اليـوم بـين زوايـا روحي، وسـوف أسـتقل قطـار الغيـاب وأغـادر محطـة قلبـك، نـام يـا وسـام عـلى أطراف الـورد السـاكن في وجنتـي، اشرَب مـن ثُقبَـي غـمازاتيَّ إذا عطِشـت، وتعلَّـق بأهـدابي وتأرجـح لعلَّـك تـرضى، لا أمـلَ في أن أنسـاك، نـام يـا وسـام.

قضت علياء ليلتها جالسةً فوق الفراش واضعةً خلف ظهرها وسادتين من «الفايبر»، لم تكن تريد إزعاج وسام الذي غطَّ في نومٍ عميقٍ فوق فخذيها كأنه طفلٌ رضيعٌ رجع إلى حضن أمه بعد طول غياب، كانت من حين إلى آخر تحاول تحريك فخذيها حتى لا يصيبهما الخدر، وكان هو أيضًا يفتح عينيه ثم يغلقهما ويُربِّت بيده فوق كتفها تعبيرًا عن امتنانه لها.

استيقظ على صوت تلاطُم الأمواج، فانسلخَ من فوق فخذَي علياء بخفةٍ ورشاقةٍ حتى لا تستيقظ، وقبَّل يدها وطلب منها أن تستقيم على الفراش، ثم وضع الغطاء القطني فوقها، وبدَّل ملابسه وخرج ليستنشق جرعةً من هواء البحر قبل هجوم الشمسِ الحارقة.

دخل إلى المطبخ من أجل إعداد طعام الإفطار، ووضع الأطباق فوق الطاولة الحديدية الموجودة في الحديقة المُلحَقة بالشاليه، وهمَّ بعمل كوبين من الشاي الأخضر الذي تفضله علياء، اعتقادًا منها أنه يُنقِص الوزن.

وضع وسام منشفةً بيضاءَ صغيرةً فوق ذراعه، ودق باب الغرفة برفقٍ قائلًا:

- الإفطار جاهز سيدتي.

دخل بعدها إلى الغرفة، ثم انحنَى وأشار بيده المُعلَّق عليها المنشفة البيضاء إلى اتجاه الحديقة، فابتسمت علياء وارتمت بين أحضانه وهي تقول:

- قلتُ لكَ من قبل، إنك مثل موج البحر، لك قدرة خطيرة على غسل شواطئ روحي وتنقِيَتها من شوائب الزمن، أنتَ

ساحر، لكنك ساحرٌ خبيث! منذ أكثر من ثلاثين عامًا وأنا أتخذُك إمامًا لي، لكنك إمامٌ فاسد، مثل يزيد بن معاوية الذي تولى الخلافة بعد موت والده، والذي كان مسرفًا في المعاصي، يُعاقِر الخمر، ويدَع الصلاة، ويزني، لقد ارتكب كل الموبقات، ومع ذلك فإن ابن كثير رغم اعترافه أن يزيدًا كان إمامًا فاسقًا أفتَى: إن الإمام الفاسقَ لا يُعزَل بمجرد فسقه، كنت أتعجب وأنا أقرأ في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير هذا الرأي، ولكنني الآن أعترفُ بأنني كنت خاطئة، لأنني ورغم فسقِك وضلالك ما زلتُ أعتبرك إمامي، ولا أقدر على عزلك أو الخروج عليك.

بعد ثلاثة أيام قضياها معًا، عادا إلى القاهرة وكل منهما لديه قناعةٌ تامةٌ بأنه قد أدَّى دورَه على أكمل وجه، هي أدَّت دور العاشقة المغلوبة على أمرها، وهو أدَّى دور المعالج الروحاني، وكلاهما يعرف تمامًا أنه كاذب.

(6)

كان استقبالًا حافلًا من العاملين في الجريدة لوسام عبد العزيز بعد عودته من رحلته، أقاموا له حفلًا صغيرًا بمناسبة فوز روايته بجائزة الشيخ زايد، وأثنوا أيضًا على مقاله الأخير «على فراش طاغية» وردود أفعال القراء عليه، حيث وصل أكثر من ألفَي رسالةٍ إلكترونيةٍ تعقيبًا على المقال.

بعد أن انتهى الحفل، أخبر وسام الأستاذ سامي المغازي، أنه يريد الاجتماع مع رؤساء الأقسام لمناقشة إضافة أقسامٍ جديدةٍ تعتني بالرياضة والفن وعودة صفحة بريد القراء للظهور مرة أخرى بعد أن ألغاها رئيس التحرير السابق، وأنه يقترح أن تتولَّى الأستاذة علياء عودة هذه الصفحة إضافةً إلى إدارة شئون مكتبه.

تركت علياء مكتبها وخرجت على عجَل وكأنها على موعدٍ مهم، ثم استقلَّت سيارتها واتجهت نحو مدينة نصر قاصدةً مول «سيتي ستار»، وذهبت إلى «ذا بودي شوب» واشترت زجاجة عطر «دي كارتييه»، والتي تحوي رائحة أزهارِ الفواكه والكرز، وطلبت من البائع أن يُغلِّفها بورقٍ ليس مكتوبٌ عليه اسم المحل، ثم

عادت أدراجها، وحين دخلت إلى حجرة وسام، أعطته زجاجة العطر قائلة:

- هـذه هديـة زوجتـك التـي جلَبتَهـا أنـتَ مـن أبـو ظبـي، لا تنـسَ أن تُداعِـب زوجتـك ببعـض كلـمات رواياتـك، هـي في حاجـةٍ إلى أن تسـتمع إلى كلام حـب، حتـى ولـو كان مـن وراء قلبـك، اذهـب إلى زوجتـك الآن، أعتقـد أنـك قد اشـتريت هدايـا لـكل مـن ريانـا وريحانـا.

فهزَّ رأسه إلى أسفل وهو يردد:

- نعم، بالطبع.

كان اللقـاء فاتـرًا بـين وسـام ونادين، سـألته بـكل بـرودٍ عـن رحلتـه، وكيـف كانـت، وعـن الجائـزة، فكانـت إجاباتـه مقتضبـةً هـو أيضًـا، وأخـرجَ مـن حقيبتـه زجاجـة العطـر وقـال:

- أرجو أن تنول إعجابَك.

ففتحتها وتعجبت قائلة:

- كيف عرفت أنني أعشقُ هذا العطر؟!

كان السـؤال مباغتًـا وليـس لديـه إجابـةٌ عليـه، لكنـه حـاول الخـروج مـن المـأزق الـذي أوقعَتـه فيـه علياء التـي تعـرف عـن زوجتـه أكـثر مـما يعـرف هـو، فقـال:

- أبـدًا، لقـد رشـحَته لي بائعـة العطـور، وإذا كنـتِ تعشـقينه حقًّـا فسـوف أطلب مـن أصدقـائي هنـاك أن يُحـضِروا لـكِ قنينـة عطـرٍ أخـرى منه.

بـدَّل ملابسـه، ثـم دخـل إلى حجـرة مكتبـه لكتابـة مقالـه الأسـبوعي، وجلـس أمـام جهـاز الحاسـوب الخـاص بـه، فنظـر سريعًـا إلى البريـد

الإلكتروني، ووجد عدة رسائل من الأصدقاء على البريد الخاص «الماسنجر» تسألُ عن سبب تغيُّبه، ووجد رسالةً من شخص خارج دائرة الأصدقاء، سميرة التوازني من المغرب العربي، ففتح الرسالة وبدأ في قراءتها.

عزيزي حضرة الأستاذ الفاضل وسام بك عبد العزيز، تحية طيبة وبعد..

قرأتُ مقالك الرائع «على فراش طاغية» أكثر من مرة، حاولت الاتصال بك هاتفيًّا، لكن الجريدة رفضَت إعطائي رقم هاتفك الخاص، لذلك أرسلت إليك على بريد «الماسنجر».

بدايةً، أحب أن أقول لكَ أنني أيضًا قد نمتُ يومًا على فراش طاغية، نعم، قصتي تشبه كثيرًا قصة زوجة سيدنا عمر بن الخطاب، كلتانا صوتها يعلو على صوتِ زوجها في بعض الأحيان، مع الاختلاف الكبير بين ردٍّ فعل زوجي وردٍّ فعل ثاني الخلفاء الراشدين، ويُحكَى في كتُب السلف الصالح، ولا أعلم صحة هذه الرواية من عدمها إلا أنها راقَتني، فما بها يدل على رحمة وحنان سيدنا عمر، وقد قرأتها في كتاب «تنبيه الغافلين» لأبو الليث السمرقندي، يقول فيها: إن أحد الصحابة قد ضاق ذرعًا من زوجته لأن صوتها عالٍ ودائمة الصياح، فذهب ليشتكي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعندما شرع في دق الباب، سمع صوت زوجة عمر يعلو على صوته ويصل إلى الشارع، فخاب أمله، وبينما كان يهُم بالانصراف، إذا بعمر يفتح الباب ويقول له: وكأنك جئت لي، فرد الصحابي: نعم، جئتُ أشتكي من صوت زوجتي وصياحها

الدائـم، فوجـدت عنـدكَ مثـل مـا عنـدي، فقـال عمـر: تحمَّلتنـي، غسـلَت ثيـابي، بسـطَت منامـي، ربَّـت أولادي، نظَّفـت بيتـي، تفعـل ذلـك بكل حـب ولم يأمُرهـا الله بذلـك إنمـا تفعلـه طواعيـة، أفـلا أتحمَّلهـا إذا رفعَـت صوتهـا، إننـي سـمعتُ الرسـول الكريـم يقـول: «اسـتوصوا بالنسـاء خـيرًا».

هـذا كان ردُّ أمـير المؤمنـين عمـر بـن الخطـاب، وأُشـهِد اللـه أننـي أفعـل أكـثر مـما كانـت تفعلـه زوجتـه، حيـث أننـي أسـتيقظ مبكـرًا قبـل زوجـي كل يـوم بثـلاثِ سـاعات، أُعِـد الفطـور لـلأولاد، وأقـوم بتجهيزهـم، وآخذهـم إلى المدرسـة وأذهـب أنـا إلى عمـلي، ثـم أعـود إلى المنـزل، فأعـد طعـام الغـداء وأنظـف المنـزل، وأذاكـر مـع الأولاد دروسَـهم، ثـم أُحـضِّر طعـام العشـاء، وبالإضافـة إلى ذلـك، أكـوي الملابـس لأفـراد الأسرة، وكذلـك أمسَـح الأحذيـة لهـم جميعًـا، لكننـي إذا رفعـتُ صـوتي مـرةً - ليـس عـلى زوجـي بالطبـع ولكـن عـلى أحـد الأبنـاء- يخـرُج زوجـي منفعـلًا تـاركًا المنـزل، ويظـل غاضبًـا لعـدة أيـام ولا يتحـدث معـي.

أنـتَ تعلـم يـا سـيدي أن الأعبـاء زادت كثـيرًا في الآونـة الأخـيرة عـلى المـرأة العربيـة، فأصبحـت تتحمَّـل فـوق طاقتهـا، وذلـك بعـد أن تقلَّـص دور الرجـل لشـعوره بالقهـر والمهانـة في بلادنـا، لأن حكامنـا جاثمـين فـوق أقدارِهـم لسـنوات طويلـةٍ تُكمِّـم أفواههـم وتنتقِـص مـن رجولتهـم، وشـعور الرجـل بالـذل والضعف يجعلـه يشـعر بقلـة الحيلـة ويُفقِـده ثقتَـه بنفسـه ويُقلِّـل مـن قـوة تحملـه لتبِعـات الحيـاة، أنـا أعـذُر زوجـي، فاعتقالـه في سـجون الحاكـم لسـنوات جعلَـه سريـع الغضـب قليـل الصـبر، لكننـي لم أعـد أحتمـل تصرفاتـه، لذلـك أعتقـد بأننـي أيضًـا أنـام عـلى فـراش طاغيـة، ولكـن مـن نـوعٍ آخـر.

بعـد أن قـرأ قصتهـا، حـاول الدخـول إلى حسـابها الخـاص كي يُناقِشـها فيـما كتبَـت، لكنـه وجـد أن الحسـاب قـد تـمَّ غلقـه.

لم يُعِـر اهتمامًـا بذلـك وبـدأ في كتابـة مقالـه، ولكـن مـن حـين إلى آخـر كانـت تـراوده كلـمات السـيدة المجهولـة، وربطِهـا بـين مقالـه الـذي كان يتحـدث فيـه عـن طاغيـة سـياسي مـن الطـراز الأول مثـل نيكـولاي تشاوتشيسـكو، وبـين نـوعٍ آخـر مـن طغيـان الـزوجِ مـن وجهـة نظرهـا، وعـدم تحملـه لهـا، ولصوتهـا العـالي، ومـع ذلـك التمسَـت لـه الأعـذار وعـزَت ذلـك إلى الأوضـاع السياسـية في وطننـا العـربي مـن المحيـط إلى الخليـج، والقمـع الـذي تفرضـه الأجهـزة الأمنيـة عـلى المواطـن، وتكميـم الأفـواه، خاصـةً وأن صاحبـة الرسـالة مـن المغـرب العـربي كـما ذكـرَت في بدايـة رسـالتها، إذًا هـي مشـكلةٌ ربمـا تكـون عربيـة، لأن مـا يحـدث في المغـرب، يحـدث مثلـه في مِـصر والأردُن والسـعودية وفي الصومـال أيضًـا، وهـو عـدم تقديـر الرجـل لـدورِ المـرأة في حياتـه بوجـهٍ عـام، ودورهـا كزوجـةٍ بوجـه خـاص، إنهـا معضلـةٌ تبحـث عـن حـل، ودور سياسـةِ الـدول في تغيـير سـلوكِ الفـرد.

عـاد أدراجـه إلى المقـال وغـيَّر العنـوان مـن «أبعـاد أخـرى للقضيـة الفلسـطينية» إلى «المـرأة في المجتمعـات العربيـة والقهـر السـياسي»، ليـدور المقـال في نطـاق مـا قالَتـه السـيدة المجهولـة في رسـالتها.

أرسـل المقـال عـن طريـق البريـد الإلكـتروني إلى علياء، والتـي صدمَهـا مـا في المقـال مـن أفـكارٍ تُجـافي تمامًـا أفـكار وسـام عبـد العزيـز، لكنهـا شـعرت بسـعادةٍ لأنـه وللمـرة الأولى يتحـدث عـن قضايـا المـرأة، وينصُرهـا أيضًـا، وهـو الـذي ألغـى صفحـة المـرأة في الجريـدة منـذ عامـين.

(7)

كان وليد الحفناوي صديق وسام ينتظره في مكتبه في جريدة «الأنباء»، يدخن سيجارةً تلو الأخرى، إلى أن ضاقت منفضةُ السجائر بالأعقاب التي تشوَّه شكلها بفعل قوة ضغط أصابعه عليها نتيجة توتره، وعلياء من حين إلى آخر كانت تدخل إليه وتسأله عن أحواله وأحوال أسرته، وهو يردُّ باقتضابٍ ويسأل عن تأخر وسام، فتقول:

- ربما لديه اجتماع مع رئيس مجلس إدارة الجريدة، لأن هاتفه مغلق، فهو عادةً عندما يكون في اجتماع مهم يُغلِق هاتفه.

وليد الحفناوي، ابن فاروق الحفناوي صاحب أكبر مزارع قصب السكر في الصعيد، والمُورِّد الأساسي لمصنع «كوم أمبو للسكر»، وقد أنشأ والده مصنعًا للخشب الحُبَيبي هناك للاستفادة من مخلفات القصب الناتجة عن صناعة السكر.

درس وليد الإعلام في جامعة القاهرة مع وسام، وعندما تخرَّج التحق بالعمل في مكتب الأهرام في أسوان ليكون بجوار والده ليساعده في أعماله، خاصةً وأنه الابن الوحيد، والآن هو شريكٌ في قناةٍ فضائية، ويمتلك جريدةً متخصصةً في الاقتصاد، بعد أن باع

مصنعَ الخشب الحُبَيبي بعد وفاة والده، وأبقى فقط على الأرض الزراعية، لأنها أرضُ الأجداد، والتخلي عنها أو بيعها يعد عارًا وجُرمًا بالنسبة إليهم في الصعيد.

كانت سعادة وسام لا توصف عندما رأى وليد، فهو صديقه الوحيد الذي يعرف عنه كل شيء، هو خزينة الأسرار الخاصة به، لذلك ترك وصيته مكتوبةً لا يعلم أحد عنها شيئًا، وأخصَّه هو فقط بها، كتبها أمامه وأوصاه ألا يعلم عنها أحد شيئًا إلا بعد وفاته.

طال العناق بينهما للحظات، وطلب من علياء ألا تُزعِجه بأي هواتف أو أوراق حتى ينتهي من لقاء صديق العمر.

فتح وسام درج مكتبه وأخرج علبةً فضيةً قد أهداها له أحد أفراد الأسرة المالِكة في أبو طبي، وكان بها عدد من السيجار الكوبي الفاخر، فأعطى وليد إياها قائلاً:

- سوف أجعلكَ تدخن أغلى سيجار في العالم «غوركا بلاك دراجون»، والذي يصل سعر الواحد منه إلى أكثر من ألفِ دولار، لقد صُعِقت عندما أخبرني سفيرنا في الإمارات بسعره، فهو كان معي في الحفل الذي تمَّ على هامش مهرجان التكريم في بيت أحد الأمراء المهتمين بالثقافة، علبة السيجار هذه -والتي تحوي عشرةً منه- تعادل ثمنَ سيارةٍ صغيرة، كل يومٍ أفتح درج المكتب وأنظُر إليهم، ثم أُغلِق الدرج مرة أخرى عندما أتذكَّر أن ثمن السيجار الواحد يُعادِل ثلثَ راتبي، لكن زيارتكَ لي اليوم جعلتني أُقدِم على هذه الخطوة المجنونة، لأثبت لك قدرك عندي.

أخـرج سـيجارَين مـن العلبـة الفضيـة، وهـمَّ في ذبحهـما بإزالـة الغـلاف الفخـم عنهـما، والـذي يحمـل العلامـة المميـزة للسـيجار.

وضـع السـيجار في فـم وليـد وأخـرج قداحتـه مـن جيـب سـترته، وشرع في إشـعال السـيجار وهـو يقـول:

- سامحني يا رب.

ثم انهمرَ الاثنان في وصلةٍ من الضحك.

قام وسام واحتضن وليد مرةً أخرى وهو يقول:

- أجِدُك مثقلًا بالهموم يا صديقي، ما بك؟

بعـد أن سـحب وليـد نفسًـا عميقًـا يفـوق المئـة دولار، هكـذا عقَّـب وسـام، ابتسـم وليـد ثـم قـال:

- سـلمى الصفتـي، رأيتهـا بالأمـس بعـد مـرور أكـثر مـن خمسـة وعشريـن عامًـا، كانـت تصحَـب الوفـد الإعلامـي الكويتـي في مؤتمـر الإعـلام العـربي، حيـث تعمـل مديـرة العلاقـات العامـة في وزارة الإعـلام الكويتيـة بعـد أن حصلـت عـلى الجنسـية الكويتيـة، وذلـك بزواجهـا مـن صحفـي كويتـي كان يعمـل معهـا في جريـدة «القبـس». كانـت كـما هـي يـا وسـام؛ لم تتغير، كأننـي تركتُهـا بالأمـس القريـب، لم يتمكـن الزمـن مـن حفـر آثـاره عـلى بشرتهـا ولا عـلى قوامهـا، وقـد علِمـت منهـا أن زوجهـا قـد توفـاه اللـه منـذ عـدة أشـهر، ولديهـا ثـلاث بنـات وولـد يدرسـون في أمريـكا، لقـد سـألتني عنـكَ يـا وسـام، وتريـد رؤيتـك قبـل مغادرتهـا القاهـرة، لا أعـرف يـا وسـام مـاذا أفعـل؟ لم تنَـم عينـاي منـذ أمـس، لم يتوقـف عقـلي عـن التفكـير في حبيبـة العمـر، والتـي رفـض والـدي أن أرتبـط بهـا وأصرَّ عـلى أن أتـزوج ابنـةَ عمـي، وهـو

يعلـم تمامًـا ارتباطـي بسـلمى، لكنهـا العـادات والتقاليـد التـي جعلتنـي أعيـش حيـاةً تعيسـةً لأكـثر مـن ربـع قـرنٍ مـن الزمـان، وصرتُ محرومًـا حتـى مـن كلمـة أبي بسـبب العوامـل الوراثيـة التـي تسـببت في عـدم اكتـمال حمـل زوجتـي، ناهيـكَ عـن جفائهـا وتذكيرهـا الدائـم لي بأننـي أُجـبِرت عـلى الـزواج منهـا، لا أعـرف مـاذا أفعـل يـا صديقـي، هـل أُعيـد أواصِر الحـب بينـي وبـين سـلمى خاصـةً وأن الظـروف الآن مواتيـةٌ بعـد وفـاة زوجهـا؟ أم أظـل في هـذا العـذاب المُطبِـق عـلى صـدري حتـى لا أغضـب أبي في قـبره؟ لقـائي بهـا بالأمـس حـرك مشـاعرَ دفينـةً كنـت أحتفـظ لهـا بهـا منـذ سـنين طـوال، أريـد منـك أن تتحـدث معهـا وتجِـسَّ رأيهـا بصفتـكَ الصديـق المشـترك والشـاهد عـلى قصـة حبنـا.

تـرك مقعـده، وجلـس بجـوار وليـد عـلى الأريكـة الجلديـة المقابلـة لمكتبـه، وقـال:

- بدايـةً، لا بـد مـن أن نتأكـد أن سـلمى هـي أيضًـا مـا زالـت تحتفـظ بداخلها ببعـض المشـاعر الطيبـة تجاهَـك، فقـد خذلتَهـا مـن قبـل أمـام ذويهـا بعـدم ذهابـكَ إليهـم في الموعـد الـذي كنـت قـد حددتـه أنـتَ لطلـب يدهـا، أتذكـر جيـدًا حديثهـا لي بعـد زواجِـك، كنـا في مطعـم نقابـة الصحفيـين، وأخبرتنـي كيـف أنهـا كفـرَت بالحـب، وقـرَّرت أن تسـافر إلى أي مـكان كي تعـبُر مـن آلام التجربـة الأليمـة معـك، ثـم سـافرت إلى الكويـت وانقطعَـت أخبارهـا عـن الجميـع.

(8)

أصرَّ وليـد أن يصطحـب وسـام معـه لتنـاول العشـاء في فنـدق «النيـل هيلتـون» حيـث يقيـم الوفـد الكويتـي، عـلى أمـل أن يتقابـل مـرةً أخـرى مـع سـلمى، لكـن خـابَ توقعـه لأن الوفـد الكويتـي كان في مأدبـة عشـاءٍ في بيـت السـفير الكويتـي بالقاهـرة، علِـم وسـام بذلـك عـن طريـق محادثـة هاتفيـة بينـه وبـين سـلمى كي يُحـدِّد موعـدًا معهـا للقـاء.

عـاد وسـام إلى الفيـلا وهـو يشـعر بالإرهـاق، فقـد خـرج مبكـرًا للقـاء وزيـر السـياحة، والـذي طلـب منـه أن يكـون بصحبتهـم أثنـاء مكوثِهـم في ألمانيـا لحضـور فعاليـات بورصـة برلـين للسـياحة، وذلـك بصفتـه حامـلًا للجنسـيَّتين المصريـة والألمانيـة، ولأن لـه علاقـاتٌ مـع رجـال المـال والأعـمال ورؤسـاء تحريـر كُبرَيـات الصحـف هنـاك.

دخـل إلى مكتبـه وفتـح جهـاز الحاسـوب لـيرى البروفـة النهائيـة للعـدد الأسـبوعي، وبعـد أن تصفَّحـه، أرسـل بعـض الملاحظـات إلى (سـامي المغـازي) عـبر البريـد الإلكـتروني، ووجـد رسـالةً معلقـةً عـلى «الماسـنجر» تقـول:

عزيزي الأستاذ وسام..

أنا مصرية، حاصلة على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون في علم المصريات، ربما الاسم لا يهم، وفقط ذكرتُ لك التخصص لأنني سوف أتناول مقالكَ الذي نشرتَه منذ ثلاثة أسابيع بعنوان «على فراش طاغية» مُقترِنًا ببعض ما جاء في تاريخ الفراعنة.

بحُكم تخصصي أحاول أن أُفرِعن الأمور بعضَ الشيء، إن جازَ لفظ «أُفرِعن»، لأن التاريخ دائمًا يعيد نفسه، أو ربما الفكرة الفلسفية التي تؤمن بتناسخ الأرواح؛ أي رجوعَ الروح إلى الحياة بجسدٍ آخر.

زوجي يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ رمسيس الثاني، الفرعون الأكثر شهرةً والأقوى طوال عهد الإمبراطورية المصرية القديمة، والذي قادَ عدة حملاتٍ عسكرية على بلاد الشام، وأعاد السيطرة المصرية على كنعان، زوجي يُشبِهه كونه فرعونًا مثله هو أيضًا، أو ربما لأنه مولعٌ بالنساء مثله، لكن الاختلاف الوحيد بينهما، أن النقوش الأثرية تؤكد أن رمسيس الثاني كان عادلًا بين زوجاته، رغم عدم وجود ضوابط أو قوانين تحكم ذلك.

زوجي لم يكن عادلًا أبدًا، فهو يفضل دائمًا زوجته الإيطالية عني وعن بقية النساء اللاتي ارتبطَ بهن عن طريق عقود زواجٍ عُرفي، وأخبرك سرًّا، زوجي لا يعرِف أنني أعلم عنه كل هذه المعلومات بخصوص زواجه من أجنبية، أو بزواجه العرفي بأكثر من فتاة، فقد كنت دائمًا أحاول أن أحافظ على كيان بيتي وأسرتي من الزوال بالتغاضي عن أخطائه والقفز فوقها.

زوجي متعدد الأسفار بحُكم عمله، فهو يمتلك عدة شركاتٍ سياحية، وكان يقضي أوقاتًا كثيرةً في فرع الشركة في روما، واكتشفتُ

بعدها أنه قد تزوج زواجًا مدنيًّا بابنة شريكه هناك، حاولت أكثر من مرة أن ألفِت نظره إلى أنني أنا الأخرى لي حقوق يجب عليه أن يؤديها.

كان دائمًا صلدَ المشاعر، بخيلَ الأحاسيس، ضربَ برغباتي عرض الحائط بعد حديثي معه، ظن أنه فرعونٌ لا يحق لي الخروج عليه، أو أن أقوم ضده بثورة، لا يعلم أن المصريين القدماء قاموا بثورة جياع ضد الملك بيبي الثاني، رغم أنه قد حكم البلاد لأكثر من ستين عامًا وانتصرَ في كل الحروب، فتردِّي أحوال مِصر وتفشي الفقر والمجاعات حثَّ الشعب على القيام بثورة ضده، وعمَّت الفوضى والاضطرابات في كل البلاد، هذا حدثٌ في عصر الفراعنة السابقين، أما في عصرنا الحديث، فقد قام المصريون بثورةٍ ضد آخر الفراعنة وحاكموه وسجنوه، لكن زوجي لم يرتدِع، سوف أثور يومًا عليه ليعرف أن صمتَ المرأة المقهورة، مثله مثل صمت الشعوب المقهورة بالضبط، فتتحيَّن الفرصة لتثور وتثأر لنفسها.

بعد أن استمعتَ إلى قصتي، ألا يحقُّ لي أن أقول إنني ما زلتُ أنام على فراش طاغية؟!.

حاول الردَّ على الرسالة، لكنه وجدَ أن الحساب قد تمَّ غلقه.

(9)

كانـت في انتظـاره في حجـرة السـكرتارية بالجريـدة، سـيدة في العقـد الرابـع مـن عمرهـا، فارعـة الطـول، سـمراء البـشرة، ويبـدو مـن ثيابهـا أنهـا شـديدة الـثراء، لم تُفصِـح عـن اسـمها أو عـن سـبب رغبتهـا في لقـاء الأسـتاذ وسـام، وكل مـا ذكرَتـه أنهـا تريـده في مسـألةٍ شـخصية.

سـهام الحفنـاوي، زوجـة وليـد، هكـذا عرَّفـت نفسـها إلى وسـام، فرحَّـب بهـا، وطلـب مـن علياء أن تُرسِـل السـاعي بكوبـين مـن الليمـون المثلـج مـن أجـل إطفـاء ظـمأ هـذا اليـوم شـديد الحـرارة، ثـم قـال:

- آسـف لأنـه لم يسـعدني الحـظ ولم نلتـقِ مـن قبـل، عـدم حضـوري عقـد قِرانكـما كان بسـبب وجـودي في ألمانيـا، ووجودكـما في أسـوان قـد أجـل اللقـاء لخمسـةٍ وعشريـن عامًـا، عـلى أي حـال، أنـا سـعيد جـدًّا بلقـاءِ زوجـة صديـق العمـر، هـل مـن خدمـة أسـتطيع أن أسـديها إليـك؟

قالت:

- لقـد جئتـكَ مـن أجـل أن تسـاعدني كي أحافـظ عـلى بيتـي مـن الخـراب، ليـس حبًّـا لوليـد، ولكـن احترامًـا لنفـسي ولتاريـخ العائلـة، أعلـم أن سـلمى الصفتـي في القاهـرة، وأن وليـد قـد أتى إليـكَ مـن أجـل أن تتدخـل لعـودة العلاقـة بينهـما مـن جديـد.

قبل أن تسألني كيف عرفت كل هذا، أنت صحفي وتعلم أن الإفصاح عن مصدر المعلومة خطأ كبير، لكنني سوف أكون معك أكثر كرمًا من الصحفيين، زوج صديقتي ضابط شرطة سابق، وكان يعمل في جهاز أمني حسَّاس تم تفكيكه والتخلص من معظم قياداته في عهد حكم الإخوان، بعدها ذهب إلى دولة خليجية من أجل مساعدتها في إنشاء جهاز مخابراتي قوي لمواجه التحديات الجديدة التي تحيط بالمنطقة العربية، وبعد أن كوَّن ثروة كبيرة، عاد إلى مِصر مرة أخرى، وأنشأ مع صديقٍ له شركة أمن وحراسات، واستعان ببعض الجنود السابقين الذين كانوا يعملون معه أثناء خدمته، وعندما اشتكيت إلى صديقتي غياب وليد المتكرر، عرضت عليَّ أن يتولى مكتب زوجها مراقبته وإرسال تقريرٍ يوميٍّ عنه، فراقَتني الفكرة، وأصبح زوجي كتابًا مفتوحًا أمامي.

لقد تهاونتُ كثيرًا في حق نفسي، كنت أرى زوجي يُعامِلني كمتهمةٍ حرمَته السعادة التي كان ينشدها بزواجه من سلمى، لكن الذي لا يعلمه وليد، أنني أيضًا كنت مرتبطةً بقصة حب مع شقيق صديقتي الضابط في سلاح الطيران، لكنني بعد الزواج الذي فُرِض عليَّ قهرًا، لم أحاول ولو لمرةٍ واحدةٍ أن أراه، أو أعرف حتى أخباره، وزيادةً في إخلاصي لوليد، قطعتُ علاقتي بصديقتي، والتي جاءت تزورني بعدها في بيتي حاملةً معها خطابًا غراميًّا لي من شقيقها، حبيبي السابق، يومَها مزقتُ الخطاب وألقيت به في وجهها وطردتها من البيت، في حين كنت أتمزَّق حبًّا وشوقًا مع الخطاب، لكن كرامتي وكرامة زوجي وابن عمي أهم كثيرًا من قلبي.

أقسمُ لكَ أستاذ وسام، إنني حاولت أكثر من مرة التقرب منه، لكنه كان يلفظني في كل مرة، للدرجة التي جعلته يتَّخِذ من مصنع الأخشاب الذي كان يملكه مقرًّا دائمًا، بذريعة أن العمل في حاجة ماسةٍ إليه، ولا يريد الانتقال يوميًّا من أسوان إلى كوم أمبو، رغم أن المسافة تقطعها السيارة في أقل من نصف الساعة، لقد عرضت عليه - بعد أن أكد الأطباء استحالة استمرار الحمل- أن يتزوجَ بأخرى حتى لا يُحرَم من الأبناء، لكنه رفض تمامًا الفكرة.

لقد جئتكَ اليوم لتحفظ لي كرامتي، أعلم أن وليد يُنصِت إليكَ جيدًا، قل له إنه إذا أراد الارتباط بسلمى، عليه أولًا إعطائي حريتي، وثانيًا أن يردُّ لي أملاكي التي بدَّدها من أجل شراء قناة فضائية فاشلة لا يراها أحد غيره، وثالثًا وهو المهم، أن يُعيد لي الرحم الذي تخلصتُ منه بعمليةٍ جراحيةٍ بعد أن فشل الحمل الأول، لأنني كنت قد كرهته ولا أريد أن أحمَل منه.

هل عرفتَ الآن حجم المعاناة التي مرَّت بي؟! صديقكَ أناني، لا يحب إلا نفسه، وحتى لا يخدعك، اسأله كم مرةً تزوج عرفيًّا من عاملاتٍ في المصنع، كم مرةً أجبرهن على إفراغ ما في بطونهن من أجنة، وهو الباكي الدائم لأنه كان يريد وأن يصبح أبًا، أعلمُ أنها حقائق مؤلمة، لكنها حقائق، من السهل أن تتأكد منها.

أعتذر لو كنت قد أطَلتُ عليك، فأنا أعلم تمامًا مهامَّ منصبك، وأهمية الوقت بالنسبة إليك، هذا هو رقم هاتفي، اتصل بي لتُعلِمني بقرار وليد.

كان وسام في حالة ذهولٍ من كم المعلومات المغلوطة التي قالها

وليـد عـن زوجتـه، وكذلـك الأشـياء التـي تعمَّـد إخفاءَهـا عنـه، مثـل زواجـه المتكـرر واقـتراح زوجتـه عليـه أن يتـزوج أخـرى مـن أجـل أن يصبـح أبًـا.

في محادثـةٍ هاتفيـةٍ مقتضبـة، طلـب وسـام مـن وليـد أن يلتقيـه فـورًا في مقهـى «وادي النيـل» بميـدان التحريـر، وكان قـد اتخـذ قـرارًا، إذا كانـت سـهام الحفنـاوي صادقـةً في كل مـا قالتـه، فإنـه سـوف يُنهـي علاقتـه بـوليد، لأنـه قـد خدعـه.

وصـل وليـد إلى المقهـى بعـد دقائـق معـدودة بسـبب قربـه مـن الفنـدق الـذي يُقيـم فيـه، وجلـس في الطابـق الثـاني بجـوار النافـذة التـي تُطِـل عـلى ميـدان التحريـر، وتذكـر ثـورة ينايـر والاختبـاء في المقهـى يـوم موقعـةِ «الجمـل»، كان الأمـلُ يـراوده بـأن وسـام يريـد أن يتحـدث معـه بخصـوص سـلمى، أو ربمـا أنهـا قـد أبـدَت موافقتَهـا عـلى الفكـرة، لم يَطُـل الاسـتغراق في الأحـلام أكـثر مـن ثـوانٍ معـدودة، أتى بعدهـا وسـام ويحمِـل وجهـه علامـات غضـبٍ مُبالَـغ فيهـا.

- ما بكَ يا وسام؟ أراكَ حزينا!

قالهـا وليـد، إلا أن وسـام لم يـرد عـلى سـؤاله وسـحبَ مقعـدًا وجلـس، ثـم طـال صمتـه إلى دقائـق وكأنـه يسـتجمِع قـوى غضبـه، ثـم انطلـق كمدفـعٍ سريـع الطلقـات مُوجِّهـا أسـئلته إلى وليـد، والـذي كلـما شرع في الإجابـة عـن سـؤالٍ قوبِـلَ بسـؤالٍ آخـر، حـاولَ أن يمتـص غضبـه، ثـم قـام وقبَّـل رأسـه طالبًـا منـه أن يهـدأ وأنـه سـوف يُوضِّـح لـه كل شيء، وقـال:

- نعـم، كل مـا قالتـه زوجتـي صِـدق، ولكـن كل هـذا حـدث في أول

سنين الزواج، حين كنتَ تعمل أنتَ خارج مِصر، عشر سنوات قضيتَها يا صديقي ما بين بون وموسكو وبوخارست، فكنتَ تأتي إجازاتٍ قصيرةٍ جدًّا، وكنتُ أنا آتي إليكَ من أسوان من أجل أن أراك، وكنتَ تعطيني من وقتكَ سويعات قليلة، لا تكفي حتى كي أشبعَ منك، فكيف كنت تريد مني أن أضيع الوقت الذي أقضيه معكَ في سردِ أحوالي بالتفصيل، كنت تسألني عن أحوالي، وأنا أجيبك: «خيرًا والحمد لله»، ثم أعاود أدراجي وأعود إلى أسوان.

لم أتعمَّد الكذب عليك، ولكنني لم أكن أريد أن أُثقِل عليك، خاصةً وأنك كنت دائمًا تشكو من زوجتك وعن الثقة المنعدمة بينكما، كنتَ في كل مرةٍ تعطي لنفسك الحق في أن تقص عليَّ موجز أنباء حياتك طوال عامٍ من الغياب، ثم بعدها تنظر في ساعة يدك وتتعلل بموعدٍ مهم مع سفير أو رئيس تحرير، فكنتُ أتركك وأنا أحمِل جرحي الذي لم يندمل أبدًا، كنت أريد في كل مرة أن أُفرِغ جعبة أحزاني، ولكنك كنت في كل مرة تفرغ أنت جعبتك داخل جعبتي حتى امتلأت عن آخرها، حتى التزمتُ الصمت، وكان عزائي الوحيد هو أنك تستريح عندما تقصُّ لي أدقَّ تفاصيل حياتك.

أفهِمتَ الآن أنني لم أتعمد يومًا الكذب عليك؟! أما عن شروط سهام الثلاث، فإنني سوف أحقق لها ما أرادت بخصوص الانفصال ورَدِّ كل الأموال التي اقترضتُها منها، لكن بخصوص الشرط الثالث، فكيف سأرُد لها الرحم الذي تخلَّصَت هي منه بكامل إرادتها؟!

شـعر وسـام بأنـه قـد أسـاءَ الظـن بصديـق عمـره، فقـامَ واحتضنـه، ثـم همـسَ في أذنـه:

- في المساء سوف ألتقي مع سلمى الصفتي على مقهى «أم كلثوم»، هي مَن حددَّ المكان والزمان، وقالت لي: أريد أن أذهبَ إلى هذا المكان لأن لي فيه ذكريات جميلة.

خبط وليد هامتَه بيده وأخرج صرخةً قويةً لفتَت انتباه رواد المقهى قائلًا:

- مقهى «أم كلثوم»! هذا هو المكان الذي كنا نتلاقَى فيه دائمًا، سلمى ما زالت تحبني يا وسام!

(10)

كانت علياء تنتظره في منزلها في التجمع الخامس، وقد أعدت له «فتة الكوارع» التي يتوق دائمًا إليها ويأنَف أن يأكلها خارج البيت، لأن نادين زوجته دائمًا منشغلةً بشئون العمل؛ منصبها الرفيع والدقيق كمديرةٍ لهيئة المصل واللقاح جعلَها تُهمِل شئون بيتها، فلم تهتم بالأشياء الصغيرة التي تُحدِث فارقًا في العلاقات الإنسانية، لذلك كان وسام كلما أرغمَه شوقه إلى طعامٍ ما، أعطاها إجازةً، أو سمحَ لها بالانصراف مبكرًا من العمل من أجل إعداد الطعام.

اتصل وسام يعتذرُ عن عدم الحضور على الغداء لأن الوقت داهمَه ولديه لقاء مع سلمى الصفتي، وقال إنه سوف يأتي على العشاء.

أمسكت علياء بالدفتر الخاص بها وبدأت تكتب:

«كم أعتصِر حزنًا وأنا أكتب ما بداخلي، أغضبُ منكَ فأكتب، أشتاقُكَ فأكتب، أغارُ عليكَ فأكتب، ومراتٍ أكرهكَ فأكتب، أُغازِل فيك الأفق، أرسمُ بسمةً صفراءَ على شفتَي، وألوِّح بيدي لك أيها الغائب عن دفاتري، أصبحتُ شبحًا يسافر مع الراحلين

ليلحـقَ بظلـك كاللاجئـين، أصبحـتُ أعـاني الصمـت القـارص رغـم قيـظِ وضجيـجِ حـرارة الصيـف، أعلـم أننـي أكتـب مجـرد أبجديـةٍ جوفـاء، ولكـن مـاذا أفعـل للحظـاتِ الاشـتياق التـي تنفَلِـت رغـمًا عنـي؟! سـوف أرتـدي عبـاءةَ الكبريـاء يومًـا يـا وسـام، ووقتهـا سـأخيطكَ حزامًـا لعبـاءتي».

***

أصرَّت سـلمى الصفتـي عـلى الجلـوس عـلى المقاعـد المتراصـة عـلى رصيـف المقهـى، فهـي لديهـا فوبيـا مـن الأماكـن المغلقـة، طلبَـت كوبًـا مـن الشـاي الأسـود بالنعنـاع، ثـم وصـل وسـام يسـبِقهُ اعتـذاره عـن التأخـير عـشر دقائـق عـن موعـده، بسـبب البحـث المُضنِـي عـن مـكانٍ يـترك فيـه سـيارته.

كانـت أم كلثـوم تشـدو برائعتهـا «الأوِّلـة في الغـرام»، فارتفـع صـوت سـلمى مـع مقطـع: «والثالثـة مـن غـير معـاد راحـوا وفاتـوني»، فضحـك وسـام قائـلا:

- وأنا هنا اليوم من أجل مناقشة موضوع الذي «راح وفاتك».

بدَت على وجهها مسحةُ خجل، وقالت:

- ما زلتَ تلعب بالكلمات يا وسام.

- وأنـتِ مـا زلـتِ جميلـةً يـا سـلمى، لم يسـتطع الزمـن هزيمتـكِ وإضعـاف جمالـك، ألم تُنجبـي أطفـالًا؟

فقالت:

- لديَّ ثلاثُ بناتٍ وولد أسميتُه وليد.

ابتسم وسام واعتدل فوق مقعده وقال:

- وأنا هنا من أجل الحديث عن وليد، وليد الحفناوي، إنه ما زال يحبك، وعلى استعدادٍ لأن يُقدِّم لكِ الترضية المناسبة للتكفير عن خطأ حدث في الماضي رغمًا عنه، ضغوط والده عليه والتلويح بحرمانه من الإرث تارة، وأنه سوف يموت كمدًا إذا تزوج غير ابنة أخيه تارةً أخرى، وليد ليس لديه أولاد، ويعيش بعيدًا عن زوجته لفتراتٍ طويلة، ولا يجمعهُما أي شيءٍ سوى لقب العائلة الحفناوي، لقد طلبَ مني أن أتوسَّط له عندك، وخشيَ إذا حدثكِ هو مباشرةً أنكِ قد توافقين عليه بسيفِ الحياء، سوف أترك لكِ مدةً مناسبةً للتفكير، وفي حالة الموافقة على طلبه، سوف يُصفِّي جميع أعماله في مِصر ويذهَب للعيش معكِ في الكويت.

وليد من حين إلى آخر كان يبعثُ برسائل يطمئن فيها عن سير الأمور مع سلمى، حتى اتصل به وسام بعد انتهاء اللقاء مباشرةً وقال:

- اطمئن، يُلوِّح في الأفق اللونُ الأخضر، استعِد للمرور إلى قلبها، سلمى ما زالت تحبك، من فضلك تعامَل مع زوجتكَ بحكمة؛ هي مثلك تمامًا، ضحيةٌ للعادات والتقاليد وتعنُّت الأهل، حاول أن تُرضيها، ولا تنسَ أنها ابنة عمك قبل أن تكون زوجتك، لقائي معها هذا الصباح جعلني أشعر بمدَى حبها لكَ رغم إصرارها الدائم على نفيِه، كرامتُها مجروحة، حاول وأنتَ تُجدِّد حبك وقلبَك أن تُرمِّم قلبها، أنتظركَ غدًا في الجريدةِ لنُكمِل حديثنا، علياء في انتظاري منذ الظهيرة.

(11)

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحًا عندما عاد وسام إلى بيته، لاحظَ أن غرفة زوجته ما زالت مُضاءَة، لكنها سرعانَ ما أَظلمَت، وكأنها كانت تنتظره لتطمئنَّ عليه، وعندما عاد، خلدت إلى النوم.

دخل مباشرةً إلى حجرة مكتبه ومعه ملف أرسله إليه وزير الصحة والسكان، وكان به نبذةٌ عن الوزارة والمشاكل المتراكمة منذ عهود طويلة، من مستشفيات مُهدَّمة ومُتهالِكة، وعلاجٍ غير متوفر، ونقصٍ في عدد الأسِرَّة بالمستشفيات، ومشاكل التأمين الصحي،... كان التقرير يضُم أكثر من خمس عشرة ورقة، وأُرفِق مع التقرير مظروفٌ أصفرُ صغيرٌ به خطاب تكليف من الوزير إلى السيد (وسام عبد العزيز البحيري) بتوليَتِه منصب المستشار الإعلامي للوزارة بجانب منصبه كرئيس تحرير، وضع الخطاب جانبًا واستغرق في تفكيرٍ عميق، فهو يعرف الوزير منذ أكثر من عشرة أعوام، حينما كانا معًا في مجلس الأمناء في مدارس «القاهرة الدولية للغات»، حيث أن ابنتيه التوأمتين ريانا وريحانا كانتا تدرسان هناك مع ابنة الوزير.

تذكـر المقـال الـذي كتبـه بعـد تـولي الوزيـر منصبـه، كان بعنـوان «وزيـر الغلابـة»، والـذي ذكّـر فيـه: «كيـف يتـولى صاحـب أكـبر مستشـفى اسـتثماري في مـصر وزارة الصحـة؟ وهـل سـوف يشـعر الوزيـر بـآلام المـرضى مـن الفقـراء والمعدمـين؟ أم سـوف يوجـه سياسـة الـوزارة مـن أجـل خدمـة المستشـفيات الخاصـة؟»، وقتهـا اتصـل بـه الوزيـر ودعـاه مـن أجـل أن يُطلِعـه عـلى خطتـه للنهـوض بالـوزارة وبالصحـة، مـن خـلال دمـج المنظومـة الصحيـة الخاصـة مـع منظومـة الدولـة مـن أجـل توفـير العـلاج الآمـن لأطيـاف الشـعب كافـة، وعمـل مظلـة صحيـة تشـمل الجميـع فقـراء وأغنيـاء، كل هـذا كان يـدور في خلـده وهـو يُقلِّـب في صفحـات ملـف قـد أعدتـه سـلوى محيـي -المسـئولة عـن صفحـة «الصحـة والجـمال» في الجريـدة- حـول فسـاد وزارة الصحـة، ووجـود مخالفـاتٍ ماليـةٍ وإداريـة، والإهـمال الطبـي الـذي تسـبب في وفـاة أكـثر مـن خمـسِ مئـةِ حالـةٍ منـذ تـولي الوزيـر منصبـه، وتـردِّي الخدمـات الطبيـة المُقدَّمـة إلى المواطنـين في المستشـفيات، وزيـادة عـدد قضايـا الفسـاد في الـوزارة إلى سـتة عـشر ألـف حالـة، وملـفُّ خـاصٌّ بالعـلاج عـلى نفقـة الدولـة واسـتغلال النفـوذ، وعـدم التـزام المستشـفيات الخاصـة بقـرار رئيـس مجلـس الـوزراء بتقديـم الرعايـة الطبيـة مجانًـا لحـالات الطـوارئ والحـوادث خـلال ثمـاني وأربعـين سـاعة، وعـدم تفعيـل العقوبـات المُقـرَّرة في هـذا الشـأن والتـي قـد تصـل إلى إغـلاقِ المنشـأة، وقـد تقاعـسَ الوزيـر عـن تنفيـذ ذلـك؛ واضعًـا في الاعتبـار أنـه يمتلـك أكـبر مستشـفى خـاص في الوطـن العـربي.

بعد أن انتهى من قراءة تقرير سلوى محيي عن فساد وزارة الصحة، اتصل بسامي المغازي نائب رئيس التحرير، وطلب منه نشر التقرير الخاص بفساد وزارة الصحة كاملًا والتنويهَ عنه في الصفحة الأولى، وبهذا المقال سيفطِن الوزير بأنه يرفُض المنصب.

قبل أن يُغادِر حجرة مكتبه، سمع رنينًا ينبعث من جهاز الحاسوب مُنذِرًا إياه بوصول رسالةٍ عبر «الماسنجر»، وحين فتح الرسالة وجدَ أنها مُرسَلة من سهيلة زين العابدين من الجزائر.

عزيزي حضرة المحترم الأستاذ/ وسام، تحية طيبة وبعد..

دون الدخول في مقدماتٍ طويلة، أحب أن أُحيطَك علمًا بأنني أنا أيضًا قد نمتُ على فراش طاغية لمدة خمسة عشر عامًا، وليس ليومٍ واحدٍ مثلك، قصتي تشبه إلى حد كبير قصة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون موسى.

أنا مثلها على قدرٍ كبيرٍ من الجمال، عِشتُ قبل زواجي في رغد من العيش، ووالدي قد منَّ اللهُ عليه بوفرةٍ وسِعةٍ في الرزق، وقد رباني على طاعة الله، وحجَجْتُ بيت الله للمرة الأولى وأنا في التاسعة من عمري، وعند زواجي أتممتُ ثماني حِجَج.

تزوجتُ مدرسًا مساعدًا في إحدى الجامعات الجزائرية، وبعد الزواج بعدة سنوات، تم ترشيحه لتولي منصب الملحق التجاري في بولندا، كان من شروط البعثة أن تكون زوجته برفقتِه، وأن تتخلَّى أيضًا عن غطاءِ الرأس، رفضتُ بشدةٍ في بداية الأمر، ضغوط الأهل والأصدقاء الذين ساقَهم زوجي لإقناعي كانت كثيرةً بالدرجة

التي جَعلتني أرضَخ في النهاية، لم يكتفِ زوجي بخلعِي للحجاب فقط، بل اشترى لي ملابسَ جديدةً لا تناسبني على الإطلاق.

كنا كل يومٍ في سفارةٍ مختلفة، أو في بيوت أحد السفراء أو الملحقين التجاريين، أصر زوجي على أن أحتسي الخمر تماشيًا مع الوضع الجديد الذي أصبحنا فيه، كان يوهمني دائمًا بأننا تحت أعين أجهزة الأمن الجزائرية، ولا بد أن نُظهِر لهم أننا لسنا مُتزمِّتين دينيًّا حتى لا نُحرَم من تولي مناصب أخرى أكثر أهمية، فأصبح منزلنا لا يخلو من الخمور بأنواعها، ومع مرور الوقت، أدمنتُها!

إذا كانت آسيا قد تبرَّأت من فرعون وأعماله لأنها كانت أكثر مني إيمانًا وبشرها الله بالجنة وبنَى لها بيتًا فيها، فأنا قد خضعتُ تمامًا لنزوات زوجي وصرتُ أُعاقِر الخمر ليلًا ونهارًا، وتخلَّيت عن الحجاب حتى بعد انتهاء البعثة، وثيابي أصبحت كاشفةً شفافة، وفرعوني ما زال على كفره لم يجِد موسى ليردَعه.

بعد وفاة والدي، لم أجد سندًا أو دليلًا إلى الهداية، لا أعرف مَن الذي سوف يُحاسَب يوم القيامة على هذه الذنوب، أنا أم زوجي، لكلٍّ منا فرعونه، ربما نختاره بأنفسنا، أو ربما يُفرَض علينا فرضًا، لكن لكل فرعون نهاية، سواء كان فرعونًا صغيرًا مثل زوجي، أو فرعونًا كبيرًا مثل الذي يحكمنا، فالحاكم إذا كان ظالمًا وطاغية، يُجبِر شعبه بسبب جبروته وقسوته -هو وحاشيته- على فعل المعاصي وإفشاء الرشوة والمحسوبية والسرقة بسبب شَظَف العيش.

فراعنةٌ صنعناهم بضعفنا وخوفنا، وصبرنا في بعض الأحيان، تركتُ لزوجي حبالَ الوصال والعودة على مداها، ومع ذلك

قطعَها وفرَّ متنقلًا بين أحضان الغانيات، وإذا كنتَ ذكرت أن تشاوتشيسكو طاغية، فماذا يكون زوجي؟! هل علمتَ الآن أنني أنا أيضًا قد طالَ نومي على فراش طاغية؟!».

حاول التواصل معها، لكنه وجد أن الحساب قد تم غلقه، فترك الحاسوب دون أن يُغلِقه، وألقى بلحمِه المنهك فوق الأريكة الجلدية الموجودة في مكتبه حتى الصباح.

(12)

جلست علياء فوق الفراش وفي يدها الدعوة التي وصلتها من نادين لحضور حفل تخرُّج ابنتيها في كلية الطب بالمسرح الكبير بجامعة القاهرة.

فاضت عيناها بالدموع، وانزوَت بعيدًا حتى التصقَت بالحائط المُجاوِر للفراش، توقفَ جسدها عن محاولة الفرار من نفسه، واصطدم جسدها مع أحلامها بحائط الواقع الأليم، فتكوَّرت في مكانها كالقنفذ وبدأت تجترُّ آلامها وأحزانها...

«كان من المفترض أن أُوجِّه أنا الدعوات إلى الأصدقاء، وأن أكون أنا أم ريانا وريحانا لو كنت تزوجتكَ يا وسام، لكنكَ حرمتَني كل شيءٍ جميل، اتَّخذتَني وعاءً ذهبيًّا مرصعًا بالجواهر، لكنه ظل فارغًا، أملأُه أنا بالأحزان والشجن، أتسوَّل لحظة صفاءٍ تتصدق بها عليَّ من فوق رصيف غطرستِك، أو لحظة حب تنثرها في حِجر أحلامي وتفر هاربًا إلى واقعك الوردي، وتتركني أنا في بؤرة النسيان، ألعنُ حظي العاثر الذي ألقى بكَ في طريقي.

لو تعلم كم أحب ابنتيك، لنصَّبتَني أُمًّا شرعيةً لهما، أنا مَن اعتنَى بهما وهما صغار، حين كانت زوجتك منشغلة برسالة

الدكتوراه ولا تعود إلى المنزل إلا في منتصف الليل، كانت تتركهما وتذهب، تعلم جيدًا بأنني سوف أهتمُّ بهما، ليس لأنني خالتهُما، ولكن لأنهما جزءٌ منك، كنتُ أشعر أنها تعلَم أنني أحبك، وكانت تستغل ذلك لصالحها.

أنا أحقُّ يا وسام بأن أقف بجوارهما أثناء الاحتفال وأنتَ بجانبي، لكن منذ متى كانت النهايات سعيدةً وواقعيةً معك؟! استرِح أيها القلب قليلًا من أجل التقاطِ الأنفاس، وأنا سوف أعود إلى هوايتي المحببة؛ أُمارِس صمتي، وكفى.

***

تم عقد قِران وليد الحفناوي على سلمى الصفتي في مكتب وسام بعيدًا عن أعين المخبرين السريين الذين يعملون لصالح زوجته سهام، وبعد دقائق معدودة، وصلت رسالةٌ على هاتف وسام من سهام الحفناوي: «مبارَكٌ زواج صديقِك، المظروف الذي تركتَ فيه وصيتكَ معي، الآن سوف تدفع الثمن باهظًا أنتَ ووليد».

أغل الهاتف بعد أن قرأ الرسالة، ولاحظ كل من وليد وعلياء تغيُّر ملامح وجهه، فسأله وليد:

- ما بك؟ ماذا حدث؟

ففتح بريد الهاتف على رسالة زوجته، ثم جلس على مكتبه.

صُعِق وليد عندما قرأ الرسالة قائلًا:

- كيف استطاعَت أن تفتح الخزينة الموجودة في حجرة مكتبي؟! إنها خزينة سويسرية يصعُب فتحها بسهولة، بالتأكيد استعانَت بأحد المتخصصين في فتح الخزائن، أو ربما استعانت بلصٍّ محترفٍ في سرقة

الخزائـن، لا عليـكَ يـا صديقـي، سـوف أسـافر الآن إلى أسـوان وأضـع حـلًّا لهـذه المهزلـة، لا تقلـق، سـوف يكـون كل شيءٍ عـلى مـا يـرام، سـيظل سرُّكَ في بـئرٍ عميقـة، سـوف تـرى.

حـاول وسـام الخـروج مـن صدمـة رسـالة سـهام الحفنـاوي دون جـدوى، فسـاقته قدمـاه إلى التجمـع الخامـس، دقَّ بابهـا، كان الوقـت متأخـرًا والـشروق عـلى وشـك البـزوغ، أخذتـهُ بـين أحضانهـا وغَلَّقـت الأبـواب، وضعَـت وجهـه بـين يديهـا، ثـم تفحَّصتـه جيـدًا وقالـت:

- أجِـدُك مهمومًـا يـا وسـام، مـا بـك؟ هـل حدثـت مُشـادَّة بينـكَ وبـين ناديـن؟ هـل حـدث مكـروه للبنتـين؟

أجابَ وهو يُغمِض عينيه:

- لا، لا لم يحـدُث شيء، فقـط أحتـاجُ إلى لحظـة صمـتٍ بـين أحضانـك، أدسُّ فيهـا وجهـي بـين ضلوعـك، أُغمِـض عينـيَّ وأنـسى حقيقـةَ الأشـياء، أنـا في حاجـة إلى أن أُغيَّـب عـن عالمـي، أنـسى نقائـصي، أتطهَّـر مـن رِجـس شـيطاني، أنـا خطَّـاءٌ يـا علياء لا يتـوب، أنـا هـدَّامٌ للقيـم رغـم أننـي أبـدو عكـسَ ذلـك، أدعـو إلى الفضيلـة في مقـالاتي وأمحوهـا بقيـةَ يومـي بأفعـالي، أريـد أن أتخلـص مـن ازدواجيَّتـي، مـن حالـة الفِصـام العقـلي والوجـداني والعاطفـي الـذي أحياهـا، ضُمِّينـي بقـوةٍ حتـى أتضـاءَل وتتـوه معـالم جسـدي.

فقالت:

- هيتَ لك!

لكنه لم يقُل: «معاذَ الله».

(13)

تحدث وسام عبر الهاتف مع علياء، طلب منها حجز مكانٍ على أول طائرة متجهةٍ إلى وارسو، أوصاها ألا تخبر أحدًا بذلك، وتكون العودة بعد ثماني وأربعين ساعةً فقط.

أتى إلى الجريدة، أعطى بعض التوصيات لسامي المغازي بخصوص العدد الأسبوعي، وأخبره بأنه سوف يُرسِل في الغد مقاله الأسبوعي عبر البريد الإلكتروني.

كانت علياء في انتظاره أسفل مقر الجريدة بسيارتها لتُقِلَّه إلى المطار، وحين سألته عن سر سفره المفاجئ، أجاب:

- زيارةٌ لصديق قديم مريض طلبَ رؤيتي، سوف أعودُ بعد غد، انتظريني في المطار.

كان الجليد يكسوا أرضَ وارسو، وقف وسام ينظر في الوجوه باحثًا عمَّن ينتظره، إلى أن وجدَه، السيد جاكوب، رجلٌ في الثمانين من عمره، كان يختبئ خلف معطف جلدي مُبطَّن بالفرو، وفوق رأسه قبعةٌ من جلد الماعز، عانقه وسام وتأبَّط ذراعه.

أوقف السيد جاكوب سيارة أجرة، وطلب من سائقها أن يتوجه بهما إلى الحي اليهودي، فتحدث وسام بلطفٍ قائلًا:

- أنـا منهـكٌ مـن السـفر، سـوف آخُـذ قسـطًا مـن الراحـة ثـم آتي إليكـم في الصبـاح الباكـر.. مـن فضلِـك، فنـدق «بلوتـو».

قال جملته الأخيرة للسائق.

ظـل وسـام مسـتيقظًا طـوال الليـل، الأفـكار السـوداء تُداهِمـه، صراعُ الحـق والباطـل، الفضيلـة وسـوء الأخـلاق وخيانـة الأمانـة، ضميره يجلِـده ويـدقُّ رأسَـه بألـف مِعـوَل.

وضـعَ ثلاثـة آلاف دولارٍ في مظـروف، ثـم دسَّـها في جيـب سـترته الجلديـة، وحـاول أن ينـام مـا تبقَّـى لـه مـن سـواد الليـل.

توجـه في الصبـاح إلى أحـد المحـال الموجـودة أمـام سـاحة الفنـدق، واشـترى بعضًـا مـن لعـب الأطفـال، وطلـب مـن البائعـةِ أن تضعهـم في صنـدوقٍ خـاصٍّ بالهدايـا.

كانـت السـاعة تشـير إلى الثانيـة عـشرة، الحـي اليهـودي هـادئ عـلى غـير عادتـه، المَحـال مغلقـة، والسـيارات متوقفـة بجـوار الأرصفـة.

فتذكـر وسـام أن اليـومَ هـو السـبت، إجـازة اليهـود، كان بـاب منـزل السـيد جاكـوب يكسـوه الجليـد، فوجـد صعوبـةً في فتحـه، فسـاعده شـابٌّ بإزالـة بعـض الثلـج مـن أمـام المنـزل، شـكرَه وصعـد إلى الطابـق الأول، دقَّ البـاب، ففتحَـت راشـيل وأفسـحَت لـه الطريـق.

كان السـيد جاكـوب يجلـس عـلى مقعـد خشـبي بجـوار المدفـأة، رحَّـب بـه وطلـب مـن راشـيل أن تُعِـد طعـام الغـداء، في حـين اقـترب وسـام بمقعـده حتـى صـار ملاصقًـا لمقعـد السـيد (جاكـوب)، وهمـس في أذنـه:

- أريد الانصراف، لدي موعد مهم مع القنصل المصري.

ثـم وضـع المظـروف الـذي يحـوي الـدولارات فـوق المنضـدة، وهـمَّ بالانـصراف، إلا أن السـيد جاكـوب أخـذ يترجَّـاه أن ينتظـر قليـلًا فربمـا يـأتي الصغـير بعـد قليـل، والـذي قـد ذهـب إلى المعبـد مـع أقرانـه، لكنـه أصرَّ عـلى الانـصراف، وراشـيل تُراقِـب الموقـف مـن خلـف بـاب المطبـخ وهـي تبـكي وفي يدهـا صـورةٌ قديمـة.

شـعر وسـام بمُخـدِّر يـسري في جسـده أراحَ ضميره وجعلـه يغـطُّ في نـومٍ عميـق، لكـن راودَه حلـمٌ غريـب؛ المخابـرات تُهاجِـم منزلـه، وصورتـه تتصـدَّر الصحـف ونـشرات الأخبـار، والـكل يحـاول التنصُّـل مـن صداقتـه! فاسـتيقظَ وهـو في حالـةٍ نفسـيةٍ سـيئة، رفـضَ تنـاول وجبـة الإفطـار، وطلـب مـن إدارة الفنـدق سـيارة تَنقِلـه إلى المطـار.

كعادتـه، كافـأَ عليـاء بالإقامـة معهـا عـدة أيـام في منزلهـا؛ كانـت فرصـةً سـانِحةً ليسـتريح مـن التفكـير في الحلـم الـذي داهمـه وجعلـه متوتـرًا، فقـد خـشيَ إن عـادَ إلى بيتـه تفضحُـه قسـمات وجهـه وعصبيتـه الزائـدة، فتسـأله زوجتـه عـما حـدث، لكـن مـع عليـاء، الأمـر مختلـفٌ تمامًـا، فهـي قطعـة الإسـفنج التـي تمتـصُّ غضبـه وخوفـه وقلقـه في صمـتٍ وصَـبر.

ترك وسام نفسه لعلياء كي تُطبِّبه وترُمَّ روحه المكسورة.

«وسـام كان أكـثر لطفًـا وحنانًـا هـذه المـرة، للمـرة الأولى أشـعرُ أنـه يحبنـي بصـدق».

هكذا سجَّلت علياء في دفترها الخاص.

(14)

وصل وسام إلى الجريدة، ووجدَ تجمهُرًا من بعض الصحفيين الجدد والصحفيين تحت التمرين، فكانوا يمسكون بعض اللافتات التي تُندِّد برئيس التحرير ورئيس مجلس إدارة الجريدة لتعنُّتِهم في عدم تثبيتهم وتوفيق وتقنين أوضاعهم في الجريدة، وعدم إعطائهم خطابات خبرة من أجل إدراج أسمائهم في جداول نقابة الصحفيين.

ظل في سيارته منعًا للاحتكاك به، واتصل على الفور بمساعد وزير الداخلية وأخبره بخطورة الموقِف وبالأخص مع الوضع الحالي، وطلب منه التدخُّل على وجه السرعة، قبل أن يتفاقَم الوضع، ويتسلل إليهم بعض أصحاب الأجندات الخاصة، فتتحول إلى فوضى.

بعد دقائق معدودة، جاءت قوةٌ من الأمن المركزي وعدد من ضباط الأمن الوطني وتم احتواءُ الأمر، وطلب وسام من ضباط الأمن الوطني أن يسمحوا للمعتصمين بالدخول إلى مبنى الجريدة لأنه يريد التحدث إليهم.

حاول وسام أن يُقنِع المعتصمين بالعودة إلى أعمالهم، ووعدهم أنه عندما تتحسن ظروف الجريدة سوف يتم تثبيتهم تدريجيًّا

حسب الأقدمية، وأنه سوف يبذل قصارى جهده من أجل أن تُدرَج أسماؤهم في جداول نقابة الصحفيين.

حاول بعض الصحفيين إثارة القلاقل، مما جعله يثور عليهم قائلًا:

- لو تركتكُم للأمن الوطني، ربما لا تعودون إلى بيوتكم، حديثي لكُم ليس من مركز ضعف، بل من مُنطلِق الحب والخوف عليكم.

فتعالَت الأصوات بالتأييد للأستاذ وسام نصير الغلابة، وانصرفَت قوات الأمن.

لاحظ عدم وجود علياء على مكتبها، وحين سأل عنها السكرتيرة أخبرته أنها اتصلَت بها وأبلغَتها بأن والدتها مرِضَت ونقلَتها إلى مستشفى «المقاولون العرب».

غادر مكتبه وتوجه مباشرة إلى المستشفى، ولكنه كان متعجبًا لعدم إبلاغه بالأمر أولًا، وكأن علياء لا تريد أن تُثقِل عليه، وهو مَن يُلقي بهمومه وأحزانه وإخفاقاته في حِجرها كل يوم، حاول الاتصال بنادين، لكن هاتفها كان مغلقًا، كان يريد منها أن تُجري اتصالاتها بإدارة المستشفى، فهي بحُكم منصِبها لها تواصلٌ مباشرٌ معهم بحكم طبيعة عملها، خاصةً وأن الحالة تخصُّها هي أيضًا.

وصل إلى المستشفى، وجد نادين وعلياء واقفتَين أسفل البناية الخاصة بالعناية المركزة، كانت علياء تريد تدخين سيجارة، وحين سألهما عن الحالة، ردَّت نادين:

- الحالة متأخرة، ويوجد اعتلال عضلي وتليُّف في عضلات

القلـب، فـلا يسـتطيع الانقبـاض الكامـل وتغطيـة حاجـة الجسـم مـن الـدم المُؤكسَـد، هـي الآن موضوعـة عـلى جهـاز التنفـس الاصطناعـي.

وضـع وسـام صـكًّا بنكيًّـا قابـلًا للـصرف بمبلـغ عشريـن ألـف جنيـه في الإدارة الماليـة بالمستشـفى تحـت حسـاب العـلاج، ثـم هـمَّ بالانـصراف والعـودة إلى الجريـدة.

دخـل إلى مكتبـه، وطلـب مـن السـكرتيرة أن تأتيـه بالبريـد، وأن تدعـو مجلس التحريـر إلى الانعقـاد بعـد سـاعةٍ مـن الآن، ويكـون معهـم البروفة النهائيـة للعدد الأسـبوعي بعـد إضافـة صفحـة الرياضة.

فتـح جهـاز الحاسـوب يتصفـح آخـر الأخبـار، ثـم دلـف بريـده الإلكـتروني عـلى «الماسـنجر»، ووجـد رسـالةً مـن سـيدة تُدعَـى (سـارة أيـوب).

«سيدي الفاضل، تحية طيبة وبعد..

تـرددت كثـيرًا قبـل أن أكتُـب إليـك، لأننـي قـد تربَّيـت في بيـتٍ يُحـرِّم عـلى المـرأة فيـه أن تُخـرِج أسرار بيتهـا إلى أحـد، حتـى ولـو كان أقـرب الأقربـين، لذلـك أنشـأتُ بريـدًا عـلى «الماسـنجر» باسـمٍ مسـتعارٍ حتـى أتمكَّـن مـن سرد قصتـي أمامـك دون خـوف أو خِـزي.

قـرأت مقالـكَ «عـلى فـراش طاغيـة»، فشـعرتُ وكأنـك تكتـب عنـي، رغـم اختـلاف قصتـي تمامًـا عـما ذكرتـه، فـإن الإحسـاس والشـعور الـذي اجتابَـك، هـو الشـعور نفسـه الـذي عِشـته عـلى مـدى عشريـن عامًـا.

زوجـي رجـلٌ ثـريٌّ في كل شيء، إلا المشـاعر! وقصتنـا تشـبه كثـيرًا قصـة ناديجيـدا كروبيسـكايا وزوجهـا لينـين، فهـي رفيقـة دربـه، واشـتركا معًـا في تفجـير الثـورة البلشـفية، وبنـاء الدولـة السـوفيتية، كان وجههـا

كبـيرًا ومنتفخًـا، وكان أنفهـا مُفَلطحًـا، ورغـم قبحهـا هـذا كانـت ديكتاتوريـة ومُتعنِّتـة، منعَـت الـروس مـن قـراءة كتـب أفلاطـون وكانـط ونيتشـه و(تولسـتوي وغيرهـم، ربمـا أنـا أيضًـا لا أتمتـع بقـدرٍ كبـيرٍ مـن الجـمال -حسـبَ رأي زوجـي- ولكـن لي صفـات حميـدة كثـيرة، وقفـت إلى جـوار زوجـي طـوال رحلـة حياتـه، كنـت أشـتري لـه جميـع الكتـب التـي يُفضِّلهـا مـن فائـض مـصروف البيـت، سـاعدته في تجارتـه، وكنـت أخيـط الملابـس الرياضيـة لتلاميـذ المـدارس ليَبيعهـا في حانوتـه، حتـى صـار لـه اسـمٌ كبـيرٌ في مجـال هـذه الصناعـة، وتعاقَـدت معـه كبريـات الأنديـة مـن أجـل خياطـة وتصميـم الملابـس الخاصـة باللاعبـين، فأقـامَ مصنعًـا كبـيرًا للملابـس الرياضيـة في مدينـة العـاشر مـن رمضـان، وآخـر لصناعـة الأحذيـة الرياضيـة بعـد أن حصـل مـن شركـة تركيـة متخصصـة في هـذه الصناعـة عـلى حقِّـه في صناعـة وتسـويق منتجاتهـا، وانتقلنـا عـلى إثـر ذلـك مـن شـقةٍ بالإيجـار في المـرج إلى فيـلا في التجمـع الخامـس، ومـع ذلـك كان يُعامِلنـي بمنتهـى الجفـاء.

إذا كان لينـين قـد قتـل زوجتـه بـدسِّ السـم في كعكـة عيـد ميلادهـا السـبعين، فـإن زوجـي هـو أيضًـا قـد قتلنـي معنويًّـا في عيـد ميـلادي الخمسـين.

أتى إلى البيـت وهـو لا يتذكـر تمامًـا أن اليـوم هو يوم مولدي، كنـت قد أعددتُ احتفـالًا صغيرًا لي وله في غرفة المعيشـة، أطفـأت كل الأنوار في أرجاء البيت، وعندما أتى أضـأت المصباح، كانـت كعكـة عيـد الميـلاد تتوسـط الطاولـة وحولهـا عـدد من زجاجـات الميـاه الغازيـة، فسـأل بـكل بـرود: «ما هـذا؟!»، قلتُ لـه: «اليـوم الثامن

والعشرون من مايو، يوم مولدي!»، فقبلني في جبيني وقال: «كل سنة وأنتِ طيبة»، ثم تركني ودخل غرفته وغطَّ في نومٍ عميق.

يومها شعرت بالمهانة، وودَدت لو تنشَق الأرض وتبتلعني، كنت أود أن أُعيد جسور المحبة بيننا، وأذيب جبل الثلج الجاثم فوق علاقتنا منذ أن أصبح من الأثرياء، يومها شعرت بمدى طغيان زوجي وعدم احترامه لمشاعري، من يقرأ التاريخ سيدي يعرف أن الأحداث تتكرر دائمًا، لا أحد يُحِب أن يرى أمامه من ساعده ويعرف تاريخه جيدًا، وكأنه يُذكِّره بفقره وضعفه وقلة حيلته، هذا على المستوى الفردي كما حدث معي، ويحدث أيضًا على المستوى الدولي، وخاصةً في وطننا العربي، عندما يصل أحد الأشخاص إلى سُدَّة الحكم، فأول شيءٍ يقوم به هو التخلص من أعوانه الذين ساعدوه، إنها مأساةٌ سيدي! لكنها الحقيقة المرة، تأكدت الآن بأنني قد نمتُ على فراش طاغية لا يقل طغيانًا عن طاغيتك».

طلب (وسام) من السكرتيرة تأجيل الاجتماع إلى الغد لأنه قد أصابه الإرهاق.

(15)

كان وليـد الحفنـاوي في وداعِ زوجتـه سـلمى الصفتـي في صالـة كبـار الـزوار بمطـار القاهـرة، نظـرًا لوجـود وزيـر الثقافـة الكويتـي عـلى رأس الوفـد.

همسَ في أذنها:

- أسـعدُ يومـين قضيتهـما في حيـاتي، سـوف أصفـي أعـمالي هنـا وألحَـق بـك، لـن أسـتطيع الابتعـاد عنـكِ بعـد اليـوم، خـذي هـذه البطاقـة البنكيـة، لقـد وضعـت فيهـا خمسـين ألـف دولار؛ مهـرُكِ يـا سـلمى، مـن اليـوم أنـا المسـئول عنـكِ وعـن أولادك.

قبَّلته في كتفِه وقالت:

- لا داعـي لأن تُرهِـق نفسـك بشـأن أولادي؛ والدهـم -رحمـة اللـه عليـه- قـد تـركَ لهـم مـا يكفيهـم وأكـثر، وأنـا أيضًا أحصُـل على راتبٍ كبـيرٍ ولا أحتـاج إلى هذه البطاقة، سـوف أتركها معك، وإذا احتجتُ إلى شيءٍ سـوف أخبرك، أنا في حاجة ماسَّةٍ إلى قلبـكَ وحبـك، الأمـوال لم تكـن يومًـا مصـدرًا للسـعادة؛ زوجـي كان ثريًّـا جـدًّا، وكان دمِـثَ الخُلـق، لطيـفَ المَعـشر، ولم يُهِنِّـي يومًـا، لكننـي لم أشـعر معـه بطعـم

السعادة التي شعرتها معكَ إلى حدِّ الرضا.. سوف أنتظرُك، لا تجعل الشوق يحرِقني، سوف أتصل بأولادي في أمريكا غدًا كي أخبرهم بنبأ زواجي، لا داعي إلى القلق إطلاقًا؛ أولادي على قدرٍ كبيرٍ من التحضُّر، وقد عرضوا عليَّ من قبل أن أتزوج من شقيق زوجي، وتقدم بالفعل لطلبِ يدي من الأولاد، إلا أنني رفضتُ حتى الحديث في الموضوع برمته، ربما تُقابِلنا بعض المشاكل من عمِّ الأولاد، لكنني سوف أتصدى لها، فأنا أيضًا لديَّ سطوة وسلطة.

توجَّه وليد إلى صالة الرحلات الداخلية كي يلحَق بالطائرة المتجهة إلى أسوان، كان يفكر طوال الرحلة في أن كيف سيواجه سهام، وكيف سيرد على تصرفها الأحمق بفتح خزينته الحديدية ونَبش ما بها من أسرار تخصه وتخص غيره، وكيف تجرأت على بعث رسالة إلى وسام تحمِل صيغة التهديد بفضح سرِّ وصيته الذي ائتمنه عليها، حتى توصل إلى قرارٍ صائب، أن يتصل بشقيقها القاضي سليم الحفناوي، فيَعرِض عليه الأمر، ويطلُب منه أن يكون حكَمًا عادلًا بينه وبين شقيقته.

كانت سهام قد تركَت بيتها وذهبت لتعيش في بيت والدها، وحين دخل وليد إلى حجرة مكتبه، وجدَ كل شيءٍ مُلقَى على الأرض، والخزينة مُهشَّم بابها، فكَّر بالاتصال بالشرطة من أجل أن يُثبِت الحالة، لكنه تراجع خوفًا من الفضائح التي سوف تلحَق بسُمعة العائلة، لكنه اتصل بشقيقها سليم وطلب منه الحضور إلى منزله لأمر مهم.

دخل إلى حجرة نومه، فوجد خزانة ملابسه خالية، وملابسه

مُمزَّقة ومُلقاة فوق الفراش، فجلس بكل هدوءٍ على حافة الفراش مُنتظِرًا وصول شقيقها.

كان سليم في وضعٍ لا يُحسَد عليه عندما علِم أن شقيقته فعلَت كل هذا، حتى ولو كان وليد قد تزوَّج أخرى، خاصةً وأنه مُتزوجٌ من ثلاث نساء.

وعدَه سليم بأنه سوف يتولى مسئولية تسليمه الأوراقَ الخاصةَ به في أقرب وقت، على أن تتم إجراءات الطلاق سريعًا دون إبطاء؛ تفاديًا لتفاقم المشاكل بينهما والحفاظ على الشكل العام للأسرة، ودون الخوض في المسائل المالية التي أوصَى بأن يتولَّاها سمير بسيوني المسئول عن حسابات مزارع القصَب.

(16)

تم الانفصال بهدوءٍ بين وليد وسهام، بعد أن أقسمَت بأنها قد أحرقت جميع الأوراق الخاصة التي وجدتها في الخزينة في لحظة ضعفٍ عندما علِمَت من مصادرها بنبأ زواجه من سلمى الصفتي، وكان من بينها الخطاب الخاص بالوصية التي تركَها وسام عبد العزيز لديه، وتعهَّد المستشار سليم الحفناوي بأن (سهام) لن تُفصِح عن أي أسرارٍ كانت موجودةً داخل الخزينة، وأن الرسالة التي قد بعثَت بها إلى الأستاذ وسام كانت في لحظة ضيقٍ وعدم اتزان.

حاول وليد جاهدًا عبر الهاتف أن يُقنِع وسام بما حدث، وأن سرَّه سوف يكون طيَّ النسيان، لكنه أغلق الهاتف ولم يُكمِل الحديث معه بعد أن صبَّ عليه جامَّ غضبه، لأنه لم يكُن على قَدر المسئولية.

غادر وليد أسوان للقاء سلامة النبوي - المحامي- من أجل إنهاء صفقة بيع حصته في القناة الفضائية، والتي ذلَّل مشتريها كل الصعاب من أجل الحصول على الصفقة، فعرض مبلغ ست مئة مليون جنيه قيمةً لحصته.

كان وليد في غاية السعادة من قيمة المبلغ المعروض، والذي

يساوي أكثر من ثلاثة أضعاف ما دفعَه من أجل الشراكة منذ أقل من عامين.

كانت العقود مُعدَّة للتوقيع، ولم يحضر المشتري الأصلي، بل أناب عنه المحامي معزوز أبو ستة، والمعروف عنه بأنه محامي الجماعات الإسلامية، فشعَر بريبة وخوف، وسأل عن اسم المشتري، فعلم بأنه محمد عبد الرشيد الديناري، عضو مجلس شورَى الجماعة الإسلامية في فترة الثمانينات، وأحد من ذُكِرت أسماؤهم في التحقيقات الخاصة بمقتل السادات.

انفرد وليد بالأستاذ سلامة النبوي وعنَّفه قائلًا:

- أتريدُ أن أبيعَ حصتي في القناة للجماعات الإرهابية حتى يستغلوها في طرح أفكارهم الهدامة إلى الناس بطريقة وضع السُّم في العسل، فيُقال عني إنني بِعتُ مبادئي من أجل المال؟!

ابتسم سلامة النبوي ابتسامةً خبيثةً ثم قال:

- شركاؤكَ الثلاثة قد وقَّعوا العقود معه بالأمس، وبمبلغٍ أقلَّ كثيرًا من المبلغ المعروض عليك، لم يتبقَّ لكَ اختيارات كثيرة، إما البيع له أو شراكته، وبصفتي المحامي الخاص بك، فإنني أفضل أن تبيعَ حصتك، لأن وجودك في ظل تحكُّمِه هو في أكثر من ستين في المئة من نسبة الأسهم، يُعطيه الحق في الإدارة ورَسم خريطة القناة، سنؤجل توقيع العقود إلى الغد من أجل أن تتخذ قرارًا مناسبًا، أنا لم أبِعك لهُم رغم أنهم عرضوا عليَّ مبلغًا كبيرًا من أجل السعي إلى إتمام الصفقة.

لم يجِد وليد مَن يلجأ إليه إلا وسام، إلا أنَّ الوقت كان متأخرًا، وهو ما زال غاضبًا وآثر ألا يرد عليه حتى لا تزيد هُوَّة الخلاف بينهما.

فطِنَ وليد إلى أن وسام لا يرغب في الرد عليه، فاتصل بعلياء وقصَّ عليها موضوع الشراكة مع أحد أعضاء الجماعات الإسلامية السابقين، وطلب منها أن تُخبِره أن الأمر خطير، وأنه يريد رأيه لأن عقله قد توقف عن التفكير.

طلب وسام من وليد أن يأتي إلى الفيلا على الفور بعد مناقشاتٍ طويلةٍ بينهما، وبعد أن اتصل برئيس الشئون القانونية بالجريدة من أجل أخذ الرأي والمشورة، كان القرار.. لا بد من البيع في أسرعِ وقت، قبل أن يفطِن المشتري إلى عدم أهمية شراء حصته من عدمه، لأن الإدارة سوف تؤول إليه في الحالتين!

اتصل وليد بسلامة النبوي وأبلغه موافقته على البيع، بشرط أن توضع الأموال بالعملة الصعبة في البنك التجاري الكويتي.

همَّ وليد بالانصراف، نهرَه وسام وطلب منه أن يقضيَ ما تبقَّى من الليل معه، ثم قام ليُحضِر له جلبابًا جديدًا مصنوعًا من القطن الهندي، كان قد أهداه له صهره عندما أدى فريضة الحج في العام الماضي، وقبل أن يتركه ويذهب إلى غرفته، سأله:

- هل أنتَ متأكد أن زوجتَكَ صادقةٌ فيما قالته بشأن حَرق أوراق الوصية؟ أنا لا أريدُ فضائح في أواخر عمري؛ إذا علِمَ أي شخص من خصومي بمغزى ما في الوصية، أو علمت زوجتي وابنتيَّ

بمـا تحويـه، سـوف أمـوت كمـدًا! أنـتَ تعلـم خطـورة مـا فيهـا، لقـد عـاوَدني الحلـم مـرة أخـرى، أجِـدُني في زنزانـة بالبذلـة الحمـراء وأنتظـر تنفيـذ عقوبـة الإعـدام، وكل الصحـف تتحـدث عـن خيانـاتي للوطـن، وأعضـاء مجلـس النـواب يطالبـون بإسـقاط الجنسـية المصريـة عنـي.. مـن فضلـكَ يـا وليـد، حـاول أن تتواصـل مـع سـهام، ولتتأكَّـد مـن الأمـر.

(17)

تلقى وسام مكالمةً هاتفيةً من صديقه اللواء عماد العارف، وكان مفادها أنه يريد تحديد موعدٍ لزيارته من أجل خِطبة ابنته الدكتورة ريانا لابنه نور ـ الملازم أول بالأمن الوطني ـ حاول أن يعتذر بلباقةٍ بأن ابنته لا تُفكِّر الآن في الارتباط لانشغالها الدائم باستكمال الدراسات العُليا، إلا أن اللواء عماد قاطعه قائلًا:

- فلتكُن إذًا فرصةً للتعارف، نور في مأمورية في العريش وسوف يعود يوم الأربعاء، لذا سنأتي إليكم يوم الخميس مساءً بعد صلاة العشاء، وكل شيءٍ بمشيئة الله.

كانت هناك أكثر من علامة استفهام حول اللواء عماد العارف أثناء عملِه في جهاز مباحث أمن الدولة، وقد اتُّهِم في قضية فسادٍ مالي مع ثمانين مسئولًا كبيرًا في جهاز الشرطة، حيث اتهموا بحصولهم على أكثر من مليار جنيه دون وجه حق، إلا أن التحقيقات قد انتهت حينها إلى أنه لا وجه قانوني لإقامة الدعوى، لأنهم قد حصلوا على الأموال بالطرُق المشروعة طبقًا للوائح المعمول بها في وزارة الداخلية.

ورغم تبرئة المحكمة له في هذه القضية، فقد ثبَتَ تورُّطه في أكثر

مـن قضيـة تعذيـب، والتـي رفعهـا أشـخاص ضـده بعـد ثـورة يناير، لهـذه الأسـباب كان وسـام رافضًـا حتـى الخـوض في إثـارة الموضـوع مـع زوجتـه وابنتـه ريانـا، لكـن بعـد أن حـدد اللـواء عـماد يـوم الخميـس موعـدًا للقـاء، اضطـر وأن يفتـحَ الموضـوع في جلسـةٍ عائليـة.

بعـد أن تنـاول العشـاء، دعـا وسـام الجميـع إلى حجـرة مكتبـه لأمـر مهـم، فهمسَـت ناديـن بسـخرية في أذُن ريحانـا:

- ربما والدك قد قرَّر الزواج!

فضحكـت بصـوتٍ عـالٍ مـما أثـار حفيظـة ريانـا التـي أرادَت أن تعـرف مـاذا دار بينهـما، في حـين جلـس وسـام عـلى مقعـده، وعـلى الأريكـة الجلديـة المقابلـة لـه جلسـت ناديـن متوسـطةً كلًّا مـن ريانـا وريحانـا، ثـم بـدأ حديثـه قائـلًا:

- يبـدو أن البنـات قـد كـبُرن دون أن أعلـم، لقـد هاتفنـي بالأمـس صديقـي اللـواء عـماد العـارف، وطلـب زيارتنـا هـو وزوجتـه وابنـه نـور مـن أجـل طلـب يـد ريانـا، حاولـتُ التملـص منـه والتـذرُّع بانشـغالها بدراسـتها التكميليـة، إلا أنـه أصرَّ عـلى زيارتنـا يـوم الخميـس.

ردت ريانا قائلة:

- لمـاذا التملـص؟! مِـن المفـترض أننـي صاحبـة القـرار النهـائي في هـذا الشـأن؛ نـور صديـقٌ لي عـلى الفيسـبوك، وعضـوٌ معـي في نـادى الجزيـرة، شـخصٌ مُهـذَّب ومتديـن وابـن صديقـك، ورغـم أننـا قـد التقينـا أكـثر مـن مـرةٍ فإنـه لم يُفاتِحنـي في هـذا الأمـر مـن قبـل، ربمـا أراد أن يدخـل البيـوت مـن أبوابهـا، مبدئيًّـا أنـا أُبـدي موافقتـي عليـه دون الخـوضِ في التفاصيـل.

تغيرت نبرة صوت وسام:

- أفهمُ من ذلك أن رأيي ليس هامًّا بالنسبة إليك، حتى لو كان لديَّ بعض التحفظات على تصرفات والده أثناء خدمته؟!

فخرجت نادين عن صمتِها:

- ما شأن والده في هذا؟! ريانا سوف تتزوج ابنه، الولد ممتاز، سمعتُه تسبقه في كل مكان، وسيرته حسنةٌ جدًّا وسط أعضاء النادي، لا داعي لأن نُحمِّل الأبناء فشل الآباء وتاريخَهم الملوث!

فطِن وسام بأنه هو المعنيُّ بهذا الحديث، لكنه لم يُبدِ اهتمامًا، وهمَس:

- فقط أردت أن يكون لي وجهة نظر في الشخص الذي سوف يرتبط بابنتي، لكن ربما أكون قد أخطأت أو تعدَّيت حدودي!

قامَت ريانا واحتضنته:

- أنتَ أهم شيءٍ في حياتي، ولم أقصد أبدًا إيذاء مشاعرك بهذا الحديث، فقط حاولت أن استغل مساحة الحرية والديمقراطية التي أعطيتنا إياها، الرأي الأول والأخير لكَ أنت.

ثم قامت ريحانا هي أيضًا وقبَّلته قائلة:

- لي عتابٌ عليك يا والدي، كيف تتزوج ريانا قبلي وأنا التي وُلِدت قبلها بعشر دقائق؟! أنا الشقيقة الكبرى، لكنني لن أقِف عقبةً أمام سعادة شقيقتي الصغرى.

ضحك الجميع وخرجوا تاركين وسام تُداعِب أناملُه أحرف مسطرة الحاسوب، وقد وجد رسالة على بريد «الماسنجر» من دوحة الأحمد من الأردن.

«أستاذنا الغالي، تحية طيبة وبعد..

أنا أستاذة جامعية، أدرس الفلسفة في إحدى جامعات المملكة الأردنية، وكانت الرسالة التي حصلتُ بها على درجة الدكتوراه بعنوان «الطاغية.. دراسة فلسفية لصُوَر من الاستبداد السياسي»، وقد تناولت شخصية تشاوتشيسكو ضمن النماذج التي تناولتها الدراسة بالإضافة إلى شخصيات أخرى كثيرة.

إن مقالَك «على فراش طاغية» قد أثار عندي شجنًا خاصًّا، لأن هناك فرق شاسع بين مَن يتعامل مع طاغية ومن ينامُ على فراشه، للمرة الأولى أشعر بهذا الفرق، رغم أنني أُدرِّس لطلابي كل يومٍ تاريخَ الطغاة عبر العصور.

أُخصِّص من حينٍ إلى آخر فقرةً عن طغاة العرب والمسلمين، كنت أصِر على أنهم وراء تخلُّفِنا الفكري والعلمي والاقتصادي، إنهم هُم السبب الحقيقي لكل رذائلنا الخُلقية والاجتماعية والسياسية، فهُم الذين يقتلون الخُلق والإبداع والابتكار عند المواطن، ليُصبِح المبدع منحرفًا والمبتكر شاذًّا وخارجًا عن الجماعة.

كنت أُعلِّمهم هذا دون النظر بعُمقٍ لحياتي، ولقد اكتشفت بعد مقالك بأنني أنا أيضًا أنامُ كل يومٍ على فراش طاغية، نعم، أنا أنام على فراش كاليغولا، لا تتعجب، فزوجي لا يختلف كثيرًا عنه.

إذا كان كاليغولا نموذجُ الشر والقسوة والذي حكَم روما وكان يمتلك العالم كله، قد أصابه الحزن يومًا لأنه لا يمتلك القمر، ولا يستطيع أن يُجبِر الشمس على أن تشرق من الغرب أو أن يمنع الكائنات من الموت.

كانت سيزونيا زوجته تعاني من نزواته النسائية المتكررة، لقد طلب يومًا من ساعده الأيمن هيليكون -في إحدى الاحتفالات- أن يأمُر زوجة موسيوس بأن تجلِس على يمينه، فاستجابَت الزوجة إلى إرادته وجلست بجواره، إلا أنه لم يكتفِ بهذا، وطلبَ من موسيوس أن يُحدِّثه عن مفاتن زوجته، فقال:

- أنا أحب زوجتي.

فرد كاليغولا:

- إن الأمرَ مضحك!

وعندما لم يلقَ استجابةً من الآخرين، انتفضَ صارخًا:

- أنا قُلت: إنه لأمرٌ مضحك!

ففطِن الأشراف بسرعة وضجَّت قاعة القصر بالضحكات العالية استجابة إلى إرادة الطاغية.

ثم قرر بعدها أن يختلي بزوجة موسيوس على مرأى من عينيه، فأشبع نزواته ورغباته الجنسية المريضة معها! إن قمة الإذلال عندما يرى الرجل زوجته وهي ذاهبةٌ لتُسلِّم نفسها مُرغَمة إلى رجلٍ آخر، ولا يستطيع هو أن يفعل شيئًا.

أعتذر لو كنت قد أطَلتُ عليك، سوف أقص حكايتي كي تكون حكَمًا عادلًا..

قد تزوجنا عن قصة حب شهِد لها الجميع، ونجح كلٌّ منا في حياته العملية؛ أنا حصلت على الدكتوراه، وهو استطاع أن يصل إلى رئاسة مجلس إدارة إحدى شركات قطاع الأعمال.

وفي أول يـوم عمـلٍ لـه، طلـب مـن رئيـس شـئون العاملـين أن يعقِـد لـه اجتماعًـا يضـمُّ جميـع السـيدات الـلاتي تعملـنَ بـالإدارة، مـن أجـل أن يختـار سـكرتيرةً خاصـةً تليـقُ بـه.

فوقـع الاختيـار عـلى إيمـان، امـرأةٌ في العقـد الثالـث، تتمتـع بقـدرٍ كبـيرٍ مـن الجـمال الأخـاذ، ومتزوجـة مـن موظـف صغـير يعمـل في مخـازن الشركـة، قـد رفـض زوجهـا في بدايـة الأمـر هـذا القـرار، وطلـب منهـا أن تتغيَّـب عـن العمـل لعـدة أيـام ثـم تعتـذر بعـد ذلـك عـن هـذه المهمـة.

فطِـن زوجـي إلى هـذا، وطلـب مـن أحـد مسـاعديه المقربـين منـه تدبـير مكيـدةٍ لـزوج السـكرتيرة الحسـناء، فتـمَّ سرقـة بعـض المهـمات مـن المخـازن ليـلًا واتهـام زوج السـكرتيرة بتبديـد العهـدة، ثـم تـم إبـلاغ النيابـة العامـة، والتـي بـاشرت التحقيقـات معـه وأمـرت بسَـجنه ثلاثـة أيـام عـلى ذمـة التحقيقـات، وزادت الأمـور تعقيـدًا بعدمـا أدلى بعـض العاملـين معـه في المخـازن بشـهادةٍ تُضعِـف موقفـه في القضيـة.

فلجـأت إيمـان إلى زوجـي - كونـه رئيـس مجلـس الإدارة- ليتدخَّـل مـن أجـل إنقـاذ زوجهـا مـن شـبح السـجن، وقالـت لـه إنهـا عـلى أتـمٍّ اسـتعداد لأن تنفـذ جميـع أوامـره، فهـدَّأ زوجـي مـن روعِهـا وأجلسـها بجـواره ووعدهـا بـأن كل شيءٍ سـوف يكـون عـلى مـا يـرام، ثـم أعطاهـا عنـوان شـقته الخاصـة في المعـادي، وطلـب منهـا أن تـأتي في المسـاء مـن أجـل إتمـام بعـض المهـام الخاصـة بالعمـل.

وقـد كان لزوجـي مـا بغَـى، وسـلَّمت إيمـان نفسـها لـه عـلى طبـقٍ مـن الـذل والمهانـة نظـيرَ الإفـراج عـن زوجهـا.

ثـم قـدَّم زوجـي أحـد الموظفـين بعـد الاتفـاق معـه وإعطائـه مبلغًـا مـن المـال ككبـشِ فـداء، وذهـب ذاك الموظـف إلى النيابـة واعـترف بسرقتـه المخـازن، ثـم خـرج زوجهـا مـن السـجن، وعندمـا علِـم بمـا حـدث رضـخَ إلى الأمـر الواقـع، وأصبـح لا يسـأل زوجتـه عـن تغيُّبهـا المسـتمر والبيـات خـارج المنـزل لعـدة أيـام، حتـى أصابـه المـرض والهـمُّ لكـثرة الضغـط النفـسي والـذل والمهانـة.

جـاءت إيمـان إليَّ في مقـر عمـلي وقصَّـت عـليَّ حكايتهـا، وطلبَـت منـي أن أتدخَّـل مـن أجـل إنقـاذ حيـاة أسرتهـا مـن التـشرذُم والضيـاع، وإنقـاذ زوجهـا مـن ذلـه وضعفـه.

فتحدثـتُ مـع زوجـي وهددتـه بأننـي سـوف أُصعِّـد الموضـوع إلى أعـلى المسـتويات إذا لم يـترك السـكرتيرة تعـود إلى عملهـا السـابق، وأمرتـه بـألا يتعـرَّض لهـا أو لزوجهـا.

هـذه قصتـي يـا أسـتاذ وسـام، ألا يحـقُّ لي أن أقـول بأننـي قـد نمـتُ عـلى فـراش طاغيـة؟!».

تأثـر بقصـة دوحـة الأحمـد كثـيرًا، وأُعجِـب بثقافتهـا وطرحهـا للموضـوع، فدخـل صفحتهـا مـن أجـل التواصـل معهـا، لكنـه وجـد الحسـاب قـد أُغلِـق.

(18)

كانت ناديـن تشـاهد برنامـج العـاشرة مسـاءً، ثـم قطـع وائـل الإبـراشي البرنامـج وأذاع بيانًـا صـادرًا مـن القيـادة العامـة للقـوات المسـلحة:

- «قامـت مجموعـة إرهابيـة بالهجـوم عـلى عـددٍ مـن الكمائـن الأمنيـة للقـوات المسـلحة والشرطـة في منطقتـي الشـيخ زويـد ورفـح في توقيتـات متزامنـة، وذلـك باسـتخدام عربـات مفخخـة وأسـلحة مـن أعـيرة مختلفـة، وقـد تمكَّـن رجـال القـوات المسـلحة والشرطـة المصريـة مـن التعامـل والتصـدي لهـذه العنـاصر الإجراميـة، وفشِـلت المحـاولات الإرهابيـة كافـة في تحقيـق أهدافهـا، وقـد أظفـرَت هـذه العمليـات الإجراميـة عـن استشـهاد سـبعة عـشر عنـصرًا مـن عنـاصر القـوات المسـلحة والشرطـة، مـن بينهـم أربعـة ضبـاط، وقـد أُصيـب ثلاثـة عـشر آخريـن، منهـم ضابـط واحـد».

حدثَـت أكـثر مـن مداخلـة مـن خـبراء عسـكريين وأمنيـين مـع وائـل الإبـراشي للتحـدث عـن أبعـاد العمليـة ودقـة التنفيـذ في أكـثر مـن اتجـاه في وقـتٍ واحـد، وقـد تحـدث أحدهـم عـن أن هـذه العمليـات النوعيـة تتدخـل فيهـا أجهـزة مخابـرات دوليـة مـن أجـل زعزعـة الأمـن ومَـد

العناصر الإرهابية بالمال والعتاد وكذلك بالمعلومات، لأن هذه العمليات قد تم تنفيذها بناءً على خرائط القمر الصناعي لإحدى الدول المجاورة، والتي حددت لهم أماكن تمركُز القوات بكل دقة، والوقت الذي سوف تقطعه كل مجموعةٍ من العناصر الإرهابية للوصول إلى الهدف من نقطة الانطلاق.

الإبراشي:

- معنا الآن على الهاتف سيادة اللواء عماد العارف، والد الشهيد النقيب نور، مساء الخير سيادة اللواء، البقاء لله!

في هذه الأثناء، انتابت نادين نوبةٌ من الصراخ والنحيب، وتخللتها كلماتٌ غير مفهومة.

فخرج وسام من مكتبه وكذلك ريانا وريحانا من حجرتهما على صوت صراخ نادين، وقد حاولوا أن يكتشفوا ماذا حدث، إلا أنهم وجدوها قد وقعَت على الأرض فاقدةً الوعي.

أنصَت وسام إلى التلفاز وعلم من سياق الحديث أن عدة عمليات إرهابية قد تمت في كلٍّ من رفح والشيخ زويد، في حين أعطَت ريحانا لنادين أمبول «دوبامين» مع محلول في الوريد من أجل تحسين كفاءة القلب وتعزيز انقباضِه بشكل طبيعي، ثم تم نقلها إلى حجرتها ووضعها على جانبها الأيمن، وتبادلَ كلٌّ من ابنتيها الإمساك بزجاجة المحلول المعلقة في ذراعها لعدم وجود الحامل الخاص بذلك.

كان وسام في مكتبه يتواصل مع رئيس التحرير التنفيذي للوقوف على آخر الأخبار، ورَفْع بعض الموضوعات من الصفحة

الأولى، ووضع الأخبار الخاصة بالعملية الإرهابية الكبرى.

وقد فوجئ بوجود اسم نور ابن صديقه عماد العارف وسط أسماء الشهداء، فحاول الاتصال به لكنه وجد هاتفه مغلقًا.

بدَّل ثيابه وهمَّ بالانصراف، وحين مرَّ على حجرة نادين للاطمئنان عليها، ضمَّ ريانا إليه وهمَس في أذنها:

- إن نور قد استُشهِد، أنا ذاهبٌ إلى والده لأكون إلى جانبه، فهو ابنه الوحيد، تجلَّدي يا ريانا.

انسلخَت ريانا من أحضان والدها وهي في حالة ذهول، وجلست وعلى وجهها مسحةٌ من الحزن انتابتها فجأة، فسألتها ريحانا:

- ماذا حدث؟ ما بك؟ ما بك؟!

أشاحَت بوجهها ثم قالت:

- لقد ماتَ نور، مات نور! مات الأمل قبل أن يولد، انطفأ نور حياتي، لقد أعددتُ بالأمس قائمة الطعام مع أمي من أجل زيارته لنا هو ووالديه بعد غد، لقد تحدثَ معي هذا الصباح هاتفيًّا، كان يفيض رقة وعذوبة، لقد صارحني بحبه لي منذ أن تقابلنا أول مرةٍ من عشرين عامًا في عزبة جده في الشرقية في عيد شم النسيم، وكيف استطاع أن يفرق بيننا رغم تطابقنا في كل شيءٍ حتى في الثياب والأحذية، لقد قال لي: «أحبك»، ثم بعد ذلك تركني وذهب! هل هذا عدل؟! هل عندما يأتي يذهب؟! هل بعدما حرك قلبي الساكن في قبوه منذ سنين يذهب؟! ليته ما حدثني! بدَر بذور الحب في قلبي ورحل، رُحماكَ يا الله! رُحماكَ يا الله!

جثت ريحانا على ركبتيها وضمَّت شقيقتها إليها وانخرطَ الاثنان في البكاء.

كانت فيلا اللواء عماد العارف في الشيخ زايد مكتظة بالأهل الذين أتوا من الشرقية عند سماعهم النبأ عبر نشرات الأخبار، وعماد كان جالسًا في حجرة مكتبه وحيدًا بعد أن نبَّه على الجميع ألا يزعجه أحد.

حاول الدخول إليه، فمنعه أحد أقاربه بالقوة، إلا أن وسام قد ثار واحتدَّ عليه، ثم ارتفعت وتيرة صوته وصاحَ مناديًا:

- يا عماد، أنا وسام عبد العزيز.

خرج عماد من غرفته، احتضنه وبكى قائلًا:

- العريس زُفَّ إلى الحور العين مرتديًا علم مِصر، أعتذرُ لك ولريانا، لن نستطيع أن نأتي إليكم بعد غد، لقد خذلني ابني ولم يأتِ أبدًا! عرضتُ عليه أكثر من مرة أن أنقله إلى قطاعٍ آخر، أو أن أنقله ليعمل في القاهرة في القطاع نفسه، لكنه كان يرفض دائمًا الخوض في ذلك قائلًا: «لو كل ضابطٍ منَّا لديه من ينقِله من سيناء إلى مكانٍ آخر، فمَن سيتبقَّى لحمايتها وتطهيرها من رِجس الإرهاب؟!»، لقد اتصل بي الوزير منذ دقائق وأبلغني أن جثمان الشهيد سوف يصل غدًا إلى مدينة الزقازيق.

خرج جثمان الشهيد من مسجد الفتح بالزقازيق، وتقدَّم الجنازة محافظ الشرقية واللواء سعيد العيسوي قائد الفرقة السادسة، واللواء مصطفى صلاح رئيس مدينة ههيا، والسيد مدير أمن الشرقية ومندوب عن رئاسة الجمهورية.

تحـول موكـب الشـهيد مـن البـكاء والحـزن، إلى التكبـير والزغاريـد، وكأنهـم يزفـون الشـهيد في ليلـة عرسـه ملفوفًـا بعلـم مِـصر، فمشـوا فيـه مُنددِّيـن بالإرهـاب ومطالبـين بسرعـة القصـاص.

تـم نقـل سـعاد هجـرس زوجـة عـماد العـارف إلى مستشـفى الشرطـة بالعجـوزة إثـر إصابتهـا بحالـة هيـاجٍ شـديد، وأصرَّت نادين وريانـا عـلى البقـاء معهـا ومرافقتهـا، كانـت سـعاد تثـور كلـما انتهـى تأثـير المُهـدِّئ.

في المساء استجمعت سعاد قواها وقالت:

- «أمـس قـد ولَّى وغـدًا لم يولَـد بعـد»، هـذه الجملـة كان يقولهـا نـور دائمًـا، كان لديـه يقـينٌ أن الأمـس واليـوم والغـد بيـد المـولى عـز وجـل، كان والـده مـن حـينٍ إلى آخـر يحدثـه بشـأن نقلـه إلى القاهـرة بعيـدًا عـن المخاطـر التـي تواجهـه في سـيناء، لكنـه كان يرفـض بشـدة ويقـول: «لـن أتـرك سـيناء إلا وهـي آمنـة، {أَيْنَـمَا تَكُونُـوا يُدْرِككُّـمُ المَـوْتُ وَلَـوْ كُنتُـمْ فِي بُـرُوجٍ مُّشَـيَّدَة}، صـدق اللـه العظيـم.. لمـاذا تُريـد أن تحرِمَنـي شرف القتـال ونَيْـل الشـهادة، النائـب العـام تـمَّ اغتيالـه وسـط القاهـرة بـين حراسـه والطـرق المؤمنـة، أربعـة زمـلاء لي قـد استشـهدوا في تفجـير مديريـة أمـن القاهـرة، واستُشـهِد سـتة عـشر آخريـن في تفجـير مديريـة أمـن الدقهليـة، تـوكَّل عـلى اللـه يـا والـدي فهـو حسـبك».

كان مـع جثمانـه الطاهـر مظـروفٌ أصفـرُ مغلـقٌ بالشـمع الأحمـر بـه متعلقاتـه، ووُجِـد في حافظـة نقـوده خطـابٌ مُغلَـق مكتـوبٌ عليـه: «يُفتَـح فقـط في حالـة استشـهادي»..

«بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم.. {وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِيـنَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُون}.

عندما يصل هذا الخطاب إليكم، سأكون بين يدَي الله مُكفَّنًا في بزتي العسكرية المعطرة بدمائي، وسأكون مُحاطًا بالملائكة الكرام.

أبي العزيز، أمي الغالية.. سامِحاني، لقد حققتُ أمنيتي وأقبلتُ على الاستشهاد في سبيل الله، لألقَى المصطفى صلَّى الله عليه وسلم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أمي الحبيبة.. رضا رب العالمين مرهونٌ برضاكِ عني، اصبري واحتسبيني عند الله شهيدًا مجاهدًا في سبيله، ولا تبكي عليَّ بل زغرِدي، فهذا عُرس ابنك.

أوصيكِ يا أمي بأن تكون كل مستحقاتي المالية من مكافأة ومعاش لصالِح الفقراءَ في قرية أبي، أطلب منكم الدعاء».

(19)

بعـد شراء أسـهم القنـاة بالكامـل مـن قبـل محمـد عبـد الرشـيد الدينـاري، تـم التعاقـد مـع أكـثر مـن إعلامـي مـن الذيـن يَدينـون بالـولاء الكامـل للنظـام، وكانــت معظــم البرامــج التــي تُبَــث تنــدد بالإرهــاب وبالإخــوان المســلمين والسـلفيين، وقـد تعـرض الدينـاري إلى محاولـة اغتيـال، إلا أنـه مـاتَ فيهـا ابـن شــقيقه والســائق الخــاص بــه، مــما دعــا الأجهــزة الأمنيــة إلى أن تُعــيِّن قــوة لحراســته.

في سُرادِق العـزاء، رجـلٌ حـادُّ الملامـح يرتـدي نظـارةً سـوداء سـميكة تحجـب ثلـث وجهـه، كان يجلـس بجـوار الأسـتاذ الدينـاري، فهمَـس في أذنـه:

- نريـدك معنـا، نعلـم أنك تلعَب عـلى الحبلين، وأن ما يُقـال في قناتِك الفضائية مـا هـو إلا باتفـاقٍ مُسـبَق مـع قيـادات الجماعـة في قطـر وتركيـا، وهُـم الذيـن موَّلـوا صفقـة شراء القنـاة، نريـد منـك أن يتحـول الهَـزل إلى جِـد، وأن تكـون معنـا فقـط، نحـن الدولـة ذات الكفَّـة الرابحـة؛ معنـا فقط تسـتطيع أن تحقـق أحلامك، سـوف يتـم رفـع التحفُّـظ عـن أموالـك وأمـوال عائلتـك، في هـذا المظـروف سـتجد الأوراق الخاصـة بموافقـة لجنـة شـئون الأحزاب والجهـات الأمنية لـكَ بإقامة حزب

سياسي باسم «الحرية والكرامة»، ارسل الأستاذ معزوز أبو ستة المحامي غدًا إلى محكمة جنوب القاهرة الابتدائية من أجل المصادقة عليه.. منذ هذه اللحظة أنتَ في أعيننا، تحتَ أنظارنا، أُحذِّرك من بطشِنا، سأنتظرك غدًا في هذا العنوان بعيدًا عن أعين الرَّصد، فأنتَ مُراقَب من شباب الإخوان والسلفيين، البقاء لله في ابن شقيقك.

***

تلقَّى وسام خطابًا على الجريدة من مجهول، ووجد به صورةً ضوئيةً للوصية التي تركَها من قبل عند صديقه وليد الحفناوي، وقد أُرفِق معه خطاب خُطَّ بأسلوب ركيك طلب فيه مُرسِله مبلغ عشرين ألف جنيه نظير عدم إرسال الوصية إلى الجرائد المصرية والقنوات الفضائية، وحدد موعدًا للقائه يوم غد الأربعاء في محطة مترو «أحمد عرابي»، وحذَّره من الغَدر به قائلًا: «إن صورة الوصية مع صديقٍ لي سوف يُراقِبنا عن بعد، تجنَّب الفضيحة وتدمير مستقبلِك!».

على الفور اتصل بوليد الحفناوي وطلب منه الحضور إليه في الجريدة لأمر مهم.

بعدما قرأ ما في الخطاب، أخرج وليد صكًّا بنكيًّا بالمبلغ المطلوب، فمزَّق وسام الصك وألقَى به داخل منفضة السجائر قائلًا:

- لقد لخَّصتَ المشكلة في المال فقط! هل لديك عِلمٌ مَن يكون هذا الشخص؟ وإذا ما كانت الوصية قد وصلَت إلى أشخاصٍ آخرين؟ وهل زوجتكَ السابقة هي مَن وراء كل ذلك؟!

حـاول وليـد أن يكـون بصحبتـة، لكنـه رفـض بشـدة حتـى لا يهـرب ذلـك الشـخص إذا وجـده معـه، فتركـه وليـد وقـال:

- سوف أنتظرك في مكتب فريد فهمي في جريدة المساء.

أخـذ وسـام يتحسـس خطواتـه إلى داخـل محطـة «أحمـد عـرابي»، كان القلـق يسـيطر عليـه وكأنـه يهـرب مـن قاتـل مأجـور يريـد التخلـص منـه، وكان يتفحَّـص وجـوه البـشر دون جـدوى؛ هـو لا يعـرف عمَّـن يبحـث، فالهـدف الـذي يبحـث عنـه مجهـول.

وقـف بجـوار أحـد الأكشـاك التـي تبيـع الكتـب، وتصفـح كتابًـا بعنـوان: «كيـف تكسَـب الأصدقـاء وتُؤثِّـر في النـاس» للكاتـب الأمريـكي ديـل كارنيجـي، فهَـمَّ بشرائـه، لكنـه وجـد بجـواره شـخصًا يحمِـل كتابـين ويطلُـب منـه أن يدفـع هـو ثمنهـما، ففطِـن إلى أنـه هـو الشـخص المجهـول، وصـارَ الاثنـان متجاوريـن إلى الرصيـف دون أن ينبِـس أحدهـما ببنـت شـفة، حتـى وصـل المـترو المتجـه إلى المـرج، فركِبـه الاثنـان وجلسـا بجـوار أحـد الأبـواب.

تحدث الشخص المجهول قائلًا:

- أحضَرت المطلوب؟

- نعم.

- ضعه هنا داخل هذه الحقيبة.

- أعرف أولًا، مَن أنت؟ وكيف وصلت إليك الوصية؟

- اسـمي لـن يهمـك في شيء، أنـا أمتلـك كشـكًا صغـيرًا لتصويـر المسـتندات في أسـوان، وقـد أتـت إليَّ سـيدة مـن أجـل تصويـر بعـض

الأوراق، ومن ضِمنهم كانت هذه الوصية، ولسوء حظك خرجَت الصورة غير واضحة، فنحَّيتُها جانبًا وصوَّرتُ الورقة مرةً ثانية واحتفظتُ بالورقة الأخرى.

- متى أتت إليكَ تلك السيدة؟

- منذ شهرٍ تقريبًا.

- وما يضمَن لي بأنك لم تُطالِبني بالمقابل مرةً أخرى.

- كلمة شرف.

- مثلُك لا يعرِف الشرف! سوف أتخِذ عليكَ وصل أمانة بالعشرين ألف جنيه، وسوف أحتفظ به، ورقة.. أمامَ ورقة.

- اتفقنا.

أصبح لدى وسام يقينٌ أن زوجة وليد ما زال لديها الأوراق الخاصة بالوصية، وأن ما قالته هو تسويف وكذب، لأن الرجل الغريب قال إنها أتت إليه منذ شهر، أي بعد انفصالها عن وليد، إذًا هي تحتفِظ بها لغرضٍ ما، خاصةً وأنها قد انفصلَت بالفعل عن زوجها، ماذا يدور في عقل تلك المرأة الشريرة؟! وليد الآن ليس له سلطانٌ عليها، وشقيقها المستشار موقفه سلبي منذ البداية، وهي سيدة ثرية، ولا يظن أنها تحتفظ بالأوراق من أجل ابتزازه ماليًا، إذًا يبقى السؤال: لماذا تحتفظ بتلكَ الأوراق؟

نسيَ وسام تمامًا أن وليد ينتظره في مبنى جريدة «المساء»، فاتجه إلى منزل علياء كي تزيل عنه همومه، للمرة الأولى يتعمَّد إخفاء شيءٍ عنها، يريد أن يعترف لها بالسر الذي يُعذِّبه ويُؤرِّق نومَه، فربما تجِد له مخرجًا، لكنه في كل مرةٍ يجد نفسه صامتًا، يبتلع لسانه وآلامه

وينـام بـين أحضانهـا، وكلـما مـرَّ وقـتٌ طويـلٌ عـلى كتـمان سره، وجـد صعوبـةً بالغـةً في البـوح بـه.

أغلـق هاتفـه، وأخـرج وصـل الأمانـة مـن حقيبتـه، وطلـب منهـا أن تحتفـظ بـه في مـكانٍ آمـن، لم تُناقِشـه في شيء، خلعَـت عنـه ملابسـه وجهـزت لـه الحـمام، ثـم أعـدَّت طعامًـا خفيفًـا، لكنـه اعتـذرَ لهـا لأنـه مرهـق وليـس عنـده شـهية للطعـام، وقـال:

- مـن فضلـك، اتصـلي بنادِيـن حتـى لا تقلـق، وأخبريهـا أننـي سـافرت إلى أسـوان لأمـرٍ مهـم، وسـوف أعـودُ بعـد يومـين؛ أريـد أن أختـلي بنفـسي، ومـن فضلـك، لا أريـد أي سـؤال أو استفسـار حتـى ولـو كان لـه علاقـة بالعمـل.. أنـا مرهـق!

(20)

أصبح وسام في حالةٍ من القلق والتوتر الدائمين، شبح فَضح سرِّه كان يُلازِمه ليلَ نهار، الوصية التي تحتفظ بها زوجة وليد السابقة تُشعِره بأنه أصبحَ تحت المِقصَلة، وعليه تقديم القرابين من أجل أن ترضَى عنه سهام الحفناوي، لذلك فقد قرَّر الذهاب إليها.

تحدث مع محمد السنوسي مراسل الجريد في أسوان، وطلب منه حجز غرفة له في منتجع «موفنبيك أسوان» لمدة عشرة أيام ابتداءً من الأربعاء القادم، وتجهيز سيارة بسائق.

فكر بطريقة الخمسينات في حل مشكلته مع سهام، فأعدَّ قافلةً طبيةً بالاشتراك مع مستشفى «الحسين» العام - حيث تجمعه صداقة قوية بمديرها- تحت إشراف الجريدة، من أجل تقديم خدمة طبية إلى الأحياء الفقيرة في أسوان، وذلك كي يكون لوجوده هناك غطاءٌ مناسبٌ يُبعِد عنه شبهة سبق الإصرار والترصُّد في التقرُّب من سهام.

تعجبت علياء من هذا التصرف؛ هذه هي المرة الأولى التي تُشرِف فيها الجريدة على قافلةٍ طبية، وغالبًا ما كان يرفض وسام أي مشروعٍ خدمي أو تنمَوي تقوم به الجريدة، وكان يُبرِّر ذلك بقوله:

«الدولة هي المسئولة عن ذلك، أما نحن فدورنا تنويريٌّ فقط»، وقد حاولت بشتى الطرق معرفة التغيُّر المفاجئ في فكره، إلا أن إجاباته جميعها جاءت غير مُقنِعة.

وبناءً على توجيهات وسام، وجَّه محمد السنوسي دعَوات إلى بعض رجال الأعمال وسيدات المجتمع الأسواني من أجل المشاركة ودعم الفقراء، وتوفير أماكن إيواء مناسبة لأعضاء القافلة.

كان محافظ أسوان في استقبال وسام وأفراد القافلة في مبنى المحافظة، وقد أبدى استعدادَ المحافظة التام لتلبية كل ما تحتاجه القافلة، وأصدر تعليماته إلى وكيل وزارة الصحة بتوفير سُبل الراحة والدعم اللوجستي للقافلة، ثم انتحى جانبًا بوسام وطلب منه أن يُعِد تقريرًا مُصوَّرًا عن المشروعات الجديدة التي تمَّت في عهدِه، وأن يُلقيَ الضوء على المشروعات التي في طريقها إلى التنفيذ، وما تؤديه المحافظة من خدمات من أجل عودة السياحة إلى سابق عهدها، فأبدى وسام موافقته على اقتراح المحافظ، وهمَّ بالانصراف من أجل التوجُّه إلى فندق القوات المسلحة للاجتماع بوجهاء أسوان.

كانت عينا وسام تجوبان أركان صالة الاجتماعات في الفندق من أجل البحث عن سهام الحفناوي، فلم يجدها، ليهمِس في أذن السنوسي قائلًا:

- هل وجَّهت دعوةً إلى سهام؟

قال:

- نعم، وجهت إليها دعوةً وإلى شقيقها سيادة المستشار سليم الحفناوي.

فطِنَ إلى أن سهام لم تبتلِع الطُّعم، وأنه وجَب عليه الاقتحام ودكّ خطوط العدو بكل ما أوتيَ من قوة، فأمسكَ بهاتفه المحمول وبحث عن رقمها، ثم ضغط اتصال، ليسمع: «هذا الرقم غير موجودٍ بالخدمة»، فتأكد أن عدوَّه ليس بالهين، وأنه لا بد له من تغيير كل خططه الخمسينية، واحترام ذكاء الخصم وتقديم فروضِ الطاعة إليه؛ الصراحة وعدم التحايُل وتسمية الأشياء بأسمائها هي أقصر الطرق للوصول إلى الحل.

اتصل بالمستشار سليم الحفناوي، وأفصحَ عن شخصيته، ثم طلب لقاءه لأمرٍ مهم.

كان المستشار سليم على يقينٍ بأن هذا اللقاء بخصوص الوصية، لذلك اتصل بشقيقته وأبلغها أن الأستاذ وسام صديق وليد في أسوان ويرغب في لقائه، فضحِكَت ولم ترُد، إلا أنه عنَّفها بشدةٍ قائلًا:

- لا أعتقد أن الموقف يدعو إلى الضحك! وسام أتى إلى أسوان من أجل الفصل في موضوع الوصية.

تعالَت ضحكاتها أكثر فأكثر، وقالت:

- لقد حرَقتُ جميع الأوراق التي كانت في الخزينة، هذا ما لدي!

***

في نادي القضاة على كورنيش النيل كان اللقاء، بدأ وسام حديثه:

- ما زالت شقيقتكَ تحتفظ بأوراق الوصية، وهذا هو الدليل...

وأخرج صورة الوصية التي أعطاه إياها الرجل الغريب مُردِفًا:

- بهـذه الصـورة ابتـزَّني رجـلٌ يمتلـك كشـكًا لتصويـر المسـتندات هنـا في أسـوان، لقـد صـوَّرَت شـقيقتك منـذ أقـل مـن شـهر كميـةً مـن الأوراق عنـده، وكان مـن بينهـا الوصيـة، مـن فضلـك، أريـد مقابلـة سـهام هانـم!

فهبَّ سليم الحفناوي واقفًا وقال:

- هيا بنا.

بـدت سـهام أكـثر جـمالًا ورونقًـا عـن المـرة الوحيـدة التـي رآهـا فيهـا في مكتبـه، ورغـم سـمرة بشرتهـا فإنهـا لم تخـلُ مـن لـونٍ ورديٍّ طبيعـي، كانـت ترتـدي عبـاءة نوبيـة سـوداء مطـرزة بنقـوش بديعـة زادتهـا جـمالًا ووقـارًا، ربمـا خـروج وليـد مـن حياتهـا كان لـه أثـر السـحر، فالرجـال نوعـان: نـوعٌ يجعـل المـرأة تحمِـل همـوم العـالم أجمَـع في قلبهـا، فتبـدو عجـوزَ شـمطاءَ رغـم صغـر عمرهـا، ونـوعٌ آخـر يجعـل قلبهـا وروحهـا وجسـدها في ربيـعٍ دائـم، فتبـدو أكـثر شـبابًا، وربمـا وليـد كان مـن النـوع الأول.

لم تسـتطِع عينـا وسـام الفاحصتـين أن تمنعـا نفسـيهما مـن التأمـل والانتشـاء وفضحِـه أمـام سـهام، والتـي ارتبكَـت هـي أيضًـا مـن تلـك النظـرات الكاشـفة.

اعتذر عن حضوره دون موعد مسبق، فقاطعه سليم:

- أنـا مـن دعوتُـك، ثـم إنـكَ لسـت بغريـبٍ عنـا، نحـن نعرفـك جيـدًا، فـإن عمـي - والـد وليـد رحمـه اللـه- كان يتحـدث عنـك بـكل فخـر، ويحـث وليـد عـلى أن يسـلك منهجـكَ في الحيـاة، لا تقلـق أنـتَ ضيـفٌ مُرحَّـب بـك.

ابتسمت سهام بعد أن رحبَت به، وسألته عن نوع قهوته، فحاول الاعتذار بسبب بضيق الوقت، لكنها قالت بصورةٍ قاطعة:

- لا حديثَ إلا بعد احتساء القهوة.

فضحك سليم قائلًا:

- حُكم القويُّ على الضعيف!

ابتسم وسام وهو يقول:

- مضبوطة، أعني القهوة.

ثم أخرج من حافظة أوراقه صورة الوصية، وكذلك وصل الأمانة الذي وقَّعه صاحب كشك تصوير المستندات بمبلغ العشرين ألف جنيهًا، قائلًا:

- هذا الرجل ابتزَّني! وربما سيستمر في ابتزازي لأنه لاحظَ مدى خوفي وقلقي من أن يُفتضَح أمري، وربما يبيع هذه الوصية لشخص أو أشخاص آخرين، لذلك أتيتُ إليك اليوم من أجل البحث عن مخرج...

قاطعه سليم للمرة الثانية:

- لا عليك، سوف أعتني أنا بموضوع هذا الرجل، كيف يحتفظ بصور من أوراق الزبائن؟ هذه تهمة خيانة أمانة يُعاقَب عليها بالسجن والغرامة.

ضحك وسام قائلًا:

- غرامة لا تتجاوز المئة جنيه سيادة المستشار!

رد سليم:

- ومـن قـال إننـي سـوف ألجـأ إلى القانـون، رغـم أننـي رجـل قانـون، فـإن لـديَّ قناعـة أن القانـون سُـنَّ للضعفـاء فقـط، وأنـا رجـلٌ ذو سـطوةٍ ومـال، سـوف أُرسِـل مـن يحـضره إليَّ في قـصري، نحـن أهـل الصعيـد لدينـا عاداتنـا وتقاليدنـا، أكاد أجـزم أن هـذا الرجـل ليـس مـن الصعيـد، بـل هـو وافِـد غريـب، لا داعـي إلى أن تقلـق عـلى الإطـلاق مـن جانـب هـذا الرجـل، سـوف أجعلـك تـراه وهـو يقبـل يـدك ويترجَّـاك حتـى تقبَـل منـه أموالـكَ وأكـثر، لا تسـتهين بنـا يـا أسـتاذ وسـام، نحـن قـومٌ ذووا بـأسٍ وسـطوة.

أخـذت سـهام فنجـان القهـوة الفـارغ مـن يـد وسـام، وضعتـه فـوق المنضـدة ذات القـرص الرخامـي الأخـضر الداكـن وكأنـه أعـواد برسـيمٍ جافـة، ثـم جلسـت واسـتدارَت في مقعدهـا حتـى أصبحـت في مواجهـة وسـام:

- نعـم، مـا زلـتُ أحتفِـظ بجميـع الأوراق، عندمـا تتـاح لـك الظـروف لكشـف أسرار الآخريـن فـلا تـتردد، لأن فيهـا متعـةً رائعـةً لا يُضاهيهـا متعـةٌ أخـرى، بعيـدًا عـن وصيتـك التـي تُعَـد أقـل الأسرار شـغفًا وأهميـة، أعتـذر! لا أعنـي أبـدًا أن أُقلِّـل مـن قيمـة وقـدر هـذه الوصيـة بالنسـبة إليـك، لكننـي فقـط وددتُ أن تكـون مسـتعدًا نفسـيًّا وإنسـانيًّا لتلقِّـي مـا هـو آتٍ مـن حديثـي.

لقـد وجـدتُ اثنـي عـشر عَقـد زواجٍ عُـرفيٍّ مـن فتيـاتٍ صغـارٍ لا يتعـدَّون الثمانيـة عـشر عامًـا، والـلاتي يعملـن لـدى وليـد في المصنـع أو في الحقـل، وقـد حـرَّر تلـك العقـود خـلال خمسـة عـشر عامًـا، أي بمعـدل زوجـة جديـدة كل عـام! والغريـب أن تاريـخ أول زيجـة عرفيـة لـه كانـت

بعد زواجه منِّي بشهرٍ واحدٍ فقط، والأغرب أنني وجدت عدة أسطوانات مدمجة مُسجَّل عليها أوضاع جنسية مختلفة مع من تزوَّجهُن عرفيًّا من قبل، ويتضِح منها عدم عِلمهن بالتصوير، لأنه هو فقط من حين إلى آخر يتوجه بنظرِه نحو كاميرا التصوير.

إنه سلوكٌ شاذٌ من صديقَك يا أستاذ وسام! أشياء كثيرة عرِفتُها عن زوجي السابق وابن عمي جعلتَني أشعر بالرضا التام لطلَب الانفصال عنه، ربما نكون قد ظُلِمنا نحن الاثنان، والإجبار كان مزدوجًا من أبي وعمي، لكنني حافظتُ على شرَفِه واسمه طوال فترة زواجنا.

كلكم معشَر الرجال ذاكَ الرجل الخائن المخادع! أنتَ أيضًا أستاذ وسام، قد تزوجتَ وأخفيتَ عن زوجتك خبر زواجك، والآن تدفع ثمن كذبك وخداعك.. سوف أُعطيك أوراقَ الوصية الخاصة بك، وأعِدك بأنني لن أفضحَ سرك يومًا، لكن ما زال لديك وقتٌ لتدارُك الأخطاء.

(21)

قطع وسام زيارته إلى أسوان وقرر العودة إلى القاهرة، وطلب من علياء أن تحجِز له على أول طائرةٍ متجهة إلى وارسو، على أن تكون العودة بعد ثلاثة أيام.

تزاحمت الأفكار في رأسه وهو في طريقه إلى المطار، والجملة الأخيرة التي قالتها له سهام ما زالت تتردد في أذنيه: «ما زال لديك وقتٌ لتدارك الأخطاء»، ليقول لذاته:

- نعم يا سهام، سوف أفعل، سوف أتخلَّص من خوفي وهمِّي، السر الذي حاولت إخفاءه طوال تلك السنين على وشك الطفو فوق سطح الماء، وكأنه جثة غريق!

ثم تذكر فجأةً قاعدة أرشميدس : «إذا كانت كثافة الجسم أكبر من كثافة الماء سيَغوص، أما إذا كانت الكثافة أقل سيَطفو».

فأكمل:

- نعم، جثة سرِّي الغارقة في مياه الظِّل قد تحلَّلت وانتفخَت بالغازات وأصبحت مثل البالون، أوشكَت أن تطفوا فوق سطح الماء ليراها الناس جميعًا، أو يثقبها أحدٌ بإبرة فتنفجِر وتُخرِج منها رائحتي الكريهة!

وأصبح حديثَ الناس في الصباح والمساء، خبر أول في كل وسائل الإعلام!

فضيحة تُلاحِق الروائي الكبير... تورُّط رئيس تحرير صحيفة كبرى في علاقات مشبوهة مع جهات أجنبية... مجلس النواب يُطالِب بإسقاط الجنسية عن الصحفي الكبير لاتصاله بجهات معادية...

كانت علياء تحدثه بشأن صفحتَي المرأة والرياضة وعن اختيار الناقد الرياضي ولاعب كرة القدم السابق سمير صادق ليكون المسئول عن القسم الرياضي، إلا أنه ما زال شاردًا بفِكره بعيدًا بُعدَ القارة العجوز.

لاحظت علياء شروده، وأطالَت النظر إليه، فاصطدمت سيارتها بسيارةٍ أخرى أمامها كانت تتجه إلى جهة اليمين، لكنها لم تلحَظها بسبب انشغالها به.

نزل وسام واعتذر إلى سائق السيارة المتضررة وأعطاه بطاقة التعارف الخاصة به، وطلب منه أن ينتظر عودته من السفر بعد ثلاثة أيام، وأبدى استعدادَه لإصلاح جميع المُتلَفات.

تعرف عليه الرجل بسهولة، فهو دائم الظهور في القنوات الفضائية، وقال:

- سوف أحتفظ بالبطاقة، ليس من أجل دفع نفقات إصلاح السيارة، ولكن من أجل شيءٍ آخر.. أمام بيتي في مدينة الزقازيق صالةٌ للأفراحِ لا تكُف عن الضجيج كل ليلة، وأنا وأسرتي نعاني الأمرَّين، حاولنا بشتى الطرق ومعنا بعض الجيران فقدَّمنا بلاغات

إلى الشرطة ومجلس المدينة، ورغم أن قانون المحليات يمنَع إنشاء أي نشاطٍ تجاري يُسبِّب إزعاجًا للسكان، فإن ذلك كان دون جدوى، لأن وبكل بساطة، مالك الصالة كان يعمل لواءً سابقًا في شرطة المرافق، وابنه ضابطٌ في الأمن الوطني، وكلما سعينا وتوصلنا إلى قرارٍ ما، كان يسعى هو وابنه بعلاقاتِهما لتعطيل القرار.

حاول التملُّص منه لأنه لا بد وأن يكون في المطار الآن، فأقنعه بأنه سوف يرى الأمر عند عودته، وطلب منه أن يتصل به بعد ثلاثة أيام، وسوف يجِد له حلًّا بإذن الله.

عاود الركوب وهو يلوم علياء:

- لماذا لم تنتبهي؟! فالطريق خالٍ تقريبًا، ماذا كان سيحدث لو أنكِ صدَمتِ شخصًا يعبر الطريق؟!

ردت وهي تضغَط على آلة التنبيه بشدة لتوقُّف مفاجئ لسيارة نصف نقل أمامها:

- عشر دقائق وأنا أتحدث إليكَ بشأن العمل، وأنتَ في عالمٍ آخر! ما بكَ يا وسام؟! ولماذا تعددت أسفارك إلى بولندا في الآونة الأخيرة؟ ماذا تُخفي عني؟ ألستُ كاتمةَ أسرارِك؟

فرمَقها وهو يقول:

- انتبهي إلى الطريق، سوف أقصُّ عليكِ كل شيءٍ عندما أعود، اطمئني، سوف أكون بخير.

لم يستطِع وسام أن يمنعَ نفسه من التفكير في سهام، وأصبح متعاطفًا معها إلى أقصى حد، وزاد لومُه على وليد وتصرفاته وحماقاته وشذوذه.

وصـل إلى مطـار وارسـو، فاسـتقل سـيارةً وطلـب مـن السـائق التوجُّـه إلى أقـرب مـكانٍ لبيـع لعـب الأطفـال، ثـم بعـد ذلـك توجـه إلى الحـي اليهـودي.

فتحَـت راشـيل البـاب، فوجـدت وسـام أمامهـا، حاولـت أن ترتمـي بـين أحضانـه، فصدَّهـا بيديـه قائـلًا:

- أريدُ أن أتحدث معكِ في وجود السيد جاكوب.

قالت:

- للأسف، جدِّي في زيارةٍ لشقيقته المريضة في يافو.

- تقصدين يافا.

- ما زلتَ تسخَر مني؟!

- لا، بل أسخَر من القدر الذي ألقَى بكِ في طريقي!

- لا تنـسَ أنـك أنـتَ مـن حـاول التقـرُّب منـي والتـودد إليَّ عندمـا كنـت أعمـل في مطعـم صديقـك المـصري، أنـتَ مـن أغـدق عـليَّ بالهدايـا، وطلبـت منـي أن أتـرك العمـل لأعيـش معـكَ نظـير راتـبٍ مُـوازٍ لراتبـي، لكـن أنـا مـن رفـضَ ذلـك، رفضـتُ أن أكـون خليلـةً لـك، وأبلغتُـك أنـك إذا أردت العيـش معـي فعليـك أن تتزوَّجنـي، وتزوجنـا زواجًـا مدنيًّـا وكنـا في غايـة السـعادة.

- نعم، لكنكِ أخفَيتِ حقيقتك.

- لم أُخفِ عنكَ شيئًا، لقد تزوجنا زواجًا مدنيًّا، كلٌّ منا على دينه.

- لم تُخبريني بأنكِ مزدوجة الجنسية.

- ما الذي كان سيعنيكَ إذا كان قانون بولندا يسمح بذلك؟!

- كان يجب عليكِ إبلاغي بالحقيقة كاملة، وتتركي ليَ الاختيار.

- ولكنك عندما سألتَني لم أُنكِر.

- كيف لكِ أن تنكرين وجواز سفرك الإسرائيلي كان في قبضة يدي، وقد عثرت عليه بالصدفة وأنا أبحث عن رخصة القيادة المصرية قُبَيل سفري إلى القاهرة!

- لا تنسَ أن بلدك في حالة سلامٍ مع إسرائيل.

- مواءمات سياسية بين الدول، لكن العلاقات بين البشر تختلف، لقد رفضتُ السفر مع السادات إلى القدس عندما أعلن مبادرته للسلام، وأصبحتُ من المغضوب عليهم، شقيقي وابن عمي تمَّ دفنهُم أحياءَ في مقابر جماعية في حرب 67، أطفالُ بَحر البقر، عمال أبو زعبل، ومذبحة الخليل!

- أنتم العرب من أرادَ إبادتنا.

- لم يهنأ اليهود بالأمن والاستقرار إلا بيننا.

- لقد تم إبادة طوائفَ يهودية بصفةٍ كاملةٍ على يد إدريس الأول في المغرب، وعندما تولى المُوحِّدون السلطة تمَّ ذبح مئة ألف يهوديٍّ في فاس، ومئة وعشرين ألفًا في مراكش! فلنترك هذا الأمر، الآن، أنتَ هنا بصددِ ابننا المعاق.

- ابنكِ أنت.

- ألن تعترِف ببنوَّته؟

- لقد خدعتِني، وما قامَ على باطل سيبقَى باطلًا.

- بيننا عقد موثق في بلدية وارسو.

- وأنا هنا بصدد إلغاء هذا التعاقد، صفقة سوف أعقِدها معكِ من أجل تأمين ابنك المعاق.

- ابننا يا وسام! رغمًا عنكَ وعني.

- لا أحد يُرغمني على شيء.

- ابنكَ مريضٌ بالتوحُّد وفي حاجةٍ ماسةٍ إليك.

- كان من الطبيعي أن علاقة مشوَّهة ستُنتِج طفلًا مشوهًا.

- أنتَ تجرحني!

- وأنتِ من حطَّم حياتي!

- أنتَ تتحدث عن ابنِك.

- لا، أنا أتحدث عن العلاقة بيننا، العرب وإسرائيل، علاقة لا يمكن أن تستقيم، سوف تنتج علاقات مشوهة، مثل ابنك! توحد، وهن عصبي، وسواس قهري... للأسف، هذه هي الحقيقة المؤكدة، أتيتكِ اليوم من أجل إبرامِ صفقةٍ معك.

- صفقة يا وسام! أين ذهب الحب؟!

- أكلَه ذئبُ الخداع!

- ما أخفيتُه عنكَ كان بسبب خوفي من أن أفقدك.

- وأنتِ الآن تفقديني بالفعل، دعكِ من هذا، الصفقة أهم.

- صفقة من أي نوع؟

- صفقة لتأمين حياتك أنتِ وابنكِ مدى الحياة، سوف أعطيكِ مئتي ألف دولارٍ نظير شيئين، الأول: سوف أرفع دعوى أمام

المحاكـم البولنديـة بالتشـكيك في بنـوتي لدافيـد، ومـا عليـكِ إلا أن تُأكِّـدي مـا أقـول، الـشيء الثـاني: عـدم الاتصـال بي نهائيًـا، سـوف أتـرك لـكِ وقتًـا للتفكـير.

- وإذا رفَضت؟!

- لن ترَين مني أموالًا بعد اليوم.

- سوف أُقاضِيك أمام المحاكم المصرية.

- سـوف تحصلـين عـلى فتـاتٍ بالنسـبة لمـا عرضتُـه عليـك، اعـرضي الأمـر عـلى جـدِّك عنـد عودتـه، أنتظـر قـرارك.

وجـد نفسـه ودون أن يشـعر أنـه يتصـل هاتفيًـا بسـهام ليُخبِرهـا بمـا حـدث، لكـن صدمَـه ردُّهـا عليـه:

- ومـا علاقتـي أنـا بهـذا الموضـوع؟! أخرِجنـي مـن حسـاباتك، لقـد حصلـتَ عـلى الورقـة التـي كانـت تخصـك، لا تُقحِمنـي بعـد اليـوم في أي شيءٍ خـاص بـك، أود أن أعيـش في وئـام!

كانـت الثلـوج تتسـاقط، ووسـام ينفُضهـا عنـه مـن حـين إلى آخـر غـير عابـئٍ بهـا، للمـرة الأولى تصـدُّه امـرأة، ويجـد نفسـه عاجـزًا عـلى أن يـرد الإهانـة، ويتقبـل غرورهـا!

ازداد هطـول الثلـوج مـع تحـرُّك الهـواء بشـدة إذعانًـا بعاصفـةٍ ثلجيـة، فأشـارَ بيـده لسـيارة أجـرة وأقلَّتـه إلى الفنـدق.

(22)

طلب وسام من عامل الاستقبال الرقم السري الخاص ببث الإنترنت عبر الحيز الهوائي اللاسلكي، وفتح جهاز الحاسوب من أجل إرسال المقال الأسبوعي إلى الجريدة، وبعدها تفقَّد بريده الإلكتروني الذي أهمله منذ زمنٍ طويل، فوجد رسالةً من وردة بن علي من لبنان.

«سيدي الفاضل حضرة المحترم/ وسام بك، تحية طيبة وبعد..

لقد أثار مقالك «على فراش طاغية» فضولي، وقد قرأته منذ أسبوع في جريدة «الأنباء» وأنا أُفرِغ حقيبة زوجي الذي كان في زيارة عمل بالقاهرة.

أعجبني أسلوبك الرشيق في تناول قضية شائكة؛ قضية الطغاة عبر العصور، وما لفَت نظري في المقال هو شعورك بالخوف من النوم على فراش طاغية، ولو لليلةٍ واحدة! نعم، شعورٌ مُقبِض أن يُلامِس جسدك بقعةً مظلمةً في تاريخ البشرية.

حتى لا أُطيل عليك، إنَّ ليَ قصة تشبه كثيرًا قصة شجر الدر التي حكمت بلادكُم لمدة ثمانين يومًا بعد وفاة زوجها السلطان الصالح

أيـوب، كلتانـا مـن الأرمَـن، وكلتانـا أسـلَمت، وكلتانـا اقتحمـت قـلاعَ وحصـونَ قلـبِ زوجهـا؛ هـي تزوَّجـت بأتابِـك العسـكَر عـز الديـن أيبـك، وشـاركته حُكـم مِـصر وجعلتـه يهجُـر زوجتـه وأم ولـدِه وحرَّمـت عليـه زيارتهـا، فأصبحـت مسـئولةً عنـه مسـئوليةً كاملـة، وهـو ليـس لـه عليهـا أيُّ حُكـم.

وأنـا جعلـتُ زوجـي يهجـر كل شيءٍ حولـه مـن أقـاربَ وأصدقـاء، وأصبـح كـما تقولـون في مِـصر: «خاتمًـا في إصبعـي»، وللأسـف، أصبـح زوجـي سـعيدًا بضعفِـه وقلـة حيلتـه.

تـركَ لي شـئون البيـت مـن أولاد ومشـاكل دراسـية ومـا يجـد مـن ظـروف، حتـى في مـرض الأولاد لم يُحـرِّك سـاكنًا، وتركنـي أذهـب إلى المستشـفى دونـه بعـد منتصـف الليـل عندمـا شـعرَت ابنتـي بـألمٍ شـديدٍ في بطنهـا، اتصلـت حينهـا بأصدقـاء لي في العمـل أمامـه كي يكونـوا بجـواري، وهـو هـادئ لم يحـرك سـاكنًا.

للمـرة الأولى أشـعر بـأن الضعـف نـوعٌ مـن أنـواع الطغيـان، كنـت أودُّ أن يضيـق ذَرعًـا بنفـوذي وسـيطرتي، لكنـه كان لا يبـالي.

تحمَّلـتُ كل هـذا مـن أجـل أن تسـير الحيـاة، إلى أن اكتشـفت خيانتـه لي مـع صديقتـي وابنـة عمـي، إذا كانـت شـجر الـدر قتلَـت أيبـك لأنـه عـادَ إلى زوجتـه الأولى واعتـبرت أن هـذا خيانـة، لكننـي وقفـت عاجـزة، قتلـتُ كبريـائي في مهـدِه ووَدَّعـتُ كرامتـي إلى مثواهـا الأخـير.

ضعـف بعـض الحـكام عـبر التاريـخ أثَّـر بالسـلب عـلى محكوميهِـم، وقـد وضَـح هـذا جليًّـا في الحقبـة العثمانيـة، ومصطلـح «سـلطَنة النسـاء» كان للإشـارة إلى ممارسـتهن لأدوار سـلطانية ودورِ مـا يُسـمَّى

بـ«الحَرملِـك» المُلحَـق بالقـصر، والـذي يضُـم والـدة السـلطان وزوجاتـه وجواريـه، وأفـراد عائلتـه مـن النسـاء العازبـات.

طـوال نحـو مئـة وثلاثـين عامًـا بـين القرنـين السـادس عـشر والسـابع عـشر، كان لجنـاح الحريـم التابـع لقـصر الحاكـم العثـماني أدوارٌ أثـرت في مسـار الدولـة بالسَّـلب والإيجـاب، سـواءً كانـوا أمهـات السـلاطين أو زوجاتهـم.

وفي العـصر الحـالي سـيدي، لم تنـجُ مِـصر مـن دور سـلطنة النسـاء، كانـت جيهـان زوجـة الرئيـس السـادات تتدخـل بشـكلٍ أو بآخـر في شـئون الحكـم، وكذلـك سـوزان زوجـة مبـارك فعلَـت ذلـك وأكـثر، وكانـت تريـد أن تُحـوِّل مِـصر مـن جمهوريـة إلى مَلكيَّـة، وذلـك بتوريـث الحكـم إلى ابنهـا جـمال، فأشـعلَ الشـعب ثـورة، وتـمَّ نهـب المحـال التجاريـة وحـدثَ انفـلاتٌ أمنـي، وهـرب المسـاجين والخارجـون عـن القانـون، وعمَّـت الفـوضى في البـلاد، ضعـف مبـارك أمـام زوجتـه أدى إلى زوال حُكمِـه، كان مـن الممكـن أن تتحـول مِـصر إلى بحـورٍ مـن الـدم لـولا سِـتر اللـه عـز وجـل الـذي يحمـي بلادكُـم مـن فـوق سـبع سـماوات.

عندمـا يتحـول الضعـف إلى طغيـان، والسـلبية تصبـح طريقـة حيـاة أو حُكـم، تكـون النتيجـة أننـي أنـامُ كل يـومٍ فـوق فـراش أضعـف طاغيـة، أو تنـامُ الشـعوب عـلى فـراشِ طواغيـت!».

كان واثقًـا تمامًـا بأنـه سـوف يجـد الحسـاب الـذي أُرسِـلت منـه الرسـالة مغلقًـا.

(23)

كانت علياء في انتظاره في مطار القاهرة، لوَّحَت له بميدالية المفاتيح الخاصة بشاليه العين السخنة في إشارةٍ منها إلى أنها تريد أن تقضي معه بعض الوقت بعيدًا عن أعين المتلصصين، ضمَّها إليه وقبَّل جبينها وانصرفا بالسيارة صوب طريق السويس.

كان وسام مُثقلًا بالهموم، شعر أن رحلته إلى وارسو كانت دون فائدة، وعواقبها ربما تأتي بنتائجَ سلبية، عدم وجود الجَد جاكوب عرقَل خطته في الخلاص من كابوسٍ يُطارِده في كل وقتٍ إذا تم فضح سره، ومعرفة المحيطين به بأنه كان متزوجًا من امرأةٍ إسرائيلية، وأن له ابنٌ يحمل الجنسية الإسرائيلية، ومن الممكن في يومٍ ما أن يكون جنديًّا في جيش الدفاع الإسرائيلي، ويحمل السلاح ويُحارِب ضد مِصر، أو يقتل طفلًا فلسطينيًّا.

كيف يحدث هذا وهو المدافع دائمًا عن القضية الفلسطينية، وهو الذي عارض مبادرة السلام مع إسرائيل، فتمَّ فصله من عملِه في جريدة «الأهرام»، وسافر سرًّا للعيش في تونس، بعد أن أبلَغه أحد أصدقائه الذي يعمل في أحد الأجهزة الأمنية بأن السادات قد أصدر قرارًا باعتقال رموز المعارضة، من كُتَّاب وصحفيين

وسياسيين وإسلاميين ومسيحيين، وأن اسمه مُدرَج بينهم، لذلك ساعده في الخروج من مِصر عبر الحدود الليبية، ومنها سافر إلى تونس.

لم تحاول اقتحام خلوته العقلية، تركتهُ حتى إذا وصلا الشاليه يكون ذهنه قد أصبح صافيًا لها وحدها، توقفت أمام إحدى محطات التزوُّد بالوقود.

نزل وسام وتوجه إلى سوقٍ صغيرةٍ موجودةٍ داخل المحطة وأتى بكوبين من القهوة، فقد شعر بحاجته إلى جرعة من الكافيين، وتوقفا على جانبٍ من الطريق لاحتسائها، قالت علياء:

- أجدكَ عُدت مهمومًا من رحلتك .

فأمسكَ وسام يدها وقبَّلها، وضعها على فمه وطافَ بها خريطة وجهه، وهي أيضًا تحسَّستهُ بأناملها مُغمضةَ العينين وكأنها فاقدة للبصر، أو تقرأ صفحة وجهٍ خُطَّت بطريقة «برايل»، فقال وهو ما زال يُقبِّل بطن كفها:

- دائمًا تشعرين بي دون أن أتحدث، وكأنني كتاب مفتوح أمامك، نعم يا علياء، لم أُوفَّق فيما سافرت من أجله، سأرتاحُ من عناء السفر ثم أقصُّ عليكِ غدًا ما أخفيتُه عنكِ طوال سبع سنوات.

اكتفى بخلع ربطة عنقه وحزام بنطاله وحذائه، ثم ألقَى بجسده المرهق والمنهك فوق الفراش بملابس السفر مستلقيًا على ظهره، عيناه تنظران إلى سقف الحجرة، وكفَّاه متشابكتان مع حركةٍ دائبةٍ لإصبعَي الإبهام.

تركته وذهبت لتستحِم، ربما رذاذ الماء الدافئ يُعيد إليها توازنها

ويقتل بداخلها الرغبة الجامحة في النيل من وسام والارتماء بين مخالب أحضانه.

نامت في الغرفة الأخرى؛ أرادت ألا تزعجه وسام الذي كان يغطُّ في نومٍ عميق، فبعد أن أسدلَت فوقه غطاءً من الصوف ذهبَت إلى غرفتها، وأخرجَت حافظة أسرارها التي تكتب فيها ما تشعر به حتى لا يصيبها الجنون، وأخذت تُفرِغ فوق أسطُرِها ما يعتليها من حزن وقلق وشوق في بعض الأحيان.

أمسكَت بالقلم وكتبت:

«لا أعرف لماذا آتيكَ مُكبَّلةً على أهدابي، أدقُّ نوافذ قلاعِك بلا جدوى، ضاعَت مني دروبي، وتناثرت بقايا روحي كالثرى المتطاير في سماء العاشقين، سرَت جميعها وسط ريحٍ جبارةٍ عاصفة، الناس تسخر مني، ويحكِ يا علياء! كيف ستجمعين شتاتَ روحٍ تحتضر حينًا فحين؟!».

انهمرَت من عينيها الدموع مُعلِنة حالة عصيان وتذمُّر من تصرفاته، لكن هيهاتَ لها أن تنفذ تهديدها!

في الصباح، كان وسام أكثر نشاطًا، ورغم برودة الطقس فإنه خرج إلى شاطئ البحر واضعًا عباءةً من الصوف فوق ملابسه، ووجد هناك عددًا كبيرًا من القواقع الفارغة قد لفظَتها أمواج البحر بعد موتها، فبدأ يتخيَّر أفضلها ووضعها في راحة يديه، ثم عاود أدراجه إلى الشاليه.

ما زالت علياء نائمة، استغرقت وقتًا طويلًا لتُقنِع النوم بأن يراودها عن نفسها.

مـارس هوايتـه في تحضـير طعـام الإفطـار، ووضـع الأطبـاق فـوق صينيـة مـن «الإسـتانلس»، ورصَّ القواقـع التـي حصـل عليهـا في الفراغـات بـين الأطبـاق، ثـم نقَـر بأناملـه فـوق بـاب غرفتهـا، فتحَـت عينيهـا وقفـزت مـن فـوق الفـراش وكأنها لاعبـة وَثـبٍ طويـل، حمَلـت عنـه الصينيـة ووضعتهـا فـوق منضـدةٍ مهملـةٍ في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة، وأحاطَـت عنقـه بيديهـا وقبلتـه قبلـة طويلـة تشـبه قبلـة الحيـاة، وقالـت:

- حمدًا لله على السلامة!

بعد تناول شاي الصباح، قصَّ عليها قِصته مع راشيل، وقال:

- أريدُ منكِ المشورة، ماذا أفعل؟

قالت:

- بدايـةً، أخطـأتَ بذهابـك إليهـا وعرضِـك لهـذا المبلـغ الكبـير عليهـا، الآن فقـط أيقنـتُ بأنـكَ مـن الممكـن أن تفعـل أي شيءٍ مـن أجـل أن تتخلـص منهـا ومـن ابنهـا، الآن فقـط تأكـدت أن علاقتهـا بـكَ تُسـبِّب لـكَ كثـيرًا مـن المشـاكل، لـذا أقـترح عليـك أن تُقيـم دعـوى قضائيـة في بولنـدا تتهمُهـا فيهـا بالتدليـس والكـذب عليـك، وأنهـا أخفَـت جنسـيتها الأصليـة كونهـا إسرائيليـة، وهـذا يتعـارض مـع مبادئـك كونـكَ مُسـانِدًا للقضيـة الفلسـطينية وضـد التطبيـع مـع عـدوٍّ مُعتَـدٍ عـلى أراضي الغـير.. أؤكـد لـكَ أنـك سـوف تخـرج رابحًـا مـن هـذه القضيـة، وسـتصبح أيضًـا بطـلًا قوميًّـا، سـوف يلتـفُّ حولـك كل المحامـين العـرب في أوروبـا، خاصـة وأن العلاقـة بينكـما كانـت علاقـةً شرعيـةً وليـس بهـا مـا يشـين.

أمسـك بيديهـا واتجهـا نحـو الحـمام، جرَّدهـا مـن ملابسـها قطعـة تلـو

القطعة، وكأنها في رقصة «استربتيز» في أحد معابد الهندوس، رقصةً لا تثير الغرائز، كلها حب وتقدير وحنان.

أتى بمقعد بلاستيكي صغير ذي قاعدة مستديرة، فوضعه في منتصف حوض الاستحمام، ثم أجلسها.

امتثلَت علياء إلى رغبته، فجلست، وأغمضَت عينيها تحاول أن تقبِض على تلك اللحظة النادرة من الحنان الذي قلَّما جادَ به رغم العلاقة الطويلة بينهما طول تلك السنين .

ضبطَ درجة حرارة ماء الصنبور، وأمسك بذراع الفوهة المعدنية ذات الثقوب، فتناثر الماء كرذاذ المطر فوق جسدها الممشوق، وضع كمية من سائل الاستحمام فوق قطعةٍ من الإسفنج الطبيعي، ومشَّطَ بها جسمها بكل ما يملك من عطفٍ وحنانٍ بحثًا عن اللاشيء، ثم جلس القرفصاء حتى تتمكَّن ساقاها من أن تفوز وتنول زخات الحنان النادرة.

وضع قليلًا من غسول الرأس فوق يده، وأخذ يُدلِّك شعرها بأنامله، وكأنه كولومبوس يُعيد اكتشاف أمريكا من جديد في الدروب بين خصلات شعرها، طلب منها أن تُغمِض عينيها، وترك الماء الدافئ ينسابُ فوقها، لم يلحظ وسام أنه كان ما زال بكامل ملابسه، وأن حذاءه قد ملأه الماء.

نظرت إليه وهي لا تتمالك أن تكُفَّ عن الضحك حتى دمعَت عينيها، وقالت له:

- اخلع عنكَ ملابسك، واجلِس هنا مكاني ولنتبادل الأدوار.

فقبَّلها ثم خرج من حوض الاستحمام وملابسه تقطر ماءً، ثم

حملَها من فوق المقعد وهي ما بين الضحك والصراخ، ألقى بها فوق الفراش، نام بجوارها، وجذبها نحوه وهو يقول:

- لدي رغبة شديدة في أن أشعر بالماء المنساب من خصلات شعرك فوق وجهي، أعلم أن رغباتي اليوم يشوبُها مسٌّ من الجنون، أنتِ إسفنجتي، تمتصين غضبي وآلامي، وهفواتي أيضًا في بعض الأحيان، أنتِ رجاءٌ بلا أمل، وعطاءٌ بلا مقابل، أنتِ الأمومة في أحسن صورها.

ثم دسَّ رأسه في صدرها وأجهشَ بالبكاء حتى غلبَه النوم.

(24)

اكتشفت ريانا أن المستشفى الدولي الخاص الذي تعمل به يقوم بعملياتٍ مشبوهةٍ لتجارة الأعضاء البشرية، وأن مدير المستشفى قد اتفقَ مع سمسار بمنطقة الطالبية لتكوين تشكيل من خمسة أشخاص لأجل استقطاب المتبرعين، وأعدُّوا مكانًا خصيصًا من أجل استضافة المتبرعين، وذلك إلى حين الانتهاء من الفحوص الطبية في أحد المراكز الطبية بالمهندسين؛ للوقوف على حالتهم الصحية ومطابقة العضو المنقول بالحالة المطلوب النقل إليها.

كان مدير المستشفى يُصِر على توقيع المتبرعين على استمارة تُثبِت تبرعهم بالمجَّان، للهروب من الملاحقة القانونية فيما بعد.

علِمَت ريانا هذا كله من شخصٍ وجدته يحاول الدخول إلى المستشفى ورجال الأمن كانوا يمنعونه، وألقوا به إلى قارعة الطريق وهم يكيلون له الضربات واللعنات والتهديد والوعيد إذا حاول العودة إلى المستشفى.

لم تهتَم ريانا حينها وذهبت إلى مرآب المستشفى، وحين ركبت سيارتها، وجدت الشخص نفسه الذي منعه الأمن من الدخول يجلس القرفصاء تحت إحدى الأشجار، فأوقفَت محرك السيارة،

واتجهت صوبه، وسألته إذا كان بخيرٍ أو يريد المساعدة، فكشَف لها الرجل عن بطنه، وإذا بجرح قطعي أسفل البطن مُصاب بالتقيُّح.

أشاحت بوجهها من قسوة المنظر، وساعدته على الوقوف واصطحبته معها إلى الفيلا، أجلسَته في حجرة الحارس، ثم أتَت بحقيبة الإسعافات وبدأت في تطهير الجرح، ووضعَت فوقه ضمادةً نظيفة، وطلبت من الحارس أن يجعله يبيت ليلتَه في الحجرة المهجورة الخاصة بالجناينى، وأخبرته أنها سوف تُرسِل الخادمة من أجل ترتيب الحجرة وفَرشِها.

وفي الصباح، قصَّت على والدها ما حدث بالأمس، فقال لها وهو يهُمُّ لمغادرة المنزل:

- أعطيه مبلغًا من المال ودعيه ينصرِف، من الأفضل ألا نحتفظ بأشخاصٍ غرباءَ لا نعرفهم في بيتنا، لا نعلم ما حقيقتهم، ربما وراءه مشاكل أو قضايا أو ثأر.

قبلته قائلة:

- لا تقلق يا وسام، ابنتكَ واعيةٌ بما فيه الكفاية.

فضحك وقال:

- هذه نتيجة الحرية الزائدة والديمقراطية، رفعتِ الألقاب يا ريانا! وسام.. دون بابا!

ضحكَ الاثنان، ثم انصرف وسام ليلحقَ باحتفالات أكتوبر التي تُقام للمرة الأولى بعد ثورة يناير.

أعدَّت الخادمة الإفطار ووضعته على صينية، ثم حملته إلى الرجل

الغريب، وتبعتها ريانا تحمل بعض أقراص المضادات الحيوية، بدَّلت الضمادة بعد أن وضعت مُطهرًا فوق الجرح الذي بدأ يستجيب إلى العلاج، وقالت:

- افطُر الآن، سوف أنتظرك في الحديقة لتقُص عليَّ ما حدث.

وبعد أن أنهى إفطاره، شرعَ يسرد قصته:

- اسمي سليمان، بدأت حكايتي عندما كُسِرت ساقي وأنا أعمل مع أحد مقاولي الأنفار في شقِّ الطريق في بلدتي من أجل مدِّ مواسير الغاز الطبيعي، حملوني إلى مستشفى القرية، ووضعوا ساقي في الجبس لمدة ستة أشهر، والمقاول من حينٍ إلى آخر كان يُعطيني مبلغًا من المال كمساعدةٍ منه لأسرتي، رغم أن القانون لا يُلزِمه بهذا حيث أنني غير مُؤمَّن علي.

وبعد ستة أشهر، ذهبتُ إلى المستشفى لفكِّ الجبس، فوجد الطبيب أن العظام لم تلتئم بعد بسبب عدم تثبيت طرفَي الكسر جيدًا، فتمَّ وضع ساقي في الجبس مرةً أخرى، هجرَت زوجتي المنزل وذهبت إلى منزل والدها، وطلبت الطلاق، فتركتُ القرية وذهبت إلى القاهرة، ونمت بجوار مسجد السيدة زينب، وكان أهل الخير من حين إلى آخر يمُنُّون عليَّ ببعض الطعام والملابس، وحين أعاقني الجبس عن الحركة، قمتُ بشقِّه بمنشارٍ حديدي، واستخدمتُ عصا من أفرُع الأشجار للاتكاء عليها.

كنتُ أساعد روَّاد المكان بتسكين سيارتهم في ميدان السيدة نظيرَ بعض المال، إلى أن قابلتُه، سيد إبراهيم، رجل أربعيني يركب سيارة مرسيدس بيضاء موديل قديم لكنها بحالة جيدة، فائتمَنني على

سيارته التي تركها بضع دقائق من أجل أن يُصلي العصر، ثم عاد بعد عشر دقائق وأعطاني مئة جنيه وهمَّ بالانصراف، بعدها تردد عليَّ أكثر من مرة، وفي كل مرةٍ كان يترك لي مبلغًا من المال، أو بعض الطعام أو الملابس الجديدة، وكان ذلك قُبَيل شهر رمضان.

وفي إحدى ليالي رمضان، أصرَّ على أن أذهب للإفطار معه في بيت العائلة بكرداسة، فطلبتُ من أحد الصبية أن يحل مكاني إلى حين عودتي بعد صلاة العشاء، وهناك لم أجِد أحدًا من عائلته، وقبل أذان المغرب بوقتٍ قصير، أتى شخصان يحملان الطعام من أحد المطاعم الشهيرة في المهندسين، وقتها شعرتُ بالخوف والريبة، وكان تفكيري مُنصبًّا على أنه ربما يكون ذلك الرجل شاذًّا جنسيًّا! فتناولنا طعام الإفطار، وطلبتُ منه أن يشرحَ لي كيفية العودة إلى ميدان السيدة زينب، فضحك قائلًا: «بعد تناول الشاي سوف أوصِلكَ بسيارتي إلى هناك».

هذا آخر شيءٍ أتذكره وأنا في منزله، كوب الشاي، بعدها أفقتُ لأجد نفسي على أحد الأسِرَّة في المستشفى الذي تعملينَ به، نظرتُ حولي وكأنني أحلُم، وصرخت من الألم عندما حاولت أن أقوم من فوق السرير، حتى جاءني أحد الممرضين وطلب مني أن أهدأ، وحين سألته: «ماذا حدث؟ أين أنا؟ وما هذا الجرح؟!»، ضحكَ بطريقةٍ لا تخلو من السخرية وقال: عجِبتُ لكم! تبيعون أجسادكم ثم تبكون، لقد تبرعتَ بكُليَتك اليسرى وقبضتَ ثمنها، فصرختُ مرةً أخرى وأنا أردد: «لا! لا! لا لم أبِع كُليَتي! سوف أبلغ الشرطة عنكم»، ثم أتى الرجل بملف من الورق المقوى، وأخرج منه

صـورةً ضوئيـةً لورقـة عليهـا توقيعـي، ومرفـقٌ معهـا أوراقٌ أخـرى بهـا تحاليـل طبيـة باسـمي!

أغمضـتُ عينـيَّ واسـترجعت كل مـا حـدث لي مـع سـيد إبراهيـم يـوم كان في زيـارتي في ميـدان السـيدة زينـب، حـين أتى فوجـدني مرهقًـا ومتعبًـا، وشـكوتُ إليـه آلامَ سـاقي التـي لم تلتئـم بعـد، فأخـذني إلى مركـز طبـي ربمـا كان قريبًـا مـن بيتـه، لأن المسـافة كانـت طويلـة، وأجرَيـتُ هنـاك بعـض الفحـوص الطبيـة والتحاليـل، وأصرَّ سـيد إبراهيـم عـلى أن يدفـع هـو جميـع المصاريـف، وقـال: «لا تحمِـل هـمًّا، عندمـا تخـرج الفحوصـات سـوف أعرضهـا بنفـسي عـلى الطبيـب وأبلغـك بالنتيجـة».

سألته ريانا:

- ولماذا وقعتَ إذًا على إقرار التبرع؟!

فضحك ضحكةً كالبكاء:

- لقـد خدعنـي! أتى إليَّ يومًـا حامِـلًا أوراقًـا وطلـب منـي أن أوقعهـا، وعندمـا سـألته: مـا هـذه الأوراق؟، قـال: طلـبُ للالتحـاقِ بالعمـل في مجلـس مدينـة كرداسـة كعامـل نظافـة، يومهـا فرِحـت ودعـوتُ لـه بالصحـة والعافيـة..

مـرت الأيـام وأنـا جالـسٌ فـوق الفـراش في المستشـفى، أبـكي تـارةً مـن الألم وتـارةً أخـرى مـن قسـوة الأيـام، وكان معـي في الحجـرة شـابٌّ بـدا عليـه أنـه مـن الصعيـد؛ ملامحـه كانـت تـدل عـلى ذلـك، وكان مـا زال نائمًـا مـن تأثـير المخـدر، حتـى اسـتيقظَ عـلى عويـلي، فتأكـدت مـن طريقـة كلامـه أنـه بالفعـل مـن الصعيـد، وصـار يسـألني عـمَّا بي، فقصَصـتُ عليـه مصيبتـي، ليضحـكَ حـدَّ القهقهـة، حتـى إننـي شـعرت أنـه يسـخر

منـي، ثـم قـال: «تُلقـونَ علينـا النِّـكات يـا أهـلَ الـوادي: مـرة واحـد صعيـدي...، ثـم أكتشِـف أنـكَ يـا بحـراوي قـد سُرِقـت منـكَ كُليتُـك! مـن اليـوم سـوف يقولـون في نكاتهـم: مـرة واحـد بحـراوي...!»، فوجدتُنـي أضحـكُ رغـم الألم، شرُّ البليـةِ مـا يُضحِـك يـا دكتـورة! عرفـتُ منـه أن سـيد إبراهيـم مـا هـو إلا سمسـارٌ لجلـبِ المتبرعـين، وأنـه قـد اسـتغلَّ طيبتـي في النَّصـب عـلي، هـذه هـي قصتـي يـا دكتـورة.

ربَّتَت (ريانا) على كتفِه وانصرفَت دون أي تعليق.

(25)

كانت ريانا طوال الطريق إلى العمل تفكر فيما قاله سليمان لها حول ما يتمُّ في المستشفى الذي تعمل به هي وتوأمتها .

رَجلُ أعمالٍ كبيرٌ محسوبٌ على القيادة السياسية، وتبرَّع بنصف مليار جنيه لصندوق «تحيا مِصر»، وكل يوم يَفتتِح مشروعًا خيريًّا، ويقبَل بعض الحالات الخاصة بالفقراء لعلاجها بالمجان في المستشفى، كيف يفعل هذا؟! كيف يستغلُّ الظروفَ الاقتصادية للفقراء من أجل الحصول على أموال طائلة دون وجه حق؟! كيف يُتاجِر في لَحمِ المصريين من أجل العرَب والأجانب؟! أين مجلس النواب والحكومة ونقابة الأطباء؟!

اتصلَت بريحانا التي كانت تبِيت في المستشفى، وأخبرتها ألا تُغادِرها، لأنها تريد أن تتحدث معها في أمرٍ مهم.

كان أحدٌ من الحرَس الخاص التابع لمدير المستشفى قد رأى سليمان وهو يركب السيارة مع ريانا، فأخبر بدوره المدير، والذي أمرَه بأن يضعَ ريانا وشقيقتها تحت المراقبة طوال اليوم، وألَّا تغيبا عن أعينهم حتى يتضِح الأمر.

كانت ريحانا تنتظِر شقيقتها في حجرة الأطباء، جذبتها من يديها وخرجَت مسرعة، وهي تحاول أن تُبلِغها بأن حقيبة يدها ما زالت في الداخل، لكن ريانا لم تهتَم، فتحَت باب سيارتها الموجودة أمام مبنى الطبيبات، وألقَت بها على المقعد المجاور لها، ثم أدارَت المحرك وانطلقتا في اتجاه مبنى الجريدة التي يرأس تحريرها والدهُما.

كان وسام لديه اجتماعٌ صغيرٌ مع هيئة التحرير، ففَضَّ الاجتماع سريعًا، رحَّبَ بتوأمتَي روحه، وطلب من علياء عدم الإزعاج من أحدٍ حتى ولو كان وزير الثقافة ذاته.

قصَّت ريانا قصة سليمان على سمع والدها، وكانت ريحانا في حالة اندهاشٍ دائمٍ مما تسمعه، خاصةً وأنها تُكِن حبًّا واحترامًا للدكتور (ثروت عدنان) مالك المستشفى، وكانت دائمًا تدعمه في كل خطواته.

بعد أن استمعَ وسام إلى ما قالته ريانا، أخرجَ ملفًّا قد أعدَّته صحفية تحت التمرين عن تجارة الأعضاء البشرية، ولاحظَ أنها أشارَت إلى بعض الأسماء بحرفٍ أو بحرفين خوفًا من بطشهم وسطوتهم، ولعدم التعرض في الوقت نفسه إلى المساءلة القانونية، وجَد ما كان يبحث عنه (ث ع)، ثروت عدنان، رجل البر والتقوى!

ضغط وسام على زر جرسٍ بجواره، وأتى على إثرِه شابٌّ يرتدي ثيابَ الأمن، فطلب منه أن يبحث عن صحفية تحت التمرين اسمها هبة الله وهدان، وأمره ألَّا يعودَ إلا بها.

ثم طلب وسام من ابنتيه:

- لا تتحدثا في هذا الشأن مع أي شخص، سواءً في المستشفى أو خارجها، فلو علِم ثروت عدنان بما تعلمانِه ربما صفَّاكُما جسديًّا! الملف الذي أمامي به معلومات في غاية الخطورة عن نشاط ثروت عدنان وعلاقته بالمافيا العالمية لتجارة الأعضاء، وقد ذُكِر اسمه من قبل في قضية تهريب آثار إلى إيطاليا داخل حاويات معدات طبية مُرتجَعة لعدم مطابقتها للمواصفات العالمية، وبرَّأته المحكمة بعد أن اعترفَ أحد العاملين بالمخازن أنه هو المسئول عن تلك العملية، والدكتور ثروت لا يعلم عنها شيئًا.. هذا الرجل خطير ولن يتوانَ لحظة عن قتلكُما، الحذَر ثم الحذَر! سوف أتولَّى بنفسي هذا الملف.. ومن فضلك يا ريانا، أَعطي سليمان مبلغًا من المال ودعيه يترُك الفيلا؛ الأمر جِدُّ خطير.

عقد ثروت عدنان اجتماعًا مغلقًا مع مدير المستشفى، وأخبره المدير بما لديه من معلومات:

- إن المريض الذي تبرع بكُليَته موجود الآن في فيلا الأستاذ وسام عبد العزيز، وقد ذهب إلى هناك بصحبة الدكتورة ريانا، وهي وشقيقتها الآن لدى والدهما في مبنى الجريدة، أخشى أن تكونَ قد علِمَت تفاصيل القصة من المريض، وإذا وصل الموضوع إلى وسام، فأنتَ تعلَم جرأته، ربما يثير الموضوع في جريدته، ونحن على أعتابِ الانتخابات البرلمانية؛ لا نريد أي تشويش!

خرج ثروت عدنان عن صمتِه قائلًا:

- لا تدَع الأمر يخرج من بين أيدينا، لديكَ كل الصلاحيات، لقد

ضحَّيت بالكثير من أجل أن أنول ثقة القيادة السياسية، ولديَّ وعدٌ شفويٌّ بأنني سوف أتولى حقيبة وزارة الصحة في الوزارة الجديدة، تابِع الأمر بنفسك، أريدُ منك تقريرًا يوميًّا بهذا الشأن.

***

هبة الله وهدان تسير بصحبة رجل الأمن في حالة هلع وخوف، خاصة وأن هذه هي المرة الأولى التي تلتقي فيها مع رئيس التحرير، وحين دخلَت أشار إليها وسام بيده أن تجلس إلى حين انتهائه من محادثة هاتفية.

رحَّب بها وطلب لها كوبًا من عصير الليمون حتى تهدأ بعد أن لاحظ ارتباكها وخوفها، ثم أخرج الملف الذي يحوي التقرير الذي كتبته بشأن مافيا تجارة الأعضاء في مِصر، وأشار بقلمٍ كان بيده إلى «ث ع»، وقال:

- من هذا؟

فدقَّقَت هي النظر وقالت:

- الدكتور ثروت عدنان، أعلم أنه خطٌّ أحمر، ومُقرَّب من السلطة، لكن المعلومات التي تحت يدي تؤكد ضُلوعَه في التجارة الخفية للأعضاء في مِصر وبعض الدول الأفريقية، والتي يُهرِّب أعضاؤها الشباب هناك إلى داخل الحدود المصرية، ويتم عمل التحاليل والفحوصات الخاصة لهم ثم يتم إدخالهم إلى إسرائيل من أجل سرقة أعضائهم، لقد تحدثتُ من قبل مع أحد بَدوِ سيناء وأكد لي هذه المعلومات.

ثـم أخرجَـت هاتفهـا المحمـول وبحثـت في أسـتوديو الصـور وأعطتـه إلى وسـام:

- هـذه الصـور لشـبابٍ مـن الصومـال جـاءوا متسـللين عـبر الحـدود، التُقِطـت لهـم داخـل إحـدى المغـارات قبـل تهريبهـم إلى إسرائيـل، وقـد تحدثـتُ مـع شـابٍّ لم يقَـع عليـه الاختيـار للسـفر، وعلِمـت منـه بأنـه لم يجتَـز التحاليـل الطبيـة، لأن مـن شروط السـفر التمتُّـع بصحـة جيـدة حيـث أنَّ العمـل يتطلـب ذلـك، ومُرفَـق بالتقريـر صـورة ضوئيـة مـن التحاليـل التـي أجراهـا ذلـك الشـاب، ويتضـح منهـا أنهـا خاصـةٌ بوظائـف الـكُلَى، ويتضـح أيضًـا ارتفـاع نسـبة الكرياتـين في الـدم، وهـذا يـدل عـن خللٍ مـا في وظائـف الـكلى، لذلـك تـم اسـتبعادُه مـن السـفر إلى إسرائيـل، ومُرفَـق أيضًـا كشـفٌ بأسـماء بعـض المتبرعـين الذيـن لم يحصلـوا عـلى بقيـة مسـتحقاتهم لـدى إدارة المستشـفى، وهُـم عـلى اسـتعدادٍ لأن يأتـوا إلى مقـر الجريـدة ويُوقِّعـوا عـلى أقوالِهـم.

ضحِك قائلًا:

- نحـن لسـنا جهـة تحقيـق! سـنكتفي بالتسـجيل الصـوتي لهـم، حتـى لا تتعـرض الجريـدة إلى المُسـاءلة القانونيـة.

كتـب وسـام مقـالًا مُطـوَّلًا عـن مافيـا تجـارة الأعضـاء في مِـصر، ونـوَّه بأنـه قريبًـا سـوف يفتَـح هـذا الملـف بعـد التأكُّـد مـن مصـادر المعلومـات.

كانـت المقالـة أمـام ثـروت عدنـان عـلى مكتبـه، فرفـع سـماعة الهاتـف مُحدِّثًـا مديـر المستشـفى:

- تصرَّف الآن بأقصى سرعة، وسام يلعب بالنار!

***

ركبت ريانا سيارتها واتخذت طريقها إلى الفيلا بعد أن خرجَت من باب المستشفى، حاولت التوقف في إشارة المرور، إلا أن مكابح إيقاف السيارة كانت لا تعمل، حاولت استخدام فرامل اليد، لكن أيضًا دون جدوى، فاصطدمت سيارتها بشاحنةٍ تعبُر عرض الطريق، وتوقفت السيارة بفِعل الاصطدام، حاول المارَّة إغلاقَ محرك السيارة، وأنزلوا ريانا من السيارة واتصلوا بالإسعاف، وتم نقلها إلى مستشفى «عين شمس التخصصي»، وهناك اتصلت الشرطة بوسام لتُبلِغه بالأمر، فطِن وسام إلى أن الأمر مُدبَّر، فاتصل بصديقه اللواء عماد العارف كي يلحَق به.

تلقَّت ريانا الإسعافات الأولية في حجرة الاستقبال، كانت هناك بعض الكدمات، وقَطعٌ سطحيٌّ في الجبهة وآلامٌ في سلسلة الظهر والكتفين.

وصل اللواء عماد، انتحى به وسام جانبًا وأخبره بأن الحادث مُدبَّر، وأن ذلك بسبب مقالٍ كتبَه اليوم عن مافيا تجارة الأعضاء البشرية، وطلب منه أن يُجري اتصالاته من إجراء معاينةٍ دقيقةٍ لسيارة ريانا.

اطمأنَّ وسام أن حالة ريانا مستقرة، ووقَّع إقرارًا على نفسه بأنه سوف يتولى تكملة العلاج في الخارج، حيث خشيَ أن تتعرَّض ريانا إلى أي مكروه إذا استمرَّت في المستشفى.

تم نقلها بسيارة مجهزة إلى الفيلا بصحبة ريحانا ووسام، وقد اتَّبعَهم اللواء عماد بسيارته، كانت نادين تنتظر في الحديقة الخارجية يعتلوها القلق والتوتر، فقد أبلغوها وهُم في طريقهم إلى الفيلا

حتى لا تُصدَم بدخول سيارة الإسعاف، وعندما وجدَتها تنزل من السيارة وتسير على قدميها هدأَ روعُها، واحتضنتها ووضعت يدها خلفَ خصرها وسارتا معًا إلى الداخل.

دخل وسام بصحبة عماد العارف إلى حجرة المكتب، أغلقَ الباب جيدًا، وأخرج ملفًا من حقيبة أوراقه، ثم اقترب منه وهمَس في أذنه:

- في هذا الملف السبب وراءَ محاولة قتل ريانا، فتِّش عن المستفيد، مَن له مصلحةٌ في عدم فضح الحقيقة، حقيقة تجارة الأعضاء البشرية في مِصر وأفريقيا، في هذا الملف عدة أسماء لبعض كبار رجال الأعمال المصريين والعرب، أبرزهم رجل الأعمال الذي صعَد نجمه حديثًا وأصبح مُقربًا من القيادة السياسية ومصدرًا للثقة: ثروت عدنان.. نعم، ثروت عدنان هو مَن حاول قتل ريانا، وذلك بعد أن نوَّهتُ في الجريدة أول أمس عن فتح ملف تجارة الأعضاء، سوف أتوجه ببلاغٍ إلى النائب العام ضده.

ألقى اللواء عماد بالملف فوق سطح المكتب، وهبَّ واقفًا، وقال:

- مشكلتكَ يا وسام أنكَ لم تعرِف بعد طبيعة المرحلة الحالية، كل مرحلة ولها رجالها، وثروت عدنان أهمُّ رجال هذه المرحلة، لن تشفَع لك جنسيتك الألمانية، هذا الرجل بطشُه شديد، رجاله في مجلس النواب يدفعون بقوة بقانون «نقل الأعضاء» من أجل الموافقة عليه وتمريره، وقد علمتُ أيضًا أن هناك ضغوط على شيخ الأزهر من أجل الموافقة على هذا القانون، والذي لو تمَّ سوف تصبح مِصر بعدَه أكبر سوقٍ لتجارة الأعضاء في العالم!

لـن أسـتطيع أن أُقـدِّم لـكَ غـير النصيحـة، المـوج عـالٍ جـدًّا والريـح عاتيـة، اخفِـض رأسـكَ يـا صديقـي، ومـزِّق هـذا التقريـر وأشـعل فيـه النـيران، حياتـك أنـتَ وأسرتـك في خطـر، دعـكَ الآن مـن الغـرور وعزة النفـس والكرامـة ومصداقية الجريـدة أمـام القـراء، لا أحـدَ سـوف يتذكَّـر تنويهـك عـن هـذا الموضـوع، ثـم مَن يقـرأ أو يشـتري الجرائـد الآن؟!

مـن فضلِـك اتـرُك الموضـوع برُمَّتـه، واطلـب مـن ابنتيـكَ ألا تتحدثـان مـع أحـدٍ بشـأن هـذا، وقُـم بطَـرد المريـض المجهـول الموجـود في حديقـة الفيـلا في الحـال! أنـتَ مرصـودٌ يـا وسـام، لقـد لاحظـتُ سـيارتَي دفـع رباعـي تسـيران خلفَنا ونحـن في الطريـق، واضـحٌ مـن طريقـة المراقبـة أنهـما عـلى مسـتوى عـالٍ مـن التدريـب، كنـت أودُّ أن أُسـدي إليـكَ معروفًـا، لكـن واجـبَ الصداقـة يُحتِّـم عـليَّ أن أنصحَـك، خاصـةً وأن ريانـا لهـا معـزة ومكانـة في قلبـي، فهـي مَـن اختارَهـا الشـهيد نـور لتُكمِـل معـه حياتـه، لا تفكـر كثـيرًا، ومـزقِّ الملـف.

(26)

شعر وسام باليأس، وخيبة الأمل، وقلة الحيلة، والشلل التام كاد يُصيب أطرافه بعد أن تركه اللواء عماد في حجرة مكتبه وانصرف.

بدأ بوضع الورق الخاص بالتقرير في جهازٍ خاصٍّ بفَرم الأوراق، وأخذ ينظر إليها وهي تنزل في قابلة الجهاز البلاستيكية الشفافة كأعواد الاسباجتي، وهو لا يكفُّ عن الضحك الهستيري الهذلي:

- سوف أضع عليها قليلًا من صلصة البولونيز وأملأ بها معدتي الخاوية، علَّها تكُف عن دعوة عقلي إلى التمرُّد والخروج عن المألوف! لا تنسَ أنك في بلد عربي متخلف يا وسام، قيام ثورتين لا يعني بالضرورة أننا أصبحنا أحرارًا، وأن الديمقراطية تسللت إلى نظام الحكم، نحن العرب أمامنا مئات السنين حتى نصبح قرودًا، بعدها ربما نفكر كيف نصير بشرًا!

الفساد يغلف كل شيء، أصبح له قوانينه التي تنظمه ورجاله الذين يحمونه، والشكل المناسب لترويجه، أصبحنا دولةً من الفاسدين، أنا أيضًا فاسد، ربما أكون فاسدًا صغيرًا، وفسادي ضرَّ أُناسًا حولي، ربما بالعشرات أو بالمئات، لكنني أحاول أن أتطهَّر من جميع الموبقات، أحاول أن أرُد المغانم.. ولكن، كيف؟! كيف

وقد ماتَت من جراء أفعالِك سيدةٌ أحبَّتك وسُجِنت أخرى؟ كيف تُعوِّضهما؟ كيف تكفِّر عن فعلتك هذه؟ مياه بئر زمزم لن تكفيكَ لتتطهر، ولا طواف الكعبة ألف مرة سيغفر لكَ خطاياك، أنتَ في حاجةٍ إلى عفو إلهي، إلى دعاء نبي تقي، إلى وحي من السماء يُأذِّن في ضحاياك: «اغفروا له خطاياه»!

ما هذا الهراء يا وسام؟! أعرِفتَ الآن قدرَك؟! الحقيقة أنتَ أضعف من أن تحمي أهل بيتك، أنتَ في حجم بعوضةٍ وسط الأفيال، لا يَغرُّنك كونكَ روائيٌّ كبير، كاتبٌ لا يشق له غبار، رئيس تحرير أكبر جريدة خاصة في مِصر، أنتَ لا شيء! هواء، ورقة في مهب ريح عاتية، قطرة ماءٍ ضلَّت طريقها إلى مياه المحيط، ارجِع إلى صوابك حتى لا تفقد كل شيء.

رن صوت جهاز الحاسوب مُعلِنا عن وصول رسالةٍ جديدةٍ عبر «الماسنجر»، لقد انتظرها وسام طويلًا.

«صباح أو مساء الخير أستاذ (وسام)..

لا أعلَم متى ستقرأ رسالتي، صباحًا أم مساءً..

اسمي لن يهمك في شيء، يكفي أن تعلم أنني من المغرب العربي، ترددتُ كثيرًا قبل أن أبعثَ إليك بهذه الرسالة، خاصةً وأنني شخصية عامة ومعروفة بشكل جيد ربما لكل أبناء الوطن العربي، لذلك أرسلتُ إليك عن طريق حساب ماسنجر عبر رقم الهاتف، وسوف أتخلص منه مباشرةً بعد هذه الرسالة.

قرأتُ مقالَك حول الطغاة، أعجبني شعورك وإحساسك وعدم استطاعتك النوم على فراش أحد طغاة العصر، قبل أن أربط قصتي

بمقالك المنشور في جريدتك الغراء، أحب أن أوجه نظركَ إلى شيءٍ مهم.

إن للطغيان أوجُهًا كثيرة، بعيدًا عن طغيان الحكام والولاة على مرِّ التاريخ، الطغيان يا سيدي له أوجه كثيرة: الخيانة طغيان، الجبروت طغيان، البخل طغيان، الضعف طغيان، التسلُّط طغيان، البطش طغيان، الظلم طغيان، الضعف طغيان، الحب في بعض الأحيان طغيان!

لذلك أريدُ منك وأنت كاتب مرموق، أن تكتُب بحثًا عن الطغيان الغامض، عن طغيان الظل، عن الطغيان المغلف بألفِ شكلٍ ولون.

حتى لا أطيل عليك، قصتي تشبه إلى حد كبير قصة فيكتوريا زوجة الزعيم الروسي ليونيد بريجنيف، السكرتير العام للحزب الشيوعي الأسبق، فهي كانت من عائلةٍ يهوديةٍ لها ثِقَلها في المجتمع الروسي، جميلة، مثقفة وعلى خلق، وولدها كان يعمل مُدرِّسًا للاقتصاد في إحدى المعاهد المتخصصة، وبريجنيف كان مجرد فتى من أبناء الريف، احتضنته أسرة فيكتوريا وجعلته يستكمل تعليمه، ويكون جاهزًا للصعود إلى الأعلى والترقِّي في حياته العملية.

ورغم الخدمات التي أسداها إليه والد زوجته، فإنه كان يخونها منذ اليوم الأول من الزواج، والغريب أنها كانت تعلم كل شيءٍ عن مغامراته النسائية وتغضُّ النظَر عنها، أرخَت له الحبل على مداه، ومن حين إلى آخر كانت تجذبه نحوها.

كان زوجي أيضًا قبل أن أتزوَّجه، صحفيًّا تحت التمرين في

إحـدى الصحـف الإقليميـة المغمـورة، يمُـت لنـا بصلـة قرابـة بعيـدة، ووالـدي حينهـا كان يتـولى منصـب المستشـار الثقـافي لجلالـة الملـك.

كان زوجـي يزورنـا في قصرنـا في مدينـة الربـاط مـن حـين إلى آخـر، حتـى نصَـب شـباكه حـولي، فأحبَبتُـه وضغطـت عـلى والـدي حتـى وافـقَ عـلى زواجـي منـه.

بعـد الـزواج، سـعَى والـدي كي يُحسِّـن مركـزه، مـن أجـل أن يليـق بي وبأسرتنـا العريقـة، فعيَّنـه في مركـز الملحـق الثقـافي في سـفارتنا بموسـكو، وعندمـا عـاد إلى المغـرب، عيَّنـه رئيسًـا لتحريـر جريـدة الأنبـاء المغربيـة.

عـلا نَجـمُ زوجـي، وبعـد وفـاة الملـك، عُـيِّن مستشـارًا للملـك الجديـد لشـئون الثقافـة والإعـلام، وأصبـح مُصاحبًـا لـه في جميـع الأسـفار، وضيفًـا دائمًـا في جميـع القنـوات التليفزيونيـة، خاصـةً وأنـه قـد شـغَل منصـب المتحـدث الرسـمي لجلالـة الملـك فيـما بعـد.

تعـددت العلاقـات النسـائية لزوجـي، ناهيـكَ أنـه تـزوَّج ابنـة وزيـر الثقافـة، حـاول والـدي أن يَثنيـه عـن تلـك الأفعـال، إلا أنـه طـردَه مـن مكتبـه وأوصى الحـرس الخـاصَّ بـألا يُدخِلـوه إليـه مـرةً أخـرى.

تقـدم زوجـي بطلـب الإذن مـن المحكمـة، وكان مُوقَّعًـا مـن شـاهدَي عـدل يقطنـان بدائـرة نفـوذ المحكمـة التـي يوجـد بهـا بيـت الزوجيـة، مـن أجـل البـتِّ في طلـب الطـلاق المقـدم منـه.

ورغـم أن زوجـي لم يحـضر الجلسـة، والقانـون ينـصُّ عـلى أنـه إذا تغيَّـب الـزوج عـن الحضـور يُعتَـبر أنـه قـد تراجـع عـن طلبـه، فـإن نفـوذَ زوجـي جعـل القـاضي يحكـم بالتطليـق وبمسـتحقاتٍ ماليـةٍ لا تتناسـب مـع ثروتـه الضخمـة.

ما زالت قضايا المرأة في وطننا العربي تُعالَج بعقلٍ ذكوريٍّ بَحت، تغلُب عليه الأهواء، ولا يُنصِفها إلا سطوة زوجة رئيس أو ملك، بأن تُصدِر بعض القوانين التي تحد من كون الزوج هو المتصرف الأوحد في مصير الأسرة، كما فعلت جيهان السادات من خلال سَنِّ قوانين من شأنها حفظ حقوق المرأة والطفل، فوافق مجلس الشعب وقتها على تعديل قانون الأحوال الشخصية، وأصبح للمرأة قاعدةً قانونيةً تُنصِفها، وحتى تتأكد من صدق حديثي، فقد حكمت المحكمة الدستورية العليا بعد استشهاد السادات حُكمًا ببطلان هذا القانون، هكذا تُدار الأمور في وطننا العربي.

أعود إلى قصتي أستاذنا الفاضل، هذا ما فعله زوجي معي، كان جزاء الإحسان ذلٌّ ومهانةٌ لي ولوالدي الذي أكرمَه، ألا يحِق لي أن أقول بأنني قد نمتُ أيامًا على فراش طاغية؟!».

(27)

أشارت علياء على وسام أن يتحدث مع زوجته بشأن قصة زواجه من راشيل، وكيف أنها خدعته، وأنه تزوج منها أثناء وجوده في بولندا ليُحصِّن نفسه ويتجنب الخوض في فعل الحرام، وأنه اكتشفَ فيما بعد أنها تَحمِل الجنسية الإسرائيلية، ولذلك قرَّر أن يتبرأ منها ومن ابنه منها.

تقبَّلت ناديـن بقلبٍ رَحْب ما قاله لها، وقررت أن تذهب معه إلى بولندا كي تدعمَه في قضيته.

تقدم المحامي سالم الإبراهيمي - العراقي الأصل والذي يحمل الجنسية البولندية- بطلبٍ إلى محكمة شئون الأسرة في وارسو، من أجل تدارُك الضرر الذي أصاب موكِّلَه، جراءَ خداع زوجته له بإخفائها جنسيتها الإسرائيلية عنه، وعدم ذكرها ذلك ضمن بيانات قسيمة الزواج المدنية، رغم وجود خانة خاصة بكل من الديانة والجنسية.

وأوضح للقاضي أن هذا يؤكد شُبهة التعمُّد في إخفاء بياناتٍ في مُحرَّر رسمي، وأنه نتَج عن هذه العلاقة طفلٌ يحمل الجنسية الإسرائيلية، وقد ترتبَت على ذلك أضرار نفسية واجتماعية على

موكلـه، خاصـةً وأنـه مـن المناصريـن للقضيـة الفلسـطينية ومـن مُناهِـضي الاحتـلال الإسرائيـلي.

طلب وسام الحديث إلى القاضي:

- سيدي القاضي، كيف يكون لي ابنٌ يحمل الجنسية الإسرائيلية؟

- بينكم وبينهم معاهدة سلام.

- لكنـه سـوف ينتهـي يومًـا مـا، مـا زالـت خريطـة إسرائيـل الكـبرى مـن نهـر الفـرات في العـراق إلى نهـر النيـل في مِـصر مُعلَّقـة عـلى بـاب الكنيسـت، لذلـك سـيدي القـاضي علَـم إسرائيـل يحمِـل خطـين أزرقـين بينهـما نجمـة داوُد، الخـط الأول يشـير إلى نهـر الفـرات، والخـط الثـاني يشـير إلى نهـر النيـل، إذن الحـرب سـوف تندلـع بيننـا يومًـا مـا، وسـوف يحمـل فيهـا ابنـي السـلاح ليقتُـل شـقيقتيه، وربمـا يقتلنـي لـو كنـت مـا أزال حيًّـا! كيـف أعيـشُ وأنـا أحمِـل ذاك الشـعور المـؤلم؟!

- ربما يعُم السلام يومًا العالم كله.

- وقتها سوف أعترف بزوجتي وابني، أعِدُك بذلك.

واسـتكمل المحامـي المرافعـة، فاسـتمع القـاضي إلى دفـاع راشـيل الـذي أوفدَتـه السـفارة الإسرائيليـة في وارسـو مـن أجـل الدفـاع عنهـا.

حـاول محامـي راشـيل إثبـات أن العـرب لا كلمـة لهـم، وأنهـم عنصريـون وهمجيُّـون، يُلقـون بأبنائهـم في التهلُكـة عـلى ذنـبٍ لم يقترفـوه، وأن الحُجَـج الواهيـة التـي تقـدَّم بهـا محامـي المُدَّعـي بالحـق المـدني لا تسـتنِد عـلى أي ثوابت متعـارَف عليهـا قانونيًّـا، لكنـه يريـد اسـتمالة الـرأي العـام إلى صالِحـه مـن أجـل الضغـط عـلى قـرارات المحكمـة، وقـال:

- أنا هنا ليس من أجل الدفاع عن راشيل، ولكنني جئت من أجل الطفولة المعذبة من أجل نُصرَة الحق، حق طفل صغير، ذنبه الوحيد أن والده مسلم مصري، الدين الإسلامي لا يمنع زواجَ المسلم من الكتابيَّة، وأنا وضعتُ في عريضة الدفاع ما يُثبِت صحة كلامي من القرآن «كتاب المسلمين»، وذلك في الآية رقم خمسة من سورة المائدة، مصحوبًا بالشرح والترجمة، إذًا لا توجَد موانع دينية تمنع الزواج، وإذا كان قد وقع خطأ إداري، فهذا يسهُل حلُّه وتداركه، لذلك أطالب العدالة ممثلةً في شخصكم أن تنظر بعين العطف إلى هذا الطفل البائس.

تحولت القضية إلى قضية رأيٍ عام، وفرضَ لها البوق الإعلامي اليهودي مساحات على جميع القنوات البولندية، وتحركت الأجهزة الإعلامية بالسفارات العربية للرد على ادعاءات اليهود البولنديين، وحضر وفد من المحامين العرَب لحضور الجلسات التي عُقِدت تباعًا.

بعد تداول القضية في عدة درجاتٍ من التقاضي، حكمَت المحكمة لصالح وسام، ووجهت تهمة التزوير في مُحرَّرات رسمية إلى راشيل، لعدم ذكرها حصولها على جنسية أخرى في الخانة المخصصة لذلك، وطالبَتها بدفع غرامة مالية.

انتهت وأُغلِقت صفحة راشيل من حياة وسام إلى الأبد، وأخذ يُفاضِل بين علياء التي أشارت عليه بإقامة دعوة قضائية ضد راشيل، وسهام الحفناوي التي قالت له قبل أن يُغادِر فيلَّتها في

أسـوان: «مـا زال لديـكَ وقـتٌ لتـدارك الأخطـاء»، فقـد كان يـودُّ أن يشـتري هديـةً قيمـةً اعترافًـا بالجميـل، لكنـه لم يسـتطع المُفاضَلـة بينهـما، فاشـترى سـاعتَي رادو بالقيمـة ذاتهـا.

كان في انتظـاره بمطـار القاهـرة عـددٌ مـن القنـوات التليفزيونيـة، مـن أجـل شرح المُلابَسـات التـي أحاطَـت بزواجـه مـن فتـاة تحمـل الجنسـية الإسرائيليـة وتبرئـة سـاحته أمـام القضـاء البولنـدي.

ظلـت عليـاء في بيتهـا تنتظـر حضـوره، لأنـه أبلغهـا قبـل عودتـه ألا تـأتي بسـبب وجـود وكالات الأنبـاء في المطـار، ووعدهـا بأنـه سـوف يأتيهـا بعـد انتهـاء المؤتمـر الصحفـي، خاصـة وأنـه غـاب عنهـا قرابـة الثلاثـة أشـهر.

طـال انتظارهـا ليُضمِّـد آلام الفـراق، لكـن دون جـدوى، حتـى قطَـع رنـين الهاتـف تفكيرهـا ليخبرهـا بأنـه لـن يسـتطيع الحضـور، لأنـه في طريقـه إلى أسـوان لأمـر مهـم.

***

«هـا أنـا أجـرُّ خَيبتـي، أُطبِّـب مـا تبقَّـى مـن جراحـي، أعيـد نَسْـج مـا هُتِـك مـن كبريـائي، أُلملِـم مـن فـوق المـرآة خيـالاتي، أجـترُّ هجـرك ورحيلـك، أحتـسي خُذلانَـك بقليـلٍ مـن دموعـي، أنـا مَـن نصبَـك أميرًا عـلى قلبـي، فتغلغلـتَ داخـل مسـامِّي وأقَمـتَ بـين ضلوعـه دولتَـك، بنيـتُ صرحـكَ بآهـاتي، ورسـمتُ عـلى جـدران شراييـني أحلامَـك، ونسـيتُ مـن أجلـكَ ذاتي، أسسـتُ دسـتورَكَ فـوق أشـلائي، ولحَّنـتُ نشـيدكَ مـن بسَـماتي، ارتَعـتَ عـلى ضفـافِ شـفتَي، فسـقيتُكَ مـن خمـر رِضـابي، وكلـما منحتُـكَ ازددتَ غـرورًا، تنـام وعيـوني تحرسُـك وأنـتَ

تفـترِش نبضـاتي، تقـوم في الفجـر لتنتـشي مـن عبَقـي وتُرتِّـل تسـابيحَ أبيـاتي، فتقطِـف مـن روحـي مـا يطيـبُ لـكَ وتشـتَمُّ عبـيرَ زهـراتي، تحمَّلـتُ مـن أجلِـكَ ضجيـج الشـوق، وخنَقـتُ في حضـورِكَ حـسَراتي، أُخفـي عنـكَ لَوعـاتي، أراكَ فرِحًـا فأفـرَح لأجلـك، معـكَ أعدمـتُ جيـوشَ كبريـائي، وهـا أنـتَ اليـوم تنحَـر قلبـي كـما ينحَـر الجـزار شـاتَه».

بلعَـت آلامهـا وتجرَّعـت الأحـزان وأراقَـت الدمـع فـوق وسـادتها، ثـم أغمضَـت عينيهـا راجيـةً النـوم أن يُكحِّلهُـما، لكـن هيهـاتَ أن يـزور النـوم عينـين بلَّلهُـما الدمـع وأصابهـما الاحمـرار!

(28)

كان محمد السنوسي مُراسِل الجريدة في انتظار وسام في مطار أسوان، اصطحبه بسيارته إلى فندق «موفنبيك»، وانتظره حتى انتهى من إجراءات التسكين، ثم ذهبا معًا إلى مطعم «الدوكة» من أجل تناول طعام الغداء، واصطحبه بعدها في رحلة نيلية، ثم عاد به إلى الفندق كي يأخذ قسطًا من الراحة.

اتصل بسهام، تحدَّث كثيرًا في حين كانت هي تستمِع فقط دون أن ترُد بكلمةٍ واحدة، حتى شكَّ بأن الاتصال ربما يكون قد قُطِع، فنظَر إلى هاتفه ووجَد عدَّاد الثواني الذي يُحدِّد وقت المحادثة ما زال يعمل، ففطِن إلى أنها ما زالت على الطرف الآخر، فسألها:

- لماذا لا تَرُدِّين؟!

- ماذا تريد بالضبط أستاذ وسام؟! لقد علِمتُ من الصحف والقنوات التليفزيونية أن مشكلتكَ مع زوجتك الإسرائيلية قد حُلَّت.

- هل من الممكن لي أن أراكِ؟

- لماذا؟

- لديَّ ما أريد قوله لك.

- وأنا لدي ما يمنعني من أن أسمعَك.

- لا تحكُمي على الأشياء من ظاهرها.

- ربما تريد أن تشغَل نفسكَ بقصةٍ جديدةٍ بعد أن انتهَت قصتُك مع فاتنة بولندا!

- أريد فقط أن أرُدَّ إليكِ الجميل.

- أيُّ جميلٍ أسديتُه إليك؟!

- حديثكِ لي في نهاية لقائنا.

- وأنا لا أريد منكَ ردًّا للجميل، ولا حتى كلمة شكر، كانت مجرد نصيحة أسديتُها إليك، وأنتَ مَن تحمَّل تبَعاتِها.

- سوف أنتظركِ غدًا صباحًا في أي مكان تختارينه.

- لم أعتَد الظهور في أماكن عامة مع غرباء.

- إذًا سوف آتي إليكِ غدًا في فيلتك، الفيلا بها خدمٌ وحراس، وأنا لن أطيل.

- حسنًا، سوف أنتظركَ غدًا في الثانية ظهرًا على الغداء.

***

بحثَ عن مكان متخصِّص في بيع الزهور، وطلب من البائع أن يُعِد باقةً ثريةً من الزهور المنتقاة بعناية، وأرفَق بها بطاقةً ورقيةً بيضاء كُتِب عليها: «أرجو أن تُعبِّر الزهور عما ما بداخلي نحوك.. وسام».

في تمام الثانية، كان أمام فيلتها، رحب به الحارس واصطحبه إلى الداخل قائلًا:

- الهانم تنتظرَك بالداخل.

أصرَّت سهام على أن تقوم بإعداد الطعام بنفسها، فأعطَت الطباخ إجازة، وتذكَّرت هوايةً قد هجرتها منذ زمنٍ طويل، ألا وهي فن الطبخ.

أثنَى على الطعام قائلًا:

- لديكِ طباخٌ ماهر.

- بل أنا من أعدَّ الطعام.

- إذًا أنتِ طباخةٌ ممتازة، وصديقةٌ رائعة.

- لكن كل هذا لم يمنَع صديقَك من أن يخونني.

- لماذا تفتحين جرحًا أوشكَ أن يندمِل.

- الجرح ما زال يئنُّ ألمًا.

- عندما اقتربتُ منكِ اكتشفتُ كم كان وليد غبيًّا؛ لم يُقدِّر قيمة الجوهرة التي كانت بين يديه.

- ربما لا يفهَم في الأحجار الكريمة.

- أو ربما من تدبيرِ القدر!

- لماذا أتيتَ يا وسام؟

- لا أعلم السببَ بالتحديد؛ وجدتُ نفسي بعد عودتي من بولندا لديَّ رغبة عارمة في أن أراك.

- دون أسباب؟!

- هناك سبب مهم.

- ما هو؟

- أريد الزواج بك!

- لديَّ شروط قاسية.

- على استعدادٍ لأن أُنفِّذها.

- أولًا: أن يكون زواجًا رسميًّا مُشهَرًا، ثانيًا: أن تُعِد لي بيتًا مناسبًا في القاهرة، وثالثا: أن يكون وليد الحفناوي شاهدًا على عقد الزواج.

- وإذا رفض وليد؟

- إنه صديقكَ ولن يرفُض لكَ طلبًا.

***

عاد إلى القاهرة، كان ما يزال يفكر في الشرط الغريب الذي وضعته سهام من أجل إتمام زواجها به، إنه مأزقٌ ربما يُفقِده صديقه الوحيد.

ساقته قدماه إلى بيت علياء في التجمع الخامس، الملاذ والمأوى والصدر الحنون، هي الصديقة والخليلة والرأي المستنير عندما يتوقف عقله عن التفكير، وهي كما تُطلِق على نفسها «أربعة في واحد».

رغم أن اللقاء تأخَّر لأكثر من أسبوع، فإنها لم تتذمر، وكانت رائعةً كعادتها معه، خلعَت عنه ملابسه، وسار معها كما ولدته أمُّه إلى الحمام، فجلس على طَرفِ حوض الاستحمام، وأسلَم نفسه إليها كي تُطهِّره من رجس شيطانه الذي يَبطِش بمن يحبونه.

كانت على يقينٍ أنه ذهب إلى أسوان من أجل مُطلَّقة صديقه وليد، إنها الحاسة السادسة للمرأة التي تحب.

سألته بمكر:

- هل وُفِّقتَ في رحلتك إلى أسوان؟

كان السؤال مُباغِتًا، فأغمضَ عينه واسترسَل في التفكير... كيف سيقُص عليها ما حدث بينه وبين سهام من أجل أخذ المشورة؟ لكن سؤالها المباغت أربَك تفكيره، ففتح عينيه وخرجَ من تحت رذاذ المياه المتدفق برفق، وما زالت آثار صابون الاستحمام فوق جسده.

ذهب إلى غرفة النوم حيث خلعَ ملابسه، وعلياء تطلُب منه أن يُتِمَّ شطفَ جسده أولا، في حين كان هو منطلقًا نحو الغرفة دون توقف، دسَّ يده في الجيب الداخلي لسترته، وأخرج منها كيسًا من القطيفة قرمزي اللون، فتحه برفق وأخرج منه الساعة الرادو ووضعها في معصمها، قبَّل يدها، ثم عاد أدراجه إلى الحمام من أجل إزالة آثار الصابون، وخيبة الأمل في نظرة علياء له دلَّت على أنها على عِلم بما حدث بينه وبين سهام.

خلعَت ساعة اليد ووضعتها في الكيس القطيفة، ودخلت إلى المطبخ وهي تتمتم: «حاول الهروب من الإجابة على سؤالي بساعة رادو!».

أخرجت بعض شرائح اللحم من المُبرِّد، فوصوله المفاجِئ أربكَها، كانت تريد أن تُعِد له وليمةً من صنوفٍ مختلفةٍ من الطعام بعد فترة غياب قاربَت على الثلاثة أشهر، فهي تعلم مدى حبه

للطعـام، خاصـةً إذا كان مـن صُنـعِ يديهـا، لأنـه لا يثـق فيـما تقدمـه المطاعـم، وزوجتـه لا تدخـل المطبـخ إلا يـوم الإجـازة والعطـلات الرسـمية.

جـاء مـن خلفهـا وهـي تُقلِّـب اللحـم فـوق «جريـل» الجرانيـت، احتضنهـا وأحـاط خَصرهـا بيديـه، ثـم ألقـى برأسِـه عـلى كتفهـا وقبَّـل عنقهـا، فانتفضَـت وهـي تقـول:

- سوف يحترق اللحم يا وسام اتركني من فضلك!

بعـد العشـاء، جذبهـا مـن يديهـا إلى اتجـاه غرفـة النـوم، فشـدَّت يدهـا بعنـف وهـي تقـول:

- لم تُجِبنـي، مـاذا حـدثَ بينـك وبـين سـهام؟ أعلـم أنـك كنـت عندهـا، لم يخدعنـي حـسي الأنثـوي، تريـد الـزواج منهـا؟ نـوعٌ جديـد مـن النسـاء، امـرأة صعيديـة تمتِلـك أراضٍ شاسـعةٍ وسـيدة أعـمال! لا ألومـك، أعلـمُ مـدى ضعفـك أمـام النسـاء، تعـودتُ منـكَ ذلـك، ولكننـي كنـتُ أظـن بعـد كل هـذه السـنين والعـشرة التـي بيننـا، أنـه عندمـا يكـون لديـكَ فرصـةٌ للاختيـار، فسـوف أكـون أنـا أول اختياراتـك، حتـى ولـو كان ارتباطنـا بعَقـد عُـرفي يُعيـد إليَّ احترامـي لنفـسي، لكنـكَ مـا زلـت أنانيًّـا، تُغفِـل حقـي عليـك، تتعامـل معـي بأننـي ضمـن سـباياك، أو مـما ملكَـت يـداك، لـكَ كل الحقـوق لـديَّ مـن رعايـة وحـب واهتـمام وتفـرُّغ، أمـا أنـا فـلا حقـوق لي لديـكَ إلا السـمعَ والطاعـة، ومـع ذلـك قُـل مـا جئـتَ بسـببه اليـوم، أعرفـكَ جيـدًا.

ضمَّها إليه وترك أنامله تترجَّل بين خصلات شعرها، ثم قال:

- ليـس لـدي مـا أقولـه يـا علياء، كانـت فكـرة مجنونـة وغـير محسـوبة،

كانـت ربمـا تُفقِـدني صديـق العمـر، لقـد طلبَـت منـي كي تُوافِـق عـلى زواجـي بهـا أن يكـون وليـد الحفنـاوي شـاهدًا أولًا عـلى عقـد الـزواج.

ابتسـمت وأعـادت تصفيـف شـعرها مـن جديـد لإزالـة أثـار عـدوان أناملـه عليـه:

- إنهـا امـرأةٌ ماكـرة، تريـد الوقيعـةَ بينـك وبـين صديقـك، تريـد أن تُـذِل وليـد في شـخصك، تريـد أن تخـبره بـأن الشـخص الـذي كان والـده يعتـبره قـدوةً ومثـالًا للتفـوق والـذي دائمًـا مـا كان يقـول لـه: «ليتـكَ مثـل وسـام»، يريـد الارتبـاط بهـا وعـلى اسـتعدادٍ بـأن يُضحِّـي بـه مـن أجلهـا، هـذا مـا تريـده تلـك المـرأة، وربمـا بعـد ذلـك كلـه سـترفُض الارتبـاط بـك، إنهـا امـرأة مريضـة، تريـد الانتقـام مـن كل الرجـال في شـخصِك، أنصحـكَ بالابتعـاد عنهـا حتـى لا تحـترِق بنـيران عائلـة الحفنـاوي.

(29)

جلس وسام في حجرة مكتبه يحاول أن يكتب مقاله الأسبوعي، كان لديه شعور بأنه مُكبَّل بالخوف، وأن كلماته أصبحت تحت المجهر، وعنقه تحت المِقصَلة، إحساسٌ بغيض أن تكون مقهورًا في وطنٍ هاجَ شعبه بثورتين في أقل من ثلاثة أعوام، ولكنها كانت ثورات مُبتسَرة، نتجَت عنها ديمقراطية مشوهة وناقصة النمو، ربما كان أحمد نظيف رئيس الوزراء الأسبق مُحِقًّا عندما قال: «الشعب المصري غير مؤهل للديمقراطية الآن».

نعم، ربما يكون قد أصاب كبِد الحقيقة.. نعم، نحن فشلنا في تحمُّل تبِعات الديمقراطية، أو ربما ميراث عهد الديكتاتورية جعلنا جاهلين بمفردات الديمقراطية وخرجنا من نفقٍ مُظلِم إلى النور بعد ثلاثين عامًا أُصِبنا فيها بالعمى، لقد فجَّرت الثورة أسوأ ما فينا، ضاعَت الأخلاق وفسدت الذمم، وأصبح لدينا حرية الغوغاء، وثقافة بئر السُّلم، وفن «الميكرو باصات»، واقتصاد الاقتراض، شقَقنا قناةً جديدة، وشَق معها الناس قُمصانَهم من شَظَف العيش، ما تمَّ من تَعْبيدٍ للطرق نتج عنه أيضًا تَعْبِيدٌ للناس، بنَينا عاصمةً

جديـدةً بـدلًا مـن أن نبنـيَ البـشر، مـن قامـوا بالثـورة جُهـلاء، ومـن تولَّـوا الحكـم بعـد الثـورة أجهـل منهـم!

كانـت هـذه الأفـكار تقفِـز إلى عقلـه وهـو يحـاول أن يكتـب مقالـه، إلى أن قطـع تفكـيره صـوت تنبيـهٍ أصـدرَه الحاسـوب مُعلِنًـا وصـول رسـالة عـبر «الماسـنجر».

«عزيزي الأستاذ وسام، تحية طيبة وبعد..

أتابـع كل مـا تكتبـه باهتـمامٍ بالـغ، فأنـا قارئـة جيـدة لـكل أعمالـك الروائيـة، وكان لي تعليـق عـلى عنـوان روايتـك الأخـيرة «الصعـود إلى أسـفل»، كيـف يكـون الصعـود إلى أسـفل؟! الصعـود بـه ارتفـاع وعلُـو، وكلمـة أسـفل تعنـي النـزول والانحـدار.

عـلى أي حـال، ليـس هـذا الموضـوع الأسـاسي الـذي مـن أجلـه بعثـتُ إليـك بهـذه الرسـالة، مـا يَعنينـي مقـالٌ قديـمٌ قرأتـه لـكَ بعنـوان «عـلى فـراش طاغية»، لقـد هزَّتنـي كلماتـه ومفرداتـه، وأن الإنسـان الحـر لا يحتمِـل أن يعيـش لحظـةً في حـضرة الطغـاة، للأسـف في بعـض الأحيـان نُجـبَر عـلى أن نُقاسِـم الطغـاة حياتهـم وفراشــهم وأنفاسهم.

كـم منـا مَـن يعيـش مـع طاغيـةٍ مسـتتر؟! والـذي ربمـا لا يعلـم بأنـه طاغيـة، إنهـا معضلـةٌ كـبرى سـيدي، ألا نفهـم أنفسـنا؟! ألا نُـدرِك إذا مـا كانـت تلـك الأشـياء التـي نفعلهـا دون وعـيٍ منـا سـوف تـؤذي مشـاعر مَـن يُشـارِكوننا الحيـاة أم لا؟!

سوف أقصُّ حكايتي، وعليكَ أن تحكُم على زوجي إذا كان طاغيةً أم لا.

أنـا ابنـة سـفير سـابق، زُرت مـع أسرتي أماكـن كثـيرة حـول العـالم بطبيعـة عمـل والـدي في السـلك الدبلومـاسي، وتزوجـت ابـن صديـق والـدي، مهنـدس قـوَى حاصـل عـلى درجـة الدكتـوراه مـن ألمانيـا، تـدرَّج في عملـه إلى أن وصـل إلى رئاسـة مجلـس إدارة إحـدى شركات الغـزل والنسـيج الكـبرى.

بـدأت حكايتـي والتـي تشـبه إلى حـد كبـير حكايـة هيـلاري كلينتـون مـع المتدربـة في البيـت الأبيـض مونيـكا لوينسـكي، فقـد انتـدب زوجـي صديقتـه مـن إحـدى شركات قطـاع الأعـمال لتعمَـل سـكرتيرة لديـه.

كان زوجـي غـير محبـوب، بسـبب تعنيفـه المسـتمر للعاملـين وتوقيـع خصومـاتٍ كبـيرةٍ عليهـم، ففكـر أحـد العـمال في الانتقـام مـن زوجـي، وزرع كاميرا مراقبـة صغـيرة في حجـرة مكتبـه، كانـت مـن النـوع الـذي يُسـجِّل لعـدة سـاعات، ويتـم التحكـم فيهـا عـن بُعـد عـن طريـق الهاتـف المحمـول.

اسـتطاع هـذا العامـل تسـجيل فيديـو مدتـه عـشر دقائـق يجمـع بـين زوجـي وسـكرتيرته الحسـناء في وضـع جنـسي مكتمـل الأركان، ثـم رفـعَ كامـيرا المراقبـة، وأرسـل بعدهـا الفيديـو إلى جميـع العاملـين بالشركـة عـن طريـق تطبيـق الـ«واتـس»، حتـى وصـل الأمـر إلى الوزيـر، والـذي طالَـب زوجـي بتقديـم اسـتقالته حتـى لا يُقدِّمـه إلى المحاكمـة.

هـذه قصتـي دون الدخـول في التفاصيـل، ألا يحـق لي وأن أقـول إننـي نمـت بكامـل إرادتي عـلى فـراش طاغيـة؟!».

(30)

خرجَت هبة الله وهدان - التي تعمل صحفية تحت التدريب في الجريدة التي يترأس مجلس تحريرها وسام- إلى ميدان السيدة زينب من أجل شراء عدة نسخ من العدد الأسبوعي من الجريدة، لأن التقرير التي أعدته عن تجارة الأعضاء في مِصر وأفريقيا كان سيتم نشره، فكانت في غاية السعادة؛ هذه هي المرة الأولى التي يوضَع اسمها مصحوبًا بصورة فوتوغرافية لها على موضوعٍ في الجريدة.

اشترت خمسَ نسخ وعادت إلى منزلها، تصفحت الجريدة سريعًا بحثًا عن التقرير فلم تجِده، ووجدت مكانه تقريرًا آخر عن أحدث صيحات الموضة لموسم الشتاء مصحوبًا ببعض الصور للعارضات بالألوان الطبيعية.

حاولت الاتصال بالجريدة، لكن الوقت كان ما يزال مبكرًا، ترددت كثيرًا قبل أن تتصل بالأستاذ وسام، والذي كان متحمسًا جدًّا لنشر الموضوع، وقد أعطاها رقم هاتفه الخاص كي تكون على اتصالٍ به إذا جدَّ جديدٌ قبل النشر.

استيقظ وسام على صوت رنين الهاتف، وجد أن الرقم ليس

مسـجلًا لديـه، فأغفَـل المكالمـة وحـاول أن يُكمِـل نومـه، إلا أنهـا قـد عـاودت الاتصـال لأكـثر مـن مـرة، فأغلـق الهاتـف تمامًـا وأكمَـل نومـه.

ألقَـت هبـة اللـه بالهاتـف بجوارهـا، وغابَـت في تفكـير عميـق في الأسـباب التـي جعلـت الأسـتاذ وسـام يؤجـل نـشر الموضـوع، رغـم تأكيـده لهـا بأنـه سـوف يتـم نـشره في العـدد الأسـبوعي، وتنويهِـه عنـه بنفسـه في مقـال بعنـوان: «للفسـاد خونـة تحميـه» منـذ ثلاثـة أيـام، وذكـره أنـه سـوف ينـشر تقريـرًا عـن تجـارة المـوت في مِـصر؛ تجـارة الأعضـاء البشريـة، وطلبـه منهـا حينهـا شـهادة المتبرعـين مُوثَّقـةً صوتًـا وصـورة، وكذلـك أسـماء المراكـز الطبيـة التـي تُجـري التحاليـل والفحوصـات للمتبرعـين، وأسـماء الوسـطاء والسـماسرة وأسـماء بعـض شـيوخ سـيناء الذيـن يتوسـطون في نَقـل الأفارِقـة إلى داخـل إسرائيـل عـن طريـق رجـال مـن الموسـاد.

كل هـذا المجهـود ضـاعَ هبـاءً، أو ربمـا اسـتغله في مسـاومة رجـال الأعـمال، وحصَـل منهـم عـلى الملايـين مـن أجـل طَمْـس الحقيقـة، فأخـذت عـلى نفسـها عهـدًا بـأن تنتقـم مـن الجميـع وتفضحهـم.

طبعَـت نسـخةً أخـرى مـن التقريـر وتوجَّهـت بهـا صـوب حـي المهندسـين، وبالتحديـد إلى شـارع الحجـاز حيـث مقـر جريـدة «الـشرق الأوسـط» اللندنيـة.

أمسـك الأسـتاذ سـعد فرحـات بـالأوراق، ومـن حـين إلى آخـر كان ينظـر نحـو هبـة اللـه ، ولسـان حالـه يقـول: «لقـد جُنَّـت هـذه الفتـاة، كيـف لهـا بـكل هـذه المعلومـات القاتلـة؟! وإذا كانـت معلومـات حقيقيـة، فكيـف سـتتحمَّل تَبِعاتهـا؟!».

وبعدما انتهى الأستاذ سعد من القراءة، أغلق الملف ثم قال:

- هل أنتِ متأكدة من هذه المعلومات الخطيرة؟

- نعـم، وعـلى وحدة التخزين هذه المسـتندات التي تؤكد كل ما كتبت.

- إذًا سـوف أُرسِـل كل الموضـوع إلى الأسـتاذ طـارق البنـدري رئيـس التحريـر كي يبـت في الأمـر.

- ربما يرفض نشر الموضوع لحساسيته.

- الأستاذ طارق رجل متحرر ودرس الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية.

- لكـن في النهايـة يحمـل الجنسـية السـعودية، والعلاقـة بين مِصر والسـعودية في أفضـل حالاتها الآن.

- تأكدي أن الأستاذ طارق البندري رجل مواقف.

أثـار نـشر الموضـوع عـلى أربـع صفحـات في جريـدة «الـشرق الأوسـط» ردود فعـلٍ غاضبـةٍ في القاهـرة، وأبلـغ وزيـر الخارجيـة المـصري نظـيره السـعودي قلقـه وغضَـب القيـادة السياسـية مـن نـشر هـذا الموضـوع في جريـدةٍ تتبَـع بشـكلٍ أو بآخـر المملكـة.

وتـم تعنيـف طـارق البنـدري بشـدة مـن سـفير المملكـة بإنجلـترا، وعزلـه مـن رئاسـة التحريـر، وعـاد هـو وأسرتـه إلى الريـاض.

جمـعَ رجـال ثـروت عدنـان أعـداد الجريـدة مـن الأسـواق، وتـم حرقُهـا بالكامـل.

إلا أنه قد وصلَت نسخةٌ من جريدة «الشرق الأوسط» إلى مقر جريدة «الأنباء» مباشرة، لأن لوسام اشتراكٌ سنويٌّ يضمن له الحصول على كل أعداد الجريدة عن طريق البريد بانتظام.

جُنَّ عندما وجد الموضوع منشورًا، وطلب من السكرتارية مثول هبة الله وهدان أمامه في الحال، فأخبرته السكرتيرة أنها جاءت في الصباح وقدَّمت اعتذارًا عن استمرارها في التدريب لديهم في الجريدة.

وبعد مرور أربعة أيام من نشر الموضوع، تعرَّضت هبة الله لحادث سير، صدمتها سيارة دفع رباعي سوداء وهي في طريقها إلى محطة المترو، وماتَت قبل أن تصِل إلى المستشفى.

أبلغَت علياء وسام بالخبر، فثارَ وكاد يَجِن، حاولت تهدئته دون جدوى، أخذ يهذي: «أنا من قتلتُها، ضعفي وقلة حيلتي قتلاها!»، ثم اتصل بعماد العارف وهو يصرخ:

- قتلوها يا عماد، قتلوها، قتلوها!

حاول عماد أن يفهم شيئًا مما يقوله، في حين جلس وسام على المقعد يبكي وعماد يردد:

- ألوه... ألوه... ألوه!

أخذت علياء الهاتف من يده وتحدثت إلى اللواء عماد وشرحت له ما حدث.

بعد نصف ساعة، كان عماد العارف في مقر الجريدة مع وسام الذي أصبح في حالةٍ نفسيةٍ بائسة، وكانت علياء تحاول أن تهدئ من روعه، ربَّت عماد على كتفه قائلًا:

- ليس لكَ ذنبٌ في قتلها يا وسام، ربما يكون الحادث غير مُدبَّر،

لا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها، لو كنتَ أنتَ من نشر الموضوع، ربما كانت إحدى ابنتيك مكانها الآن، أو تكون أنتَ من تم تصفيته، الموج عالٍ جدًّا يا وسام، والمرحلة باهتةٌ ليس لها معالم محددة، الكل يتصيَّد أخطاء الكل، وأجهزة الدولة جمعاء في أيدٍ غير مدربة على إدارة شئون دولة بحجم وموقع مِصر، أخفض هامَتك للريح حتى تمُر.

ضغط وسام على زرٍ بجواره، فأتت السكرتيرة على إثره، وأخبرها أن تبلغ علياء بأن هناك اجتماعًا صغيرًا لنواب رئيس التحرير بعد خمس دقائق من الآن.

تحدث وسام بعد أن هدأ قليلًا:

- سوف أتقدمُ ببلاغ إلى النائب العام ضد ثروت عدنان أتَّهِمه فيه بمحاولة قتل ريانا وقتله لهبة الله وهدان، وسوف أقوم بنشر التقرير مع صورة لهبة الله على نصف صفحة تخليدًا لذكراها، هذا اعتذار صامت عن خوفٍ وجُبنٍ انتابني، وقبل هذا كله، سوف أطلب من السفارة الألمانية في القاهرة -كوني وابنتيَّ نحمل الجنسية الألمانية- أن يُوفِّروا الحماية اللازمة لنا، وعلى ما أعتقد أن القيادة السياسية لا تحتمِل أن تتدخَّل في صراعاتٍ مع الحكومة الألمانية، خاصةً وأن العلاقات المصرية الإيطالية ما زالت متوترة بسبب مقتل المواطن الإيطالي جوليو ريجيني، سوف أشرح لهم أبعاد الموضوع كاملًا، وسوف أُصعِّد الموضوع إلى أقصى حد، سوف ترى يا عماد أن جنسيتي الألمانية سوف تحميني أنا وعائلتي من بطش هذا الوغد.. ثروت عدنان!

***

في الاجتماع، طلب وسام من هيئة التحرير أن يكون مع عدد الغد ملحق خاص عن حياة هبة الله وهدان، وأن يكون العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى هو خبر اغتيال هبة الله على يد أصحاب صناعة تجارة الأعضاء في مِصر، وأن يتم نشر الموضوع كاملًا كما كتبته هبة الله، وتكون ترويسة الجريدة باللون الأسود حدادًا لاغتيالها، وقال لعلياء:

- من فضلك، أرسلي مُحرِّرًا مع مُصوِّرٍ إلى بيت هبة الله، أريد ملفًا كاملًا عنها غدًا.

(31)

اتصل السيد رئيس الوزراء بسكرتارية الرئاسة يريد موعدًا في أسرع وقت للقاء الرئيس في أمر مهم.

وأبلغ رئيس الوزراء القيادة السياسية بأن وزير الخارجية أبلغه رسالة من نظيره الألماني، يطلُب فيها توفير الحماية اللازمة لرعايا يحملون الجنسية الألمانية لأنهم مُعرَّضون إلى التصفية الجسدية عن طريق رجل الأعمال ثروت عدنان، وأنه يُحمِّل الحكومة المصرية كل المسئولية لو حدث لهم أي مكروه.

أعطى رئيس الوزراء للرئيس ملفًّا يحتوي نسخةً من جريدة «الشرق الأوسط» ونسخةً أخرى من جريدة «الأنباء» التي نشر فيها وسام خبر تصفية هبة الله وهدان على يد رجال ثروت عدنان، وكذلك صورة من البلاغ الذي قدَّمه وسام إلى النائب العام يتَّهِم فيه ثروت عدنان بقتلها ومحاولة قتل ابنته ريانا، وأعطاه أيضًا ملفًّا خاصًّا أعدَّه جهاز الأمن الوطني عن ضلوعه في تجارة الأعضاء واتصاله بالمافيا العالمية.

أمر الرئيس بتوفير حراسة خاصة لوسام عبد العزيز وأسرته، ومتابعة التحقيقات التي تجريها النيابة في سرية تامة، وأردف قائلًا:

- نحـن لا نتسـتَّر عـلى فاسِـد مهـما عـلا شـأنه، حمايـة وسـام وأسرته مسـئولية وزيـر الداخلية شـخصيًّا.

ظـل وسـام متقوقعًـا عـلى نفسـه بعـد مـوت هبـة اللـه، فأهمـل عملـه في الجريـدة، وأهمـل معـه علياء أيضًـا، وأصبـح لا يذهـب إليهـما إلا عـلى فـترات متباعـدة، مـما جعلها تشـعر بخيبـة الأمـل، وأنها لا تسـاوي شـيئًا بالنسـبة إليـه، كانـت تظـن أنها مـلاذه الأخـير، وأنـه سـوف يلجـأ إليها في أزمتـه، إلا أنـه لـزِم بيتـه، وأصبـح لا يتصـل بهـا إلا مـن أجـل تسـيير العمـل في الجريـدة.

في تلـك الأثنـاء توطـدت العلاقـة بـين علياء وسـامي المغـازي نائـب رئيـس التحريـر بعـد وقوفهـا بجـواره في مـرض زوجتـه، وتوطـدت أكـثر بعـد وفاتهـا، حيـث ظلـت إلى جـواره تُضمِّـد جراحـه وترعـى ابنتـه القعيـدة إثـر حـادث تصـادم لبـاص المدرسـة.

أرسـل وسـام تفويضًـا إلى سـامي المغـازي يحِـقُّ لـه بـه التوقيع عـلى المعاملات الماليـة والإداريـة إلى حـين عودتـه مـن الإجـازة الإجباريـة التـي فرضَهـا عـلى نفسـه، والتـي تـرك فيهـا لحيتـه تُعربِـد في أرجـاء وجهـه دون تنسـيقٍ مسـبق، وفسـخَ عقـده مـع دار النـشر لعـدم تسـليمه روايتـه الجديـدة في موعدهـا المحـدد والمتفـق عليـه مـن قبـل.

***

طلـب سـامي المغـازي مـن علياء أن تقبَـل دعوتـه عـلى العشـاء لأنـه يريـد أن يتحـدث معهـا في أمـر مهـم.

عـلى كورنيـش الزمالـك في مطعـم «نايـل سـيتي» العائـم، كان سـامي يجلـس عـلى منضـدة تُطِـل عـلى النيـل مبـاشرة، عليهـا مزهريـة بهـا باقـة

مـن الـورد البلـدي، وشـمعدان فـضي بـه زوج مـن الشـموع التـي تُطلِـق رائحـة الياسـمين عنـد إشـعالها، ينتظـر وصـول عليـاء .

قـام مـن مكانـه لاسـتقبالها عنـد البـاب عندمـا لاحـظ دخولهـا، كانـت ترتـدي فسـتانًا أسـودَ طويـلًا وحـذاءً أسـودَ لامعًـا ذا كعـبٍ عـال، وبيدهـا حملـت حقيبـةً صغـيرةً سـوداءَ بهـا بعـض الفصـوص الزجاجيـة الملونـة.

أخـذت مكانهـا عـلى المنضـدة، وتأملـت قائمـة الطعـام، ثـم اختـارت حسـاء الخضـار مـع قطعـة مـن سـمك السـالمون، وطلـب سـامي أيضًـا الطعـام نفسـه، حـاول أن يكونـا متفقـين في أي شيءٍ حتـى ولـو كانـت وجبـة عشـاء.

كان يبـدو عليـه الارتبـاك عـلى غـير عادتـه، كان يتلعثـم في الـكلام، حتـى بادرتـه عليـاء قائلـة:

- ما بك؟! كأنك طفل يحاول إخفاء كارثة!

- فقط أحاول أن أبحث عن بداية.

- ولماذا تبحث عن البدايات؟! هاتِ ما عندَك.

- أريد الزواج بك.

- كل هذا الارتباك بسبب هذا المطلب!

- أعلـم أنـك لا تحبـين الخـوض في هـذا الموضـوع، وأعلـم مـا حـدث لشـقيق مالِـك الجريـدة عندمـا طلـب منـكِ ذلـك.

- الأمر معكَ مختلف يا سامي.

- إذًا سوف تفكرين في الأمر.

- لكنكَ لا تعلم عني شيئًا.

- أريـدكِ كـما أنـتِ هكـذا، لا تهمنـي علبـة المـاضي، اتركيهـا مغلقـة، أو ألقـي بهـا في قـاع النيـل.

- لا، لـن أُغلِـق جرحًـا إلا بعـد تنظيفـه، وإذا قـررتُ أن أبـدأ معـك صفحـةً جديـدةً في حيـاتي، لا بـد وأن تكـون بـلا هوامـش.

- تحدثي، كُلِّي آذانٌ صاغية.

- كنتُ مرتبطةً بعلاقة زواجٍ عُرفي، لا تطلب مني أن أُفصِح عن اسمه.

- هذا كل ما لديك.

- نعم.

- وأنا لا يعنيني إلا هذه اللحظة.

- إذًا أمهلني وقتًا للتفكير.

- أُمهِلك أسبوعًا، أيكفي؟

- نعم، هل تأذن لي بالانصراف؟

- مع السلامة.

(32)

بعـد عـدة جلسـاتٍ لوسـام مـع صديقـه اللـواء عـماد العـارف، عـاد إلى طبيعتـه، حلَـق لحيتـه، وقـرر الذهـاب إلى الجريـدة.

اتصـل بعليـاء وهـو في الطريـق، وطلـب منهـا أن تُعِـد اجتماعًـا عاجـلًا لمجلس التحريـر، وقال:

- سوف أصِل بعد قليل، ما لي أسمَع أصوات زغاريد بجوارك؟

- لا عليك، سوف أخبركَ عن السبب عندما تأتي.

وبعد انتهاء مجلس التحرير، طلب وسام من علياء أن تبقى ثم قال:

- أجدكِ اليوم غريبةَ الأطوار!

- دوامُ الحال من المحال أستاذ وسام.

- أستاذ وسام!

- نعم، أنتَ مديري ورئيس التحرير.

- ما بكِ يا علياء؟

- تقدَّم سامي المغازي للزواج بي، وأنا لبَّيتُ طلبه.

- وأنا أمنعُك!

- بأي صفة؟!

- بصـ... ـفتي... أكثر من صديق.

- وأنا لا أريد أكثر من زوجٍ واستقرار.

- أنا لا أتصور حياتي دونك!

- أنت أناني.

- ربما! ولكن أحبك.

- أنتَ لا تحب إلا نفسَك، هل تتذكر كيف تم القبض على جيفارا؟

- نعم، عندما وشَى به راعي أغنام.

- وهل تتذكر لماذا وشى به رغم أنه كان يُدافِع عنه وعن حقوقه؟

- نعم، لأن حروب جيفارا مع الجنود كانت تُروِّع أغنامه.

- وأنا أيضًا، تخليت عنكَ لأن حروبي معك طوال ثلاثين عامًا قد روَّعَت كل حياتي، منعتني عن متع الحياة، أن أكون أمًا أو زوجةً أو حتى خليلةً محترمة.

- لم تعترضي يومًا على طبيعة العلاقة بيننا!

- كنتُ أنتظر أن تُكرِمني أنت، لكن بعد أن طلبتَ الزواج من سهام الحفناوي، شعرتُ بغصةٍ في قلبي، لقد حاربتُ العالم كله من أجلك، ولكنني تذكرت مقولتكَ عندما طلبتُ منكَ أن تنزل معنا إلى ميدان التحرير، فوقتها قلت ما ردده محمد رشيد : «الثائر

مـن أجـل مجتمـعٍ جاهـل، شـخصٌ أضرمَ النـيران في جسـده كي يُـضيء الطريـقَ لشـخصٍ ضريـر»، وأنـتَ ضريـر المشـاعر وضريـر القلـب، سـوف أتـزوج يـا وسـام.

- سـوف أمنعـكِ بالقـوة، وأنـا عـلى أتـمِّ اسـتعدادٍ لأن أتزوَّجـكِ الآن، وسـأُعلِن ذلـك أمـام الجميـع.

- لا داعي للقرارات العنترية ثم تندَم بعدها.

- الندم الحقيقي لو ضعتِ من بين يدي.

- أأنتَ واعٍ لما تقول؟! سوف تتزوجني!

- نعم، والآن.

- إذن نذهـب إلى سـعيد الطوخـي المحامـي، ونُحـرِّر عقـدًا عُرفيًّا مـن صـورةٍ واحـدةٍ سـتظلُّ عنـدي أنـا، لا أريـد أن أسـبب لـكَ أي مشـاكل مـع ناديـن، ولا أرغـب في أن أفقـد ابنـة خالتـي، ويبقـى شيءٌ آخـر، سـامي المغـازي، لا بـد وأن أشرحَ لـه مـا حـدث.

- اتركي هذا الأمر لي، سوف أجعله الشاهد الأول على عقد زواجنا.

(33)

كانت التقارير التي جمعتها الأجهزة الأمنية والرقابية تؤكد ما نشرته جريدتي «الشرق الأوسط» و«الأنباء» عن ضلوع ثروت عدنان وبعض رجال الأعمال -الذين يمتلكون مراكز طبية كبيرة- في تجارة الأعضاء في مِصر وبعض الدول الأفريقية بالتعاون مع أجهزة مخابراتٍ أجنبية.

أثبتَت التحقيقات وشهادة الأشخاص الذين كانوا موجودين في مكان الحادث أن السيارة التي دعسَت هبة الله وهدان كانت تنتظِر على جانب الطريق، وعندما عبرت الطريق، تحركَت السيارة وصدمتها وفرت مسرعة، وأكد الشهود أن السيارة كانت دون لوحاتٍ معدنية، مما يؤكد شبهة التعمُّد والإصرار في حادثة القتل.

اطَّلعَت القيادة السياسية على الملف، وأعطَت أوامرها بالقبض على جميع الأشخاص الواردة أسماؤهم في محاضر التحقيق، دون النظر في المراكز التي يشغلونها، ودون طلب رَفع الحصانة عنهم حتى لا يتمكنوا من الهروب خارج البلاد.

سرَّب أحد كبار العاملين في جهاز أمني رقابي تلك المعلومة إلى ثروت عدنان نظير خمسة ملايين دولار.

استقلَّ ثروت عدنان وعائلته طائرته الخاصة، وتمَّ وضع الحقائب في بطنها، كان بعضها يحتوي على مجوهراتٍ وسبائك ذهب، والبعض الآخر كان يحتوي على ملايين من العملات الأجنبية، أمر ثروت قائد الطائرة بالتوجه إلى الأردن.

اتصل ثروت بشريكه الأردني في مصنع الأدوية الذي تمَّ بناؤه في مدينة السادس من أكتوبر، وأخبره عن نيَّته في بيع حصته في المصنع له أو لأي شريكٍ آخر، وكذلك بيع المركز الطبي بجميع الأصول الملحقة به، لأنه يمر بظروف صعبةٍ مع الحكومة المصرية في الآونة الأخيرة، ويُريد تصفيةَ جميع أعماله في مِصر.

وبعدها أبرم عقود البيع مع مستثمرين من الأردن والإمارات العربية، وتم توثيق العقود عن طريق سيد البهنسي المحامي زوج شقيقته بموجب توكيلٍ خاصٍّ بالبيع.

سافر بعدها وعائلته إلى جزر البهاما، حيث يمتلك قصرًا هناك أمام مرسَى السفن، ولديه عدة مشاريع استثمارية في مجال السياحة والفنادق.

أصدر النائب العام قرارًا بمنع ثروت عدنان وعائلته من السفر وعدم التصرف في أموالهم، لكن قد سبقَ السيف العزَل، لقد باع كل ممتلكاتِه إلى مستثمرين عرب وغادر البلاد بالفعل، وتمَّ القبض على «دود الأرض»؛ عدد من صغار رجال الأعمال والأطباء والسماسرة، أما «السمك الكبير» فقد وصلَته المعلومة أيضًا نظير مبالغ مالية متفاوتة، وكل برغوثٍ على قدرِ دمه!

ضـاع دم هبـة اللـه وهـدان هبـاءً وتفـرَّق مـا بـين قبائـل الفسـاد المـالي والإداري، شـعر بعدهـا وسـام بغصـةٍ في قلبـه، وأصبـح لديـه يقـينٌ أن للفسـاد حاشـيةٌ وحـراس، وأنـه مثـل «دود المـش»، منـه فيـه، يتكاثـر مثـل الأميبـا تكاثـرًا ثنائيًّـا بسرعـةٍ رهيبـة.

عـاد إلى فيلتـه مثقـلًا بالهمـوم، واجـترَّ شريـط الذكريـات، عزبـة «الصالحـي»، وجدتـه التركيـة، وجـده العمـدة، والخـدم والخُفَـراء، وأيـام الجامعـة،... تذكـر هذا كلـه وهـو جالـس أمـام جهـاز الحاسـوب مـن أجـل أن يتفقـد آخـر الأخبـار، ويـرد عـلى بريـده الإلكـتروني، حتـى وجـد رسـالةً عـلى «الماسـنجر» مـن سـيدة تُدعَـى فاطمـة أبـو كازان مـن بـيروت، لبنـان.

«عزيزي الأستاذ وسام..

اطلعـتُ بالأمـس عـبر الموقـع الإلكـتروني عـلى مقالـك البديـع «عـلى فـراش طاغيـة»، فتأثـرتُ بـه كثـيرًا لأنـه يمـس جـزءًا مـن حيـاتي.

أعلـم أن المـرأة بطبيعتهـا في حاجـةٍ إلى الرجـل بشـكلٍ أو بآخـر، لهـذا فمِـن الطبيعـي أن يحكمهـا الرجـل، وهـذا يـسري في الحيـاة بوجـهٍ عـامٍّ بـين أي ذكـر وأي أنثـى، مـن أي فصيلـة ومـن أي نـوع، بعيـدًا عـن القِوامـة والدخـول في متاهـات الديـن والتفسـير.

وإذا كان جـون لـوك في كتابـه «الحكـم المـدني» قـد قـال: «ليـس للطغيـان صـورة واحـدة»، فأنـا أيضًـا أُحِـب أن أؤكـد ذلـك.

حيـاتي مـع زوجـي تتشـابه كثـيرًا مـع حيـاة راشـيل زوجـة موسـوليني، كان خطـأ موسـوليني هـو تحالفـه مـع هتلـر، لكـن خطـأ زوجـي هـو ميولـه إلى السـلفيين وتعاطفـه معهـم، موسـوليني بـدا أمـام شاشـات

التلفاز بأنه رجل حنون، وإن زوجي هو أيضًا يبدو خارج البيت حنونًا عطوفًا ومتعاونًا، لكنه في البيت يكون عكسَ ذلك تمامًا، عنيفًا ماكرًا وعديمَ الرحمة.

موسوليني قد اشتهر بتعدُّد علاقاته النسائية واستغلاله لها من أجل الحصول على مكاسب شخصية، فبعد طردِه من جريد الحزب الاشتراكي ومن صحيفة «أفانتي»، تعرَّف على إيرين داسل، كانت تكبُره بثلاث سنوات، وتمتلك صالونَ تزيينٍ نسائي، وقد اضطرت إلى بيع الصالون من أجل مساعدته في تأسيس صحيفته الخاصة «شعب إيطاليا»، ثم حملَت منه بطفلٍ غير شرعي، وأدارَ لها ظهره عندما وصَل إلى السلطة، بل حدَّد إقامتها خشية أن تُثير مزيدًا من الجلبة ضده، ثم بعد ذلك اعتقلَها وألقَى بها في مصحَّةٍ عقلية.

زوجي هو أيضًا متعدد العلاقات النسائية، وقد سبَّب ذلك خلافاتٍ كثيرةٍ بيني وبينه، يُؤمِن أن العنفَ هو السبيل الوحيد لتحقيق التغيير، رغم أنه يحب الفلسفة وعلم الاجتماع.

قصته تشبه كثيرًا قصة موسوليني؛ كان في مُقتبَل حياته مراسلًا صحفيًّا لإحدى الصحف الحزبية في إحدى دول أوروبا الشرقية، وذلك أثناء فترة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وبعد إفلاس الصحيفة، تخلَّت عن كثير من المراسلين، وكان زوجي من بينهم، وتعرَّف حينها على سيدة عجوز تكبره بخمسة وعشرين عامًا وتمتلكُ مطعمًا كبيرًا وسط العاصمة الرومانية بوخارست، وأوهمَها بحبه وشملَها بعطفه المصطنع والمزيف، فساعدته في تأسيس أستوديو خاص للتسجيل والمونتاج.

بـدأ في إعـداد بعـض التقاريـر الصحفيـة الخاصـة وإرسـالها إلى أكـثر مـن قنـاة عربيـة، حتـى ذاع صيتـه هنـاك وأصبـح محـطَّ أنظـار أكـثر مـن قنـاة تليفزيونيـة، وعندمـا أفلسَـت السـيدة العجـوز بسـبب ديـون البنـوك التـي أخذتهـا مـن أجـل مسـاعدته، وباعَـت المطعـم وتـم رهـن منزلهـا نظـير سـداد الديـن، إلا أنـه مـا كان منـه سـوى أن تخـلَّى عنهـا، وصفَّـى أعمالـه هنـاك، وتـرك السـيدة العجـوز تمـوت كمـدًا.

ألا يجوز أن أُطلِق على زوجي لقبَ طاغية؟!

بعـد أن قصَّـت لي زوجـة القنصـل المـصري هنـاك في ذلـك التوقيـت عـن هـذا التـصرُّف البشِـع الـذي فعلـه زوجـي، تأكـدتُ أننـي أنـا أيضًـا قـد نمـتُ عـلى فـراش طاغيـة».

دخـل عـلى بريدهـا الإلكـتروني في «الماسـنجر» كي يكتُـب لهـا تعقيبَـه عـما قـرأه، لكنـه وجـد أن هـذا الحسـاب قـد أُغلِـق.

لم يعبـأ بالأمـر كثـيرًا، وتنـاول كتـاب لـورد بايـرون «دون جـوان»، وهـو عبـارةٌ عـن نصـوص شـعرية تُكـوِّن ملحمـةً سـاخرة، وذلـك بعـد أن انتهَـى مـن قصيدتـه الطويلـة «أسـفار تشـايلد هارولـد»، فهـو يريـد عمـل دراسـة نقديـة عـن أعمالـه.

وأثنـاء قراءتـه، كان يضـع بعـض الجُمَـل التـي يتأثـر بهـا في ورقـةٍ خارجيـة: «مَـن يحصُـل عـلى السـعادة عليـه أن يُـشرِك آخريـنَ فيهـا، فالسـعادة وُلِـدت توأمًـا»، «يشـقُّ الحـب طريقـه مـن سـبُلٍ تخـاف الذئـاب الصيـد فيهـا»، «الشـدة أول سُـبل الحقيقـة»، وعنـد هـذه العبـارة الأخـيرة تذكَّـر مأسـاته، فأغلـقَ الكتـاب ونـامَ في حجـرة مكتبـه بكامِـل ملابسـه.

(34)

وضعت أجهزة الأمن وسام تحت المراقبة الدائمة بالإضافة إلى الحراسة المشددة عليه وعلى أسرته، وأثناء المراقبة، لاحظ رجال المخابرات العامة أن هناك ثلاثة أشخاص -يبدو من ملامحهم أنهم أجانب- يُراقِبون وسام بشكلٍ لصيق، فتم تصويرهم وإرسال الصور إلى الأرشيف في جهاز المخابرات.

في بداية الأمر، شكَّ رجال المخابرات أنه ربما هؤلاء الرجال يتبعون المخابرات الألمانية، وقد جاءوا من أجل تأمينه، لكن بعد عرض الصور، تعرَّف العميد أحمد الشنيطي على أحدهم، إنه ضابط الموساد إيتان دافيد، من وحدة «كيدون» الخاصة بالاغتيالات!

أبلغت المخابرات المصرية نظيرتها الألمانية إلى ما توصَّلت إليه من معلومات، حتى تكون الصورة واضحةً أمامهم إذا جدَّ جديد.

رغب وسام في أن يُكافئ علياء بعد زواجهما، فحجزَ أسبوعًا في تركيا، كادت تطير من وَجْد السعادة، للمرة الأولى تشعر بأنه يحبها ويقدرها، ويعمل شيئًا من أجلها، وكانت المشكلة التي واجهتها هي بماذا ستبرر سفرها أو غيابها في ظل غياب وسام أيضًا، فقد

كانت تخشَى أن تتصل بها نادين وتعلَم أنها خارج مِصر في الوقت نفسه الذي سافر فيه زوجها.

في الصباح، ذهب وسام إلى شركة المحمول وطلب منهم إضافة خدمة التجوال خارج القُطر على هاتف علياء، حتى إذا اتصل بها أحدٌ تبدو له متاحةً وكأنها داخل مِصر.

أخبر رجال المخابرات في المطار العميد أحمد الشنيطي أن وسام سافرَ مع علياء عودة مديرة مكتبه إلى تركيا مع فوجٍ سياحيٍّ تابع لشركة «النجمة الذهبية» للسياحة ولمدة أسبوع.

على الفور أرسل العميد أحمد برقيةً إلى رجل المخابرات العامة المصرية بالسفارة المصرية في إسطنبول، من أجل تأمين وسام خشية أن يكون جهاز الموساد ما زال يتَتبَّعه.

اختفى رجال المخابرات الإسرائيلية تمامًا، فقد تسللوا عبر الحدود المصرية الإسرائيلية عندما شعروا بأن المخابرات العامة المصرية تتبَّع خطواتهم، كانت ضربة قاسِمةً للمخابرات، فقد ضاعَ من بين أيديهم صيدٌ ثمين.

تولى ضابط المخابرات المصرية في إسطنبول إبراهيم عطية تأمين وسام عن بُعد، وذلك حسب التعليمات الواردة من القاهرة.

ذهب وسام وعلياء مع أفرادِ الفوج السياحي في زيارةٍ لمنطقة «السلطان أحمد»، والتي تحتوي على الكثير من المعالم التاريخية من جوامع وكنائس ومتاحف.

بعدها استعدَّ الجميع لركوب الحافلة من أجل الذهاب إلى جزيرة الأميرات في بحر مَرمَرة.

اقـتربَ شـابٌّ وفتـاةٌ منهـما، وبـدا مـن ملامِحهـما أنهـما مـن إحـدى الـدول الإسـكندنافية، مالَـت الفتـاة بطريقـةٍ مُلفِتـةٍ تجـاه وسـام، ثـم هـمَّا بالانـصراف مسرعَـين، مـما أدى إلى شـكٍّ إبراهيـم عطيـة في الأمـر، لكنـه لاحَـظ ركـوب وسـام الحافلـة بشـكلٍ طبيعـي.

ركـب إبراهيـم معهـما في السـفينة نفسـها التـي سـوف تُقِلهـم إلى جزيـرة الأمـيرات، شـعرَ وسـام بدوخـةٍ بسـيطةٍ سـقطَ عـلى إثرهـا عـلى أرض السـفينة، فـأتى الطبيـب عـلى الفـور فوجَـده قـد دخـل في غيبوبـة، وعـلى الفـور أرسـل إبراهيـم رسـالةً إلى القاهـرة يُخبِرهـم فيهـا بمـا حـدث.

فطِـن العميـد أحمـد الشـنيطي إلى أن وسـام قـد تـم اغتيالـه بالطريقـة نفسـها التـي تمَّـت مـن قبـل لاغتيـال خالـد مشـعل في العاصمـة الأردنيـة عـمان، وقـد كان ذلـك بحقنِـه بإبـرةٍ خفيفـةٍ مثـل التـي تسـتخدم للأطفـال، حيـث كان بهـا سُـم تـم تصنيعـه في معمـل «تيتسـيونا» التابـع للموسـاد مبـاشرة.

تـم إبـلاغ السـفارة الألمانيـة في القاهـرة بمـا حـدث، فبـدأ التحـرك عـلى أعـلى المسـتويات في كل مـن القاهـرة وبرلـين مـع الخارجيـة الإسرائيليـة مـن أجـل إحضـار الترياق الخـاص بهـذا السـم قبـل أن يصـل وسـام إلى حالـة الوفـاة.

في بدايـة الأمـر، حاولـت الخارجيـة الإسرائيليـة التملُّـص مـن الموضـوع برُمَّتـه، إلا أن المستشـارة الألمانيـة اتصلَـت مبـاشرةً برئيـس الـوزراء الإسرائيـلي وهدَّدتـه بحـدوث أزمـةٍ كبـيرةٍ ربمـا لـن تنجـوا منهـا إسرائيـل إذا لم يتـم تـدارُك الموقـف حـالًا وإحضـار الترياق الخـاصِّ بالسـم.

بعـد دقائـق، وصـل وفـد مـن السـفارة الإسرائيليـة ومعهـم طبيـبٌ إلى المستشـفى الأمريـكي في إسـطنبول يحمِلـون الترياق الخـاص بالسـم، وتـمَّ حقنـه بـه، وبعـد نصـف سـاعةٍ عـاد إلى وعيـه.

ثـم تـمَّ نقلهـما إلى مقـر السـفارة المصريـة تحـت حراسـةٍ مشـددةٍ إلى حـين اسـترداد عافيتـه والرجـوع إلى القاهـرة.

كانـت المخابـرات الإسرائيليـة ترصُـد وسـام منـذ توقيـع اتفاقيـة «كامـب ديفيـد» بـين مِـصر وإسرائيـل، حيـث تبنَّـى جنـاح المعارضـة في نقابـة الصحفيـين، وطالـبَ بالثـأر مـن الإسرائيليـين الذيـن قتلـوا أطفالنـا في مدرسـة «بحـر البقـر» وعُمالنـا في مصنـع «أبـو زعبـل» وجنودنـا عـن طريـق السـفاح بنيامـين بـن إليعـازر، والـذي كان يـترأَّس وحـدة «شـكيد» التـي دفنَـت أكـثر مـن مئتـي وخمسـين مُجَنـدًا مصريًّـا بعـد ذبحهِـم ودفـن بعضهـم أحيـاء.

تحـرَّك الملـف الخـاص باغتيـال وسـام عبـد العزيـز مـن جديـد بعـد القضيـة التـي أقامهـا في بولنـدا ضـد زوجتـه راشـيل والتفـاف الـرأي العـام البولنـدي حوله، خاصـةً الأحـزاب التـي لهـا موقـفٌ مـن احتـلال أراضي الغـير بالقـوة وإظهـار الكيـان الإسرائيـلي بوجـهٍ قبيـح، وذلـك بعـد أن حكَـم القـاضي البولنـدي لصالحـه.

(35)

كان خبر محاولة اغتيال وسام عبد العزيز متصدرًا لجميع الصحف المصرية والعربية، بعد أن تمَّ تسريبه عن طريق أحد المصريين الذي يحمل الجنسية الأمريكية ويعمل طبيبًا مُقيمًا في المستشفى الأمريكي في إسطنبول، رغم محاولة إدارة المستشفى التستُّر على الخبر بأوامر عليا، حيث إن الحكومة التركية كانت طرفًا في المحادثات مع السفارة الإسرائيلية في إسطنبول من أجل إنهاء الأزمة، خاصةً أنها تمت على أراضٍ تركية.

تم الاتفاق على عدم إفشاءِ ما حدث، حتى لا تَفضح الصحافة والإعلام في العالم المتحضر والمناهض للاحتلال الإسرائيلي السلوكَ الهمجيَّ الذي تتَّبِعه إسرائيل في تصفية المعارضين لسياستها حول العالم.

***

أشارت الأنباء إلى تعرُّض الصحافي والروائي وسام عبد العزيز أثناء وجوده في إسطنبول مع زوجته لمحاولة اغتيالٍ من جانب الموساد الإسرائيلي، وقد نجا منها بعدما تدخَّل رؤساء الدول والحكومات من أجل إحضار الترياق الخاص بالسم الذي تم حقنُه به، شاهدت

نادين الخبرَ في قناة «الجزيرة» في فيلمٍ صغيرٍ لا يتعدَّى بضعَ ثوان، وأثناء إذاعة الخبر ظهر وسام وبجواره علياء عودة.

كانت نادين دائمًا ما تشكُّ بوجود علاقةٍ بشكل أو بآخر بينهما، فلم تُصدَم كثيرًا عندما رأتهُما معًا في التلفاز، وقررت عدم تصعيد الأمور، خاصةً وأن العلاقة الزوجية بينهما تكاد تكون متوقِّفةً منذ أكثر من عشر سنوات، وكل منهما ينامُ في حجرةٍ منفصلة، لكنها في الوقت نفسه كانت مُشفِقة على علياء التي أخفَت حبها لوسام طوال هذه السنين، وتم كشف السرِّ للجميع في ظروفٍ أقلُّ ما يُقال عنها، أنها كارثية، وكانت تعلم أنها الآن قلقةٌ ومتوترةٌ وتبحث عن ألف حكاية وحكاية تبرر بها وجودها، وأعذار كلها سوف تكون أقبحَ من كل الذنوب.

حدثت نادين ذاتها قائلة:

- لو تعلمين يا علياء قدر سعادتي، الآن فقط سوف يُشارِكني أحدٌ في خيبة أملي في وسام، سوف أقولها لكِ عند أول لقاء: «مَن أخذَته القَرعاء سوف تأخُذه أم الشُّعور»، لا أمل في وسام! لقد تغاضيتُ عن كثيرٍ من هفواته في بداية زواجنا، لكنه لم يرتدِع، بل ظلَّ كما هو تُحرِّكه نزواته، وتتحكم فيه عواطفه التي تفيض على جميع النساء، فقط وخارج حدود غرفة نومنا.

ثم أغلقَت التلفاز، وبكت حتى غالبها النعاس.

***

عرِف وسام من ريحانا أن والدتها قد علِمت بالعلاقة التي تجمعه بخالتها علياء، حاول أن يُبرِّر موقفه، إلا أن ريحانا صدَّته قائلة:

- مهـما كانـت الأعـذار، فهـي بالنسـبة لي واهيـة، مـن فضلِـك يـا والـدي، حـاول أن تبتعـد قليـلًا حتـى تهـدأ والـدتي.

كانـت عليـاء في حالـةٍ نفسـيةٍ قاسـية، لا تعـرف كيـف سـتواجه نادين، أو مـاذا سـتقول لـكل مـن ريانـا وريحانـا اللتين تُعامِلانهـا بـود وحـب وثقـة، وكيـف سـتصد هجـوم أفـراد عائلـة والدتهـا، خاصـةً وأن العلاقـة بينهـا وبينهـم في توتـرٍ دائـمٍ وازداد بعـد وفـاة والدتهـا بسـبب الإرث.

- إذًا هي الحرب !

هكذا حدثَت علياء نفسها، وأضافت:

- لا بـد وأن تخوضيهـا حتـى النهايـة، لـن يفيـدكِ الانكسـار هـذه المـرة، ثـوب الرضـا الوهمـي الآن لا يليـق بـك، سـتون عامًـا وأنـتِ تُهيِّئـين الحيـاة لغـيركِ كي يهنَـأ، حانَـت فرصتـكِ الآن، اغتنميهـا، لا تُفرِّطـي فيهـا، لقـد أهديـتِ نادين مـن قَبـل حبيبـكِ عـلى طبـقٍ مـن ذهـب، رغـم أنـكِ كنـتِ الأولى بـه منهـا، لا تجعـلي العواطـف وصلـة الـدم تؤثـر في قراراتـك، لقـد فـازت بـه لمـدة ثلاثـين عامًـا، أصبحَـت فيهـم زوجـة كاتـبٍ مرمـوق وأُمًـا لبنتـين، وصـار لهـا شـكلٌ اجتماعـيٌّ لائـق، ولديهـا فيـلا وسـيارة آخـر موديـل.. ألم يحِـق لي أن أنعَـم مـا تبقَّـى لي مـن عمـر، بحُـب وسـام، بنظـرة احـترامٍ ذاتيـة، بـأن أجلـس معـه في شرفـة منـزلي نتنـاول معًـا القهـوة في أي وقـت، دون الخـوف مـن نظـرات الجـيران.. نعـم، إنهـا الحـرب مـن أجـل الحيـاة.

***

قـرَّر وسـام أن يُقيـم في أحـد فنـادق القاهـرة التـي تُطِـل عـلى النيـل مبـاشرة حتـى تهـدأ الأمـور ويتَّخِـذ قـرارًا في حياتـه، ووسـط اسـتغراقه في التفكـير قفـزَت إلى عقلـه روكسـانا.. نعـم، روكسـانا هـي الحـل، ضحـك بصـوتٍ مسـموعٍ وتذكَّـر شـعار الإخـوان المسـلمين في الانتخابـات «الإسـلام هـو الحـل»! يـا لهـا مـن مفارقـةٍ عجيبـة! بعـد أن كانـت عليـاء هـي مـلاذه الأخـير، والتـي كان يلجـأ إليهـا في كل أزماتـه، الآن وبعـد أن تزوجَهـا أصبحـت هـي أيضًـا جـزءًا مـن الأزمـات! فعـزم عـلى شـد الرِّحـال إلى رومانيـا.

أمسـك بهاتفـه المحمـول يريـد أن يتصـل بعليـاء لتحجـز تذكـرة سـفرٍ لـه عـلى أول طائـرة متجهـة إلى بوخارسـت، فتذكـر أنهـا الآن أصبحـت زوجتـه، وسـوف تسـأله.. لمـاذا؟ وكيـف؟ ومتـى؟ فاتصَـل بمديـر شركـة مِـصر للطـيران في مطـار القاهـرة كي يتـولى هـو الأمـر.

(36)

كان صلاح عجور شريك وسام السابق في شركة السياحة وصديق طفولته في استقباله في مطار هنري كواندا في بوخارست، فقد نقل نشاطه إلى رومانيا بعد دخولها الاتحاد الأوروبي، حيث تعد من الأسواق الواعدة، وبها أعلى معدل نمو في أوروبا كلها.

سعادة صلاح كانت لا توصف بعد أن قابل صديق عمره، فإن وسام وأهله أصحابُ فضلٍ عليه، فهو ينحدر من عائلة فقيرة، والده كان يعمل خفيرًا في بيت جد وسام، والذي كان يتولى منصب العمدة في ذلك الوقت، والده رفضَ تعليمه لضيق ذات اليد، فأخرجه من المدرسة بعد أن أنهى المرحلة الابتدائية، وعندما علِم والد وسام بذلك، قرَّر أن يتولى هو الإنفاق عليه تمامًا، وتوفير كل الظروف المناسبة حتى ينتهي من الدراسة الجامعية.

كان يعيش معهم في الدوَّار كفردٍ من العائلة، لم يشعر يومًا بأي فرق بينه وبين وسام الذي كان يكبره بعامٍ واحد، تفوق في الثانوية العامة واستطاع أن يدخل كلية الهندسة، فكان من أوائل دفعته كل عام، لكن لسوء حظه، كان معه طالبان من أبناء أعضاء هيئة

التدريس في الكلية، فتم تعيينهما معيدَين في قسم هندسة القوى، وحين تقدم بشكوى إلى إدارة الجامعة قوبِل طلبه بالرفض.

لم ييأس، وراسَل عددًا كبيرًا من كُبريات الجامعات في العالم، ووافقت جامعة ميونخ التقنية على طلبِه، فسافر وحصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الميكانيكية، وعمل استشاريًّا في أحد مصانع السيارات الكبرى هناك، وتزوج ابنة إمبراطور السياحة في ألمانيا ألكسندر بيتر، ثم ترك العمل في المصنع وتولى إدارة شركات السياحة مع صِهره.

حاول وسام الذهاب إلى الفندق، إلا أن صلاح عنفه بشدة قائلًا:

- كيف يكون لأخيك قصرٌ في بوخارست وتُقيم في فندق؟! لم أقُل شيئًا لروكسانا كما طلبتَ مني، ولكنها ستحضر في المساء على العشاء، ستكون مفاجأة سارَّة لها، لم تمَل الحديث عنكَ كلما التقينا، وحتى الآن ترفض الارتباط بأي شخص، وكلما سألتُها تتهرَّب من الإجابة رغم أنني أعرفها جيدًا، هذه الفتاه عندها وفاءٌ لكَ ولحُبك لم أرَه من قبل في امرأة!

كان لقاءً رائعًا طالما انتظرته روكسانا دون أمل، حتى أتى على طبق المفاجآت الذهبي، عنَّفت صلاح كثيرًا لأنه لم يخبرها بموعد وصول وسام، لأن الدقائق معه فارقة، فاعتذر صلاح مُبرِّرًا موقفه بأن ما تم كان بناءً على طلبٍ من وسام نفسه، اقتربت منه وأشبعَته ضربًا رقيقًا مثلها، ثم ارتمت بين أحضانه تُقبِّل كل سنتيمترٍ في استطاعتها الوصول إليه.

غفـى وسـام قليـلًا بـين أحضانهـا، وحـين أفـاق وجدهـا تنظـر إليـه بحنـانٍ وعطـف، قبَّلهـا في عينيهـا، ثـم أمسـكَ كـفَّ يدهـا وأشـبعه تقبيـلًا ودار بـه حـول محيـط وجهـه عـدة مـرات، ثـم قـال:

- حاولـتُ كثـيرًا أن أضـعَ تصنيفًـا للعلاقـة التـي تربطنـي بـك، أعلـمُ مـدى أهميتهـا بالنسـبة إلي، وربمـا تكـون علاقـةً مصيريـة، أذهـب وأغيـب بالشـهور، وعندمـا أعـود أجـدكِ كـما أنـت، الإحسـاس والـدفء نفسـيهما، الاهتـمام نفسـه، الحـب نفسـه، وكأننـي كنـتُ معـكِ بالأمـس، لم تتذمَّـري يومًـا: «لمَ ذهَبـت؟ ومـا الـذي أتى بـك؟»، مسـاحة هـذا الـبراح مـن الحريـة الـذي توفريـه، ربمـا يكـون مُريحًـا جـدًّا لي، لكنـه بالتأكيـد مُقلِـق لـك، كل امـرأةٍ تنشُـد الاسـتقرار، وأنـتِ ترضـين بفتـاتِ الفتـات الـذي يتبقَّـى منـي، أعلـمُ مـدى الحـب الـذي تُكنِّينَـه وقـدر الإخـلاص والوفـاء لي، رغـم أننـي لم أطلُـب منـكِ ذلـك أبـدًا، أو بمعنـى أدق، ليـس مـن حقـي أن أطلـب ذلـك، تعـوَّدتُ ألا أكـون أنانيًـا.

قالت:

- أولًا، قُلـت لـكَ مـن قبـل عندمـا طلبـتَ منـي أن نتـزوج، إننـي لا أريـدُ أن أضَـع هـذا الحـب في قالـب حيـاتي واجتماعـي جـاف، ارتباطـات والتزامـات وأولاد وخـلاف عـلى وجهـات النظـر عـلى أشـياء في معظـم الأوقـات تافهـة، وقلـت لـكَ أنـتَ حـرٌّ طليـق، وهـذا أيـكُك، كلـما عـدت إليـه وجدتنـي، وإذا تبـدَّل شـعوري يومًـا نحـوك فسـوف أخـبرك.. لقـد انتشَـلتني مـن سـقوطٍ كاد يعصـف بي وبحيـاتي كلهـا، أعـدت إليَّ ثقتـي بنفـسي وعاملتنـي كأنثـى، بـل كأمـيرة، لم أرَ منـك إلا

كل جميـل، تعلَـم جيـدًا بأننـي قبلـكَ مللـتُ كل الرجـال، وكنـت أخـشى حتـى مصافحَتهـم، أمـا بعـدك فقـد زادت قناعتـي في أن أمَـلَّ كل الرجـال إلا أنـت، هـل فهمـتَ الآن بأننـي أحبُّـك دون كل الرجـال؟!

غاصـت روكسـانا بـين أحضانـه وهـي تـدور بوجهِهـا في مسـاحة صـدره تبحثُ عـن أنفـاسٍ قـد تركَتهـا هنـا منـذ شـهور مضَـت.

(37)

حاول وسام الدخول على صفحته من الحاسوب الخاص بروكسانا ليتفقد الأخبار، كان لا يريد أن يصِل إليه أحد، ووجد رسالةً في بريده الخاص على «الماسنجر».

«عزيزي الأستاذ وسام عبد العزيز..

قرأتُ مقالك الرائع منذ شهرين تقريبًا، وقمتُ بنسخه واحتفظت به على جهاز الحاسوب الخاص بي، لأنه وقتها مسَّ بداخلي أشياء كثيرة ربما كنت أجهلها وقتها، لذلك قمتُ بقراءته أمس مرة أخرى.

أنا مقيمة في مدينة روما الإيطالية، شاهدتُ برنامجًا وثائقيًّا حول علاقة الجنس بالإرهاب والسياسة، واستمَعتُ إلى نجمة الإغراء والعُري إيلونا ستالر، كانت تتحدث عن استعدادها لعرض جسدها على أسامة بن لادن وممارسة الجنس معه من أجل وقف العمليات الإرهابية، وقد قدمَت هذا العرض أيضًا إلى صدام حسين من أجل الحيلولة دون وقوع الحرب، وقالت إن الجنس من الممكن وأن يساعد في السلام العالمي.

وتطـرَّق الموضـوع وصـولًا إلى سـيلفيو برلسـكوني رئيـس وزراء إيطاليا الأسـبق، ومحاكمتـه بتهمـة ممارسـة الجنـس مـع فتيـاتٍ قـاصرات، وقـد قـدَّم في الادعـاء المحادثـةَ الهاتفيـةَ التـي أجراهـا مـع روبي الراقصـة المغربيـة التـي لم تُكمِـل بعـد عامهـا السـابع عـشر، وكيـف راودهـا عـن نفسـها مقابـل مبالـغ ماليـة، ربمـا أكـون قـد أصبتُـك بالملـل بهـذه القصـة، وربمـا تسـأل نفسـك: مـا علاقـة هـذا بي؟

ربمـا وجـودي في إيطاليـا لسـنوات طويلـة جعلنـي ثرثـارة مثلهـم، لكـن أُقسِـم لـكَ أن هنـاك علاقـةٌ شـديدةٌ بـين مـا قصصتُـه الآن وبـين مـا سـوف أقصُّـه عليـك عـن حيـاتي.

زوجـي يمتلـكُ سلسـة مطاعـم هنـا في رومـا، ورغـم مركـزه الاجتماعـي المرمـوق، فإنـه مُغـرَم ببنـات الهـوى، وخاصـةً السـودَ منهـن، يبحـث عنهـن عـن طريـق سـماسرة الجنـس في كل مـكان، وقـد علمـتُ أنـه قـد دفـعَ ثلاثـة آلاف يـورو مقابـل قضـاء ليلـةٍ مـع فتـاةٍ صوماليـةٍ عـذراء، لقـد مللتُـه ومللـتُ العلاقـة الجنسـية، كيـف أنـام مـع رجـلٍ تسـتعمله أكـثر مـن أنثـى كل يـوم؟! هـذا بخلاف خـوفي مـن أن ينتقـل إليَّ أي مـرض.

فرضـتُ عليـه ألا يغسِـل ملابسـه في المنـزل؛ خشـيةً عـلى أولادي مـن انتقـال الأمـراض إليهـم عـبر ملابسـه القـذرة، شـعورٌ مقـززٌ وأنـت تُلامِـس شـخصًا يختلـط عرقـه ومـاؤه كل يـومٍ بعـرق ومـاء أشـخاصٍ آخريـن، وشـفتاه تلعقهُـما ألـف شِـفاه، لقـد نضَـب مـاؤه ورضابـه وحرثـه في أراضي الغير، سـاقته نزواتـه إلى جحيم الرذيلـة، حرَمنـي وأعطـى غـيري رغـم أن حرمـاني كان بمحـضِ إرادتي، كيـف أتنـاول

طعامًا أعلمُ مسبقًا إنه ربما يكون مُسمَّمًا وملوثًا، آثرتُ الصوم وأنا أتوق إلى الطعام، ولولا أنني تربَّيت على الفضيلة، لنزلتُ إلى الطرقات أبحث عنه.

للجنس تأثير كبير على مُجرَيات الأمور، والتاريخ مليءٌ بحكاياتٍ تُظهِر دور الجنس في التأثير على كثيرٍ من مصائر الأمم، وكيف أن أجهزة المخابرات العالمية استخدمته في تجنيد كثيرٍ من العملاء والجواسيس، وكذلك الحصول على معلوماتٍ بطريقةٍ غير مباشرة، كما كان يحدث في مِصر في حقبة الستينات، عندما كان صلاح نصر يستخدم بعض الفنانات في ذلك.

الجنس والسياسة والسلام واستقرار العلاقات الأسرية موضوعٌ مهمٌّ يستحق منك وأن تُسلِّط الضوء عليه، لقد أعطيتكَ فكرة كتابٍ جديد، أو ربما تستطيع أن تَسوقَ لنا أحداث روايةٍ جديدةٍ تحمل المعنى نفسه.

ربما خرجتُ بكَ بعيدًا عن الموضوع الأساسي، ولكنني أكرر بأنني أصبحتُ ثرثارةً مثل الإيطاليات، فلأعُد إلى مقالِك الرائع وأقول: إذا كان تشاوتشيسكو جبارًا وطاغيةً على شعبه، فإن زوجي لا يقلُّ عنه جبروتًا وطغيانًا!».

خرجت من الحمام عاريةً تمامًا إلا من بشكير أبيض وضعَته فوق رأسها على طريقة سلاطين المماليك، فضحك وسام قائلًا:

- تشبهين كثيرًا علي بك الكبير بهذه العمامة البيضاء، وأنا سوف أؤدِّي دور محمد أبو الذهب وأنقلِب عليك.

دار بينهما مزاحٌ وشدٌّ وجذب، وقعَت روكسانا على أثره فوق الفراش، وأخذ وسام يقول وهو ما زال يضحك:

- سوف أُكمِل الزحفَ وأوقع بك الهزيمة يا علي.

لم تكن روكسانا تُصدِّق ما يفعله وسام، للمرة الأولى تراه مِهْذارًا بهذه الطريقة، للدرجة التي جعلتها تسأله:

- هل تناولتَ عقاقير الهلوسة؟ أم احتسيتَ الخمر بكثرة؟!

فك البشكير من فوق رأسها وألقى به على الأرض وقال:

- لقد خلعتُ عنكِ تاج الملك وأصبحتِ من أسرى الحرب، سوف أضمُّكِ إلى حريم السلطان وسام بك عبد العزيز.

وأخذ يُقبِّلها وهي تقول:

- هيتَ لك سيدي الفرعون!

(38)

حاولت علياء الاتصال بوسام دون جدوى، كان هاتفه مغلقًا باستمرار، كرَّرت ذلك لمدة يومين، حتى انتابها القلق والريبة خشية أن يكون قد حدث له مكروه، أو يكون الموساد قرر تصفيته في مِصر.

ترددت كثيرًا قبل الاتصال باللواء عماد العارف، أخبرته بمخاوفها، وأن اختفاء وسام بهذه الطريقة يُثير الشكوك، فطمأنها قائلًا:

- ربما ذهب إلى مكانٍ مجهولٍ من أجل أن يستجِم بعد هذه الأحداث الجسيمة التي مرَّت به، خاصةً وأنه في خلافٍ مع زوجته وابنتيه بعد معرفتهن بالعلاقة التي تجمعكِ به، اتركي الأمر لي، وسوف أخبركِ عندما أتوصل إلى شيء.

أجرى اللواء عماد اتصالاته بأصدقاء له في وزارة الداخلية وأمن الموانئ، وعلم أن وسام قد غادر البلاد من مطار القاهرة الدولي بكامل إرادته متجهًا إلى بوخارست منذ ثلاثة أيام.

شعرت علياء بالحزن الشديد عندما أخبرها عماد بهذه المعلومات،

وتأكدت أن وسام ذهب للقاء حبه القديم المتجدد دائمًا، وحدثت نفسها:

- روكسانا! طوال علاقتي مع وسام لم أشعُر بالغيرة إلا من هذه المرأة، فلطالما كنت أرى مدى حبه لها كلما تحدث عنها، إنه يقدسها، ولها مكانة خاصة في قلبه.

جلست علياء مع أوراقها تبكي حالها، رغم أنها قد هجرتها منذ فترةٍ طويلةٍ بعد أن استقرَّت علاقتها بوسام، أمسكَت بالقلم فوجدته باردًا رغم حرارة الجو المرتفعة، حاولت الكتابة، لكن القلم لم يكتب، لقد جفت أطرافه التي لم يصِلها الحبر منذ فترة طويلة، فحكَّته عدة مراتٍ على لوح الزجاج الموجود فوق سطح المكتب، وكأنها تقوم بعملية تدليكٍ له، حتى ردَّت فيه الروح وشهق نقطة حبر فوق الورق، نظرت إليه وقبَّلته طويلًا وكأنها قبلة الحياة لهذا القلم، والذي قد أهداه لها وسام احتفاءً بها عندما كتبت أول مقالٍ لها في جريدة «الأهرام» منذ أكثر من عشرين عامًا.

«لم تتغير بعد يا وسام، ما زلتَ تعشق هوايتكَ القديمة، ما زلت تعشق الهروب وعدم المواجهة، تترك مشاكلك للزمن كي يقوم هو بحلها أو بتعقيدها، كنت تأتي إليَّ من قبل وتُلقي بالمشكلةِ في حجري، ثم تذهب لتغطس في الماء الدافئ داخل حوض الاستحمام، وأدرس أنا المشكلة وأبحث لكَ عن أفضل الحلول، فتخرج سعيدًا من الحمام والماء ما زال عالقًا فوق جسدك، تحتضنُني وكأنني منشفتُك، وأنا أضربكَ ضرب الأم لابنها وأصيح: «لقد بللتَ ملابسي، لقد بللت ملابسي!»، لكن هذه المرة، ذهبتَ أنت

ومشكلتكَ إلى روكسانا، وكأن ارتباطنا أبعدَ المسافة بيننا بدلًا من أن يقربها، كنتُ دائمًا الحل، والآن أصبحتُ جزءًا من المشكلة، لو أنني أعلم أن الزواج منكَ سوف يُبعِدك عني، لظللتُ عشيقةً وخليلةً لك مدى الحياة.

لقد أصبحَ مزمار الحي لا يُطرِبك، وطبخُ الشرق لا تشتهيه، والفراش القطني صار يُؤرِّق نومك، ما عدتُ قطعة الإسفنج التي تمتصُّ كل موبقاتك، ما عدتُ حائط المَبكى، ما عدت قفص الاعتراف الذي تبوح بسركَ إلى راهبتِك، أنا أحتضِر دونك يا وسام، أختنق! الهواء دونك خالٍ من الأكسجين.

ارجِع، أعِدك بأنني سوف أحل كل مشاكلك، سوف أترك الجريدة والبيت، سوف أذهب للعيش في أي مكان بعيدٍ عنك، كيف تقرأ تلك الرومانية ما بين سطور عينيك؟ كيف تُحلِّل أنفاسكَ وآهاتك؟ كيف؟!».

(39)

كان وسام سعيدًا بوجوده في بوخارست، فهو يعشق منظر تساقط الثلوج، لقد عاش عشر سنوات في ألمانيا وتعوَّد على هذا الطقس شديد البرودة، ويرى أنه أنسب طقسٍ لازدهار العلاقات الجنسية، وبدأ يمارس مهام عمله من هناك بعد أن تحدَّث مع رئيس مجلس الإدارة في احتياجه إلى إجازةٍ طويلةٍ يُنظِّم فيها حياته، ويُعيد حساباته في قراراتٍ خاطئةٍ قد اتخذها تحت ضغوطٍ خاصة، ووعدَه بأنه سوف يستمرُّ في إرسال مقاله الأسبوعي بانتظام.

قبل أن يشرع في كتابة مقاله، تصفَّح بريده الإلكتروني، فوجد رسالةً من سيدة تدعى سناء الشافعي من الأقصر.

«أستاذي الفاضل، تحية طيبة وبعد..

وجودي في مدينة الأقصر جعلني عاشقةً لتاريخ الفراعنة، عمي كان يعمل مُفتِّشًا لأثار معبد «أبو سمبل»، وقد شارك في إنقاذ المعبد من الغرق منذ أكثر من خمسين عامًا، كان يصحبني معه دائمًا، وكنت أستمتع بالقصص التي كان يرويها عن تاريخ الأُسَر الفرعونية لبعض المشرفين الجدد.

تذكرتُ مقالكَ «على فراش طاغية» وأنا أتصفح موسوعة «مِصر القديمة» للعلَّامة سليم حسن، حين استوقفني في الجزء العاشر قصة أمنحتب الثالث أعظم ملوك مِصر، وكان مهتمًّا بالصيد والقنص، ومع ذلك وجَد مَن يصطاده، ووقع فؤاده أسيرًا لدى واحدةٍ من عامة الشعب، فأصرَّ على الارتباط بها والزواج منها رغم أن ذلك ربما يُفقِده عرشه الملكي، رُعونة الرجل في كثيرٍ من الأحيان تجعله طاغيةً بشكل أو بآخر!

أنا سليلةُ أسرةٍ عريقة، يعرفها كل من يعمل بالسلك الدبلوماسي، جدي كان سفيرًا لمِصر في الأرجنتين، ووالدي عمل سفيرًا لمِصر في كل من الصين والعراق، وكذلك شقيقي الأكبر يعمل الآن سفيرًا في إحدى دول شمال أفريقيا.

بعد أن أنهى والدي خدمته في وزارة الخارجية، أنشأ مستشفًى خاصًّا على قطعة أرض يمتلكها في المعادي، وذلك بعد أن أقنعه زوجي الطبيب الشاب أن الخدمات الطبية تُحقِّق مكاسبَ كبيرةً ومضمونة، وأنه سوف يتولى إدارة المستشفى بنفسه، وقد جعله والدي شريكًا معه بنسبة عشرة في المئة إكرامًا لي.

كان قد مرَّ خمسة عشر عامًا على زواجنا، عندما تقدَّم عامل المصعد بطلبٍ إلى زوجي لتُعيَّن ابنته الحاصلة على الشهادة الابتدائية، وبَّخه زوجي يومها، ما هو العمل الذي من الممكن أن تعمله فتاةٌ ليست متعلمة، حاول العامل تقبيلَ يد زوجي وكاد أن يبكي، حتى وافق زوجي على تعينها على مضَض، في اليوم التالي أتى العامل ومعه ابنته، وطرق باب حجرة زوجي، ثم طلب من ابنته أن تُقبِّل

يـدَ سـعادة البيـك، فنظـر إليهـا زوجـي بانبهـارٍ واضـح، كانـت فتـاةً رائعـة الجـمال، في السـابعة عـشرة مـن عمرهـا، فارِعـةَ الطـول، ذات بـشرةٍ بيضـاء وعينـين عسـليتين، وجسـدها بـدا وكأنمـا قـد تـمَّ نحتـه بيـد مايـكل أنجلـو.

وقَـع زوجـي في غرامهـا مـن اللحظـة الأولى، وأمـر والدهـا أن يأخـذ ابنتـه ويعـودان إلى المنـزل، بعـد أن أعطـى الفتـاة مبلغًـا مـن المـال، وقـال لوالدهـا: «هـذه الفتـاة لم تُخلَـق لتخـدِم الآخريـن، بـل خُلِقـت ليخدِمهـا الجميـع».

وفي اليـوم التـالي، طلـب زوجـي الفتـاة للـزواج، كاد عامـل المصعـد يطـير فرحـةً وسـعادة، لم يُفكِّـر زوجـي في أي شيءٍ إلا تلبيـةَ نزواتـه، رغـم الفـارق الاجتماعـي الرهيـب، ناهيـكَ عـن الفـارق في الثقافـة والخـبرات، وهنـاك أيضًـا فـارق العمـر الكبـير بينهـما، فزوجـي يكبرهـا بتسـعةٍ وعشريـن عامًـا!

وصـل إلى مسـامع والـدي عـن طريـق أحـد أعيُنـه هنـاك في المستشـفى خـبر هـذا الـزواج المُزمَـع عقـدُه، وثـارَ ثـورةً عارمـة، ثـم ذهـب إلى هنـاك عـلى الفـور، وفصـلَ عامـل المصعـد بصفتـه رئيـسَ مجلـس الإدارة، ثـم فتـح بـاب حجـرة زوجـي، شـدَّه مـن ربطـة عنقـه إلى خـارج نطـاق المكتـب، وقرَّبـه منـه ثـم قـال: «أيهـا التافـه! أتريـدُ أن تتـزوجَ عـلى ابنتـي سـليلة الباشـاوات؟! باسـتطاعتي أن أطـرُدَكَ الآن خـارج المستشـفى، وتعـودَ لتعمـل بالأجـر في أي مـكان، انـسَ موضـوع هـذه الفتـاة، لقـد فصَلـتُ والدهـا، أرسِـل إليـه مبلـغ خمسـة آلاف جنيـه مـن رصيـدكَ الخـاص، بالإضافـة إلى مكافـأة نهايـة الخدمـة».

هـذا الموضـوع أسـتاذ وسـام سـبَّب لي جرحًـا غائـرًا، حتـى أصبحـت أشـعر بالقـرفِ مـن زوجـي، وزهـدتُ فيـه، أليـسَ مـن حقـي أن أقـول إننـي نمـت عـلى فـراش طاغيـة؟!».

أغلـق جهـاز الحاسـوب، وشرَد فكـره في ابنتيـه، والجـرح الـذي سـببه لهـما، وافتضـاحُ سر زواجـه مـن عليـاء التـي كانـت تمثـل لهـما أُمًّـا ثانيـة، وقـد سـبَّبَ شرخًـا كبـيرًا في العلاقـة عـدمُ اكـتراث ابنتيـه بالسـؤال عنـه وعـن أحوالـه، خاصـةً وأنـه تـركَ لهـما رقـم هاتفـه في رومانيـا.

وصـول روكسـانا مـن العمـل، قطـعَ حبـل شروده، وضعَـت مظروفًـا صغـيرًا كانـت ممسـكةً بـه عـلى المنضـدة المجـاورة لوسـام، اتـكأت بركبتيهـا فـوق فخذيه، أحاطَـت عنقـه بيديهـا، قبَّلتـه وهـي تكـرر كلمـة «أحبـك» بريتـمٍ سريـعٍ للدرجـة التـي كانـت فيهـا أذنـاه وشـفتاه لا تلاحـق عـلى اسـتقبال الـكلام والقبـلات.

توقفت للحظات، نظرت إليه وقالت:

- أريـد أن أصارحـكَ بـشيءٍ أقبَلـتُ عليـه دون أن أخـبرك، لكـن مـا حـدث كان نابعًـا مـن حبـي إليـك، ولـن أُحمِّلـكَ تبِعـات قـراري الفـردي.

شـعر بالقلـق والتوتـر مـن حديثهـا، رفـع يديهـا برفـقٍ مـن حـول عنقـه، أجلسـها بجـواره، ومسـح بإصبعـه دمعـة قـد غـادرَت عينيهـا سـهوًا، وقـال:

- ما بك؟ ولِمَ كل هذه المقدمات؟!

أعطتـه المظـروفَ وانصرفَـت نحـو حجـرة النـوم وهـي تبـكي، فتـح المظـروف فـإذا بـه تحليـلٌ خـاصٌّ بالحمـل، والنتيجـة بـه إيجابيـة، إذًا روكسـانا حامـل!

خرجت روكسانا من حجرتها تجري صوب الحمام ويدها تُغلِق فمها، وأفرغت ما بداخل معدتها من طعام في نوبات متعاقبة، ووسام ما زال جالسًا في مكانه لا يُحرِّك ساكنًا، لقد ألجمَته المفاجأة، إلا أنه استوعبَ الموقف سريعًا وذهب خلفها، أمسكَ برأسها وهي مستمرة في إفراغ ما تبقى، وأمسك بيديها، فمالَت برأسها فوق كتفه حتى وصلا حدود الفراش، أجلسها برفقٍ ووضع وسادةً خلفها، ثم رفع رجليها ووضعهما فوق الفراش، جلس بجوارها، وضمَّها إليه، ثم قال:

- لماذا لم تخبريني؟

- خشيتُ أن ترفض.

- لماذا أرفض وأنا مَن طلب منكِ الزواج من قبل؟!

- ظروفكَ الآن اختلفت، ابنتاك تقتربان مني في العمر، ماذا تقول لهما؟

- هذا شأني أنا، كان يجب عليكِ إبلاغي بقرارك.

- لا تقلق، سوف أعطي للمولود لقبَ عائلتي.

- ومَن قال لكِ بأنني سوف أوافقكِ على هذا؟

- أنا أخبرتك فقط لأن هذا حقك.

- هذا حقنا، أنا وأنت، سوف يُكتَب باسمي، وسوف أكون موجودًا معكِ وقتَ ولادته، لا تقلقي.

(40)

قـرر وسـام العـودة إلى القاهـرة بعـد أن أطـمأنَّ عـلى روكسـانا والجنـين، وفـرشَ حجـرةً صغـيرةً كانـت مهملـةً بسريـر خـاصٍّ للأطفـال، عـلى وعـدٍ بالعـودة في بدايـة الشـهر التاسـع مـن الحمـل، وأوصى صديقـه صـلاح عجـور بـأن يكـون بجوارهـا إذا لـزم الأمـر.

للمـرة الأولى يعـود إلى أرض الوطـن ولا تنتظـره عليـاء في المطـار، لقـد عـاد سرًّا، كـما سـافر سرًّا، كان سـامي المغـازي نائـب رئيـس التحريـر في انتظـاره، اصطحبـه في سـيارته إلى فنـدق «لـو مريديـان» بالهـرم.

اسـتيقظ مبكـرًا وجلـس في شرفتـه المطلـة عـلى أهرامـات الجيـزة، وأخـذ يُدخِّـن سـيجارته الإلكترونيـة بطعـم النعنـاع التـي أهدتهـا لـه روكسـانا عندمـا شـعر بضيـقٍ في التنفـس مـن فـرط التدخـين، ومنعـه الطبيـب مـن التدخـين نهائيًـا.

كان يشـعر بالاغـتراب، لا يعـرف مـا هـي الخطـوة التاليـة بعـد عودتـه، ومِـن أيـن يبـدأ، هـل يتصـل بابنتيـه لتلطيـفِ العلاقـة بينـه وبـين نادين، أم يذهـب إلى عليـاء ربمـا يجـد لديهـا الحـل للخـروج مـن المـأزق بأقـل الخسـائر، فهـي كانـت دائمـا المنقـذ والسـند، لكنهـا الآن جـزءٌ مـن المشـكلة، ولا تسـتطيع أن تكـون عـلى الحيـاد، ربمـا تجـورُ عـلى حـق نادين.

قـرر أن يذهـب إلى بيـت جـده في عزبـة «الصالحـي» بمحافظـة الشرقيـة، اتصـل بالخفـير الـذي يحـرس البيـت الكبـير، وطلـب منـه أن يُنظِّـف البيـت لأنـه سـوف يـأتي غـدًا.

انتـشر خـبر وصـول وسـام في العزبـة كالنـار في الهشـيم، مـرَّ أكـثر مـن خمسـة عـشر عامًـا عـلى آخـر مـرة زار فيهـا القريـة، وذلـك عندمـا تُوفِّيَـت والدتـه.

عندمـا علـم يوسـف البحـيري ابـن عمـه وعمـدة البلـدة بخـبر وصولـه، ذبـحَ عجـلًا وأعـدَّ وليمـةً لأهـل العزبـة جميعًـا عـلى شرف قـدوم وسـام.

كان سـعيدًا جـدًّا بالجـو الأسري وطريقـة الاحتفـاء بـه، وسـط أقاربـه وأهـل القريـة الذيـن مـا زالـوا يتذكـرون جـده العمـدة بـكل خـيرٍ وحُـب، فهو كان سـندًا لهـم جميعًـا، فقـد بنَـى لهـم مدرسـةً ابتدائيـةً ومسـتوصفًا عـلى نفقتـه الخاصـة، وكان يتكفَّـل بفقـراء القريـة مـن كسـاءٍ وغـذاء.

اقترب رجل مُسِن منه، وطلب أن يختلي به، فنهرَه العمدة قائلًا:

- اترك وسام بِك حتى يسترِح من عناء السفر.

لكنـه قـامَ وتأبَّـط ذراع الشـيخ واتجـه نحـو حجـرة المسـافرين، أجلسـه بجـواره وقـال:

- هاتِ ما عندك.

قال الرجل:

- اسـمي محمـد خـضر، كنـت أعمـل خفـيرًا في بيـت جـدك العمـدة منـذ أكـثر مـن خمسـين عامًـا مضـت، كان يأتمِنُنـي عـلى أموالـه، فكنـتُ

أبيع المحصول، وأذهب إلى الأسواق لبيع البهائم، ثم في اليوم التالي أذهب إلى الزقازيق كي أضَع الأموال في البنك، حتى وزَّني الشيطان لأختلِسَ بعض المال في كل مرة، وفتحتُ أنا أيضًا حسابًا بنكيًّا، فكونتُ ثروةً كبيرةً بمرور الوقت، واشتريتُ منزلًا في بولاق الدكرور بالقاهرة مكوَّنًا من ثلاثة طوابق، وتبقى بعض المال، فاستأجرتُ به دكانًا كبيرًا قريبًا من الأزهر وملأته بأنواع مختلفة من الأقمشة، وحينها افتعلتُ خلافًا مع جدك وتركتُ العزبة، واصطحبت زوجتي وأبنائي الثلاثة وذهبنا إلى القاهرة بعد أن أسَّستُ المنزل الذي اشتريته.

سارت الأمور بشكلٍ طيب، تجارة الأقمشة ضاعفَت رأس المال في فترة وجيزة.. وفي يوم جمعة، كنتُ في إجازة، وكنت موجودًا في البيت، وجدتُ إبراهيم القهوجي يدقُّ باب المنزل بشكلٍ أثار ذُعر أبنائي، فتحتُ وأنا ألهث لأنني نزلت درجات السلم بشكل سريع، أخبرني أن النيران شبَّت في دكاني وامتدت إلى الدكاكين المجاورة، وسيارات المطافئ لم تستطِع الوصول إلى الدكان لضيق الشوارع المؤدية إليه، كانت الخسائر كبيرة، فقد أتت النيران على كل شيء، وساعد على ذلك وجود أقمشة مُصنَّعة من البوليستر، شعرتُ وقتها بالضياع، ورجعتُ إلى البيت وزوجتي حاولت التخفيف عني، واقترحت عليَّ أن أبيع بيتنا في العزبة وبثمنه أبدأ من جديد.

سافرتُ بعدها إلى العزبة في قطار الساعة السابعة من محطة مِصر يوم الجمعة الثاني عشر من أكتوبر عام 1992، ربما تتعجب لأنني رغم كبر سني ما زلتُ أتذكر اليوم والتاريخ، وصلتُ

إلى البلـدة بعـد غيـاب ثـلاث سـنوات، وعندمـا علِـم جـدكَ العمـدة بوصـولي أرسـل شـحاتة الخفـير إلي، فذهبـتُ إليـه، وسـألني عـن أحـوالي وأحـوال أهـل بيتـي، فشـكرتُه وحاولـتُ الانـصراف، لكنـه أصرَّ عـلى أن أبقـى معهـم عـلى الغداء، دار بيننـا حديـثٌ طويـلٌ وعـرِف منـي أننـي أتيـتُ مـن أجـل أن أبيـع بيتـي لتعويـض الخسـارة التـي ألَمَّـت بي بعـد الحريـق، يومهـا قـامَ جـدك وغـاب عـدة دقائـق وعـاد ومعـه عـشرة آلاف جنيـه، وقـال: «خُذهـا ورُدَّهـا وقتـما تشـاء، لا داعـي لأن تبيـع بيتـكَ في العزبـة وتنقطـع عنـا أخبـارك، فـلا بـد أنـك في يـومٍ مـا سـتعود إلى بيتـك وأهلـك»، وجدتُنـي أبـكي بشـدة، جـدك ظـن أننـي أبـكي فرحًـا وسـعادةً مـن الجميـل الـذي أسـدَاه إلي، في حـين أننـي كنـتُ أبـكي مـن خِسَّـتي ونذالتـي؛ الرجـل الـذي سرقتـه هـو مـن يسـاعدني الآن بعـد أن ضاقـت بي الدنيـا، وبعدهـا شربنـا الشـاي وجلسـنا نشـاهد التلفـاز، ثـم قطـع التلفـاز إرسـاله ليذيـع خـبرًا عاجـلًا: «في تمـام السـاعة الثالثـة وتسـع دقائـق عـصرًا، حدثـت هـزة أرضيـة بقـوة خمسـة وثمانيـة مـن عـشرة ريختـر، مركـزه السـطحي بالقـرب مـن دهشـور عـلى بعـد خمسـة وثلاثـين كيلومـترًا إلى الجنـوب الغـربي مـن القاهـرة، وقـد اسـتمر لمـدة نصـف دقيقـة»، فتركـتُ المـال الـذي أعطـاه لي جـدك وهرولـت متجهًـا إلى الطريـق أبحـث عـن وسـيلة مواصـلات تنقلنـي إلى القاهـرة.

وصلـت إليهـا وأذان المغـرب يصـدَح في المسـاجد، أوقفـت سـيارة أجـرة وطلبـتُ مـن السـائق أن يتوجـه بي إلى بـولاق الدكـرور، فاعتـذر السـائق بلطـفٍ قائـلًا: «مـن الصعـب أن أصِـل بـكَ إلى هنـاك، المنطقـة منكوبـة بسـبب الزلـزال، لكـن مـن الممكـن أن أوصِلـكَ إلى شـارع السـودان ومنـه تمـشي إلى هنـاك»، وحـين وصلـتُ إلى هنـاك، اسـتقبلني

الجيران وكلهم أسى وحسرة لما حدث لأهل بيتي، لقد تهدَّم المنزل وماتَ كل مَن فيه، فجلستُ ألطم وجهي وأنا أردد: «الحرام لا يدوم، الحرام لا يدوم!»، جاء جدك عندما علِم بالخبر، وأخذنا الجثامين لدفنهِم في مقابر العزبة، وأقام جدك عزاءً كبيرًا في الدوار الملحق بالبيت، كنت أعضُّ على يدي وأنا أرى جدك يُقابِل جحودي وخياناتي بكل ود وحب وكرم، فظللتُ داخل بيتي لا أبرحه، وكان جدك يُرسِل إليَّ الطعام كل يوم ويرسل من يهتم بنظافة البيت، وعِشتُ ثلاثين عامًا في عذاب، إلا أنني خشيتُ أن أموتَ وسرِّي معي، وعندما علمتُ بوصولِك، قررت أن أجيء وأعترِف لك، وأطلب منكَ أن تسامحني بصفتكَ الوريث الوحيد لهذه الأموال، لقد انتقم مني الله شرَّ انتقامٍ في الدنيا، فأطلُب منك العفو والسماح، ربما يغفر لي الله هذا الذنب.

بكى الشيخ ومالَ بجسده ليُقبِّل يده، فربَّت على كتفه وأجلسه وطمأن قلبه وقال:

- أشتمُّ فيكَ رائحة جدي، كم كان حكيمًا، ليته ما زال على قيد الحياة، ربما كنتُ ألقيتُ بمشاكلي بين يديه وذهبت لألعب في حديقة البيت الكبير.

ضحك الشيخ محمد فأفرَج عمَّا تبقى من أسنان صفراء بالية وقال:

- «الهدوم يا ما بتداري»، كنتُ أعتقد أن رجلًا مثلك -له شَنَّة ورَنَّة ويكتب في الجرائد ويظهر في التليفزيون ويعرف كبارات البلد- يكون سعيدًا بلا مشاكل أو هموم، إذ كيف تجرؤ الهموم أن تأتي

إليك، لو فكرتَ في أن تبيع ما تملِك من أطيان وعقار لأصبحت من أثرياء مِصر، جدك رحمة الله عليه كان مشهودًا له بالحكمة ورزانة العقل، وكان أهل القرى المجاورة ورجال الأمن يستعينون به من أجل حل النزاعات، أنتَ من عمر أولادي لو كانوا ظلوا على قيد الحياة، قُل لي، ما بك؟ أنا لستُ متعلمًا، لكن تجارب الحياة أثقلتني، الحزن يا بنيَّ بئرٌ عميقةٌ للمعرفة والتأمل، جئتك لأُفضي إليك بهمِّي ومِحنَتي، فوجدتُك أنتَ أيضًا أكثر مني همًّا وكَربًا.

- لا أعلم من أين أبدأ يا شيخ محمد، أو بمعنى أدق، من أي الموبقات أبدأ، تعلم أنني كنت طفلًا مُدلَّلًا مُرفَّهًا، وصرتُ رجلًا ثريًّا، وأنا شابٌّ مارستُ الجنس مع جميع النساء اللاتي خدَمن في بيت جدي، كنت أجد متعةً كبيرةً في رؤية أجسادهن العارية غير المنمقة والخشنة بطبيعة عملهِنَّ وعدم اهتمامهن بالنظافة الدورية، حتى عشِقتُ رائحتهن الكريهة.

وذات مرة رأتني جدتي التركية آزاد -رحمها الله- وأنا أمارس الجنس مع إحدى الخادمات، فأغلقَت باب الغرفة وانصرفَت، وقتها ظننتُ بأنها سوف تخبر والدي أو جدي، فذهبتُ إليها أستجديها ألا تفضح سري، فضحكت وأجلسَتني بجوارها، ثم فتحَت كيس النقود وأعطتني مبلغًا من المال وقالت: «اذهب إلى الصيدلية واشتري أوقيةً طبيةً حتى لا تُصابَ بأي أذى، بماذا سيُفيدك الاستمتاع إذا جلبَ لك المرض؟! لا تُفرِّط في الممارسة الجنسية حتى لا ينضَب ماؤك».

وقتها تعلمتُ شيئًا خطيرًا، تعلمت كيف أستمتع دون أن أُعرِّض

نفسي إلى الضرر، فأصبحتُ أنانيًا، وأصبح مبدأ «مكيافيلي» هو طريقتي في الحياة، أعتذرُ لأنني ذكرتُ اسم رجلٍ لا تعرفه، لكنه كان لديه نظرية «إن الغاية تبرر الوسيلة»، أعتذر مرة أخرى، سوف أُبسِّط لك الأمور فيما بعد، ضاعفت جدتي آزاد من تدليلها لي، كانت تأتي بالخفر وتجعلهم يجلسون على أربع مثل الغنم متراصين، وتضعني فوق ظهورهم وهي ممسكة بيدي، فكنت أسير بهم وهي تقول: «أنتَ حفيد العمدة، كل هؤلاء يعيشون من خيرك، هم هنا من أجل راحتك»، أحببتُ كثيرًا تلك اللعبة، ومن حينٍ إلى آخر كنت أجعل جدتي تجمعهم وتأمرهم أن يستعدوا، وأنا أسير فوق ظهورهم، وجدتي تكرر مقولتها: «أنتَ حفيد العمدة...».

وفي يوم، كانت جدتي مريضةً وطريحة الفراش، فجمعتُ أنا الخفراء وأمرتهم أن يأخذوا وضع الاستعداد، ووقفتُ فوق المقعد وقفزت فوق ظهر الأول، فانزلقت قدمي وأنا أسير فوقهم ووقعتُ على الأرض، فصرختُ من شدة الألم وقد شُقَّ حاجبي، حينها خرجت جدتي على صوت صراخي، وكان العقاب للجميع، أمرَتهم أن ينبطحوا أرضًا على بطونهم كلما أمركم وسام بك، حتى إذا وقعتُ من فوقهم لا أصاب بأذى.

كبرتُ وذهبت إلى المدرسة الابتدائية التي بناها جدي على نفقته الخاصة، وقد كان رئيسَ مجلس الأمناء، وحين كنت في الصف الرابع، أمرتُ اثنين من أبناء الخفراء أن ينبطحا أرضًا كي أسير فوقهما كما كنت أفعل مع آبائهما، لكنهما رفضا الانصياع إلى أوامري، فشكوتُ إلى جدتي، فأمرَت كل الخفر أن يُحضِروا أبناءهم

إلى البيت الكبير يوم الجمعة، فأتوا جميعًا، وأمرتهُم جدتي أن ينبطحوا أرضًا، لكن الخفراء رفضوا إطاعة الأوامر، وللمرة الأولى اعترضَ الخفر على أوامر جدتي وقالوا: «إلا أبناءنا، نحن نكِدُّ ونشقى من أجل أن نرى أبناءنا أفضل منا، نحن انبطحنا من قبل، ومستعدون لأن ننبطحَ مئة مرة، لكن أبناءنا فلا».

في اليوم التالي، كان أحمد بن إسماعيل الخفير يبكي بسبب ما حدث بالأمس في بيتنا، فسأله الأستاذ كمال الحريري مدرس الرياضيات عن سبب بكائه، فقصَّ عليه ما حدث بالأمس، فأخرجني الأستاذ كمال وأمرني أنا ألتفت نحو السبورة رافعًا يديَّ إلى الأعلى إلى حين انتهاء الحصة.

قامت الدنيا ولم تقعد عندما علِمت جدتي بما حدث، وأمرت شيخ الخفر أن يذهب غدًا إلى المدرسة ويأتي بالأستاذ كمال جالسًا فوق حمار بالمقلوب، أي يكون ظهره في اتجاه سير الحمار، وأوصَت سعيد بهلول منادي العزبة أن يقوم بزفِّه إلى البيت الكبير وهو يقول عبارته الشهيرة: «بكرة من ده بقرشين»، كان الأستاذ كمال يحاول فكَّ يده ليهرب، إلا أن الخفر كانوا يمنعونه.

علمتُ فيما بعد أن هذا المدرس ظل حبيسَ بيته لسنواتٍ طوال، حتى مات كمدًا وحزنًا بسبب الإهانة التي سبَّبتها له جدتي، وجدي رغم جبروته كان ضعيفًا جدًّا أمام جدتي، فهي كانت السبب في ثرائه وحصوله على لقب البكوية، لأنها سليلة أحد سلاطين الباب العالي في إسطنبول، لذلك كان لا يُعارِضها في القرارات التي تتخذها رغم رفضه لها.

دخلتُ كلية الإعلام بجامعة القاهرة، واشترى جدي منزلًا خلف حديقة الحيوان بالقرب من الجامعة، وأرسل معي خفيرًا وزوجته من أجل خدمتي والاهتمام بشئوني.

تعددت علاقاتي النسائية مع كثيرٍ من طالبات الجامعة، ظروفي المادية ساعدتني على ذلك، وكانت لي صديقة مقربة جدًّا مني، كنت لا أخفي عنها سرًّا، وهي لم تيأس من توجيه اللوم لي على تصرفاتي المنفلتة.

كانت تساعدني على مضض في بعض الأحيان في الوصول إلى بعض الفتيات، كنت أعلم أنها تحبني، لكن كبريائها منعها من أن تُصرِّح بحبها، ومع ذلك كنت أضغط عليها كثيرًا بقص ما يحدث بيني وبين الفتيات على أسماعها.

قبل أن أنسى، والشيء بالشيء يُذكر، هذه الفتاة تزوجتُها أخيرًا منذ أربعة أشهر تقريبًا بعقد زواج عرفي، وهي أيضًا ابنة خالة زوجتي التي أنجبت لي توأمتين.

سافرتُ بعد الزواج إلى عدة دول أوروبية كمراسل لجريدة الأهرام، إلى أن توليت إدارة مكتب الأهرام في بون، وتعرَّفتُ على امرأة تكبرني بثلاثين عامًا، تمتلك سوبر ماركت كبير، وكانت تُنفق ببذخٍ مبالغ فيه عليَّ وعلى أصدقائي، وصارت بيننا علاقة حميمة.

أقمتُ معها في منزلها، وتراكمَت الديون عليها من كثرة الإنفاق، بعد أن اشترَت لي سيارة بورش وساعة رولكس مرصعة بالألماس.

خشيَت أن تأمر المحكمة بالحجز على السوبر ماركت، فباعته لي بعَقد صوري، وعندما أنهيتُ عملي في بون، بِعتُ السوبر ماركت

وحوَّلتُ الأموال إلى مِصر، ثم علِمتُ من صديقي صلاح عجور...

قاطعه الشيخ محمد قائلًا:

- أعرفه، ابن إبراهيم الخفير.

- نعـم، علمـتُ منـه أن الشرطـة وجدتهـا منتحـرةً في منزلهـا بعـد سـتة أشـهر مـن سـفري، لا أخفيـكَ سرًّا، أنَّبنـي ضمـيري بعـض الوقـت، ثـم نسـيتُ الأمـر برُمتـه! أحـداث كثـيرة في حيـاتي كلهـا سـيئة...

اسـتمر في سرد الأحـداث، حتـى وصـل إلى مشـكلته الأخـيرة مـع نادِيـن وابنتيه وعليـاء وروكسـانا التـي تنتظـر ابنًـا منه.

أمسـك الشـيخ محمـد بعصـاه التـي يتكـئ عليهـا، قـامَ ثـم ربَّـت عـلى كتـف وسـام قائـلًا:

- لـكَ اللـه يـا ولـدي! ذنوبـكَ متفرقـةٌ بـين القبائـل، ليـس لـدي مـا أقولـه لـك، كنـت أود أن أسـدي إليـكَ بعـض النصائـح ردًّا للجميـل، لكـن لا أملـكُ إلا أن أقـول: اذهـب واعتَمِـر، وهنـاك أمـام بيـت اللـه الحـرام، اعـرِض شـكواكَ إلى اللـه، حـاول أن تتصـدَّق بقيمـة الأمـوال التـي حصلـتَ عليهـا بطُـرقٍ ملتويـة... السـلام عليكـم.

(41)

بعد عودة وسام من العمرة، شعر براحةٍ وسكينةٍ أحاطتا به، وبدا أكثر إقبالًا على الحياة، وعاد إلى العمل بعد انقطاعٍ لأكثر من شهرين.

التفَّ حوله المُحرِّرون ورحَّبوا به، خرجَت علياء من حجرتها على أصواتهم، فوجدته أمامها، تسمَّرت مكانها لا تدري ماذا تفعل، فقد ألجَمتها المفاجأة، فتراجعت عدة خطوات إلى الخلف، اقترب منها وسام ومدَّ يده ليُصافِحها، فترددت قليلًا، إلا أنها راعَت أن الجميع يرمُقها، فمدَّت يدها ورحبت به، ثم قالت:

- تفضَّل في مكتبي لعشر دقائق حتى يتم تنظيف مكتبك.

جاهدت علياء نفسها حتى لا تنظُر في عينيي وسام، وهو أيضًا تعمَّد النظر في هاتفه، وتصفح الأخبار على المواقع المختلفة، كان الوقت يمر ثقيلًا، والصمتُ السائد في الحجرة كان لا مبرر له، حتى قام واتجه ناحيتها، قبَّل رأسها وقال:

- أنا آسف، أعتذر عن كل سنين العذاب التي سببتُها لك، أعلم أنني حمَّلتُكِ فوق طاقتِك، ولم أُراعِ أبدًا شعورك، حُبك المبالغ فيه

لي أفسدني، لأنني شخصٌ غير سوي، كان لزامًا عليَّ أن أُقدِّر هذا الحب وأحتويه، لكن ما تربَّيتُ عليه جعلني أُهمِل وأستهين بمشاعر الآخرين، تعودتُ أن آخذ فقط، لم أتعلَّم يومًا معنى العطاء، ولم أتذوَّق طعم الحرمان، وقوفي بين يدي الرحمن أمام الكعبة وأنا أؤدي مناسك العمرة، غسلَني من الداخل، جعلني أُعيد كل حساباتي مع الجميع، ووجدتُ أنكِ أكثر مَن تعرَّض إلى الظلم مني، أنا ظالم، أناني، وتافه.. لم أتحمَّل يومًا مسئولية أخطائي، أنا جئتُ إليكِ كصديقة، أريد وأن أرمي في حِجرك جميع مشاكلي، لقد فشلتُ في أن أفكر دونك، أنتِ من عودتني على ذلك، رغم أنني روائي كبير أحُل عُقَد ومشاكل جميع أبطال الرواية، ولكن أجدُني ضعيفًا متخاذلًا في حل أبسط مشاكلي.

خرجت علياء عن صمتها وقالت:

- مَن كانت تحُل لكَ مشاكلك، أصبحت هي أيضًا مشكلةً ضمن مشاكلك يا وسام، هروبكَ وارتماؤكَ بين أحضان غانيتك القديمة زادَ من عمق المشاكل، وجعل المُمكِن مستحيلًا، والمقبولَ مرفوضًا! أنا الخاسرة الوحيدة يا وسام، خسرتُ ابنة خالتي ناديين، وريانا وريحانا، وفقدتكَ أنت أيضًا، من فضلك ضعني خارج حساباتك.. عندما تدخل مكتبك سوف تجد استقالتي موجودة عليه، سوف أسافر إلى أمريكا؛ ابنة عمي أرسلتَ إليَّ دعوة للزيارة، ووفرت لي عملًا في وكالة أنباء عالمية، ربما سفري يكون جزءًا من الحل، اذهب إلى ناديين، حاول أن تعتذر لها بصدق عن جميع خطاياك، لقد فكرتُ كثيرًا أن أذهبَ إليها، لكن حُبي لها منعني،

أعلم أنني أنانية، ولكن هي من أخذَتني منك، كانت تعلم أنني أحبك، كنت أرى ذلك في عينيها، أنا لم أظلِم نادين، بل هي من ظلمتني وظلمت نفسها؛ لو كانت تركتكَ لي لكُنت روضتك، وقلمتُ أظافرك الجنسية ونزعتُ ريش الترحال والمغامرة عنك، أعلم أنه لا طائل من الحديث الآن، وأن حتى البكاء على اللبن المسكوب فاتَ أوانه، سوف أسافر خلال عدة أيام، وسأُمزِّق عقد الزواج العرفي، أريدُ الطلاقَ منك.

صمت للحظات، ضمَّ علياء إليه، وهمس في أذنها:

- أنتِ طالق.

***

أنهى بعض الأعمال سريعًا في الجريدة، وتحدث مع سامي المغازي في الخطوط العريضة للعدد الأسبوعي، ثم انصرف واتجه إلى الفندق، جلس يُحاسِب نفسه في القرار الذي اتخذه بشأن علياء:

- هل تسرَّعتُ في قراري؟ هل كان عليَّ أن أترجَّاها كي تبقى؟ وإذا بقيَت، هل سأستطيع أن أُرمِّم نفسها المحطمة؟ بالتأكيد اتخذتُ القرار الأمثل، أنا أثق في ذكاء علياء.

فتح النافذة المطلة على الأهرامات، تصفح البريد الإلكتروني الخاص به، كان هناك عدد لا بأس به من الرسائل المعلقة، لكن ما لفتَ نظره رسالة طويلة ممهورة باسم سعدية البشير، وبدأ في قراءتها.

«عزيزي الأستاذ وسام..

قـرأتُ بـكل شـغف مقالـك «عـلى فـراش طاغيـة»، أنـا مقيمـة في لنـدن، وتابعـتُ عـبر شاشـات التلفـاز كل مـا حـدث في رومانيـا، مـن بدايـة خـروج المظاهـرات إلى إعـدام نيكـولاي تشاوتشيسـكو وزوجتـه.

كنـت أشـاهد برنامجًـا تليفزيونيًّـا يتحـدث عـن جمعيـة خيريـة في بريطانيـا اسـمها «ريليـت» مهتمـة بشـئون الأسرة، وكان اللقـاء حـول إدمـان الجنـس، ووجهَـت رئيسـة الجمعيـة الدعـوة إلى مدمنـي الجنـس مـن الطرفـين للتواصـل مـع هيئـة الخدمـات الصحيـة الوطنيـة، وذلـك مـن أجـل تلقِّـي المسـاعدة والدعـم، مُحـذِّرة مـن الآثـار المدمـرة لإدمـان الجنـس عـلى العلاقـات الإنسـانية وعـلى الصحـة العقليـة.

الجنـس بالنسـبة إلى زوجـي حيـاةٌ وموت، أول شيءٍ يفكـر فيه حين يسـتيقظ، وآخـر شيءٍ يُنهـي بـه يومـه قبـل النـوم، كنـت ألاحـظ أن الجنـس يعطيـه سـعادةً لحظيـةً لبضـع دقائـق، ثـم يعيـد الكـرة مـن جديـد، فـكان ينتهـي ليبـدأ!

لا أخفيـك سرًّا، كنـت أسـتمتع في بدايـة حياتنـا، لكـن بـاتَ الأمـر لا يُطـاق، وعندمـا أبديـتُ غضبـي وملَـلي مـن فـرط الممارسـة الجنسـية، إذا بـه يُهـدِّدني بأنـه سـوف يمـارس الجنـس مـع بائعـات الهـوى كي يشـبع رغباتـه.

لقـد أدمـنَ زوجـي الجنـس، وأصبح يسـتحوذ عـلى كل تفكـيره، صرتُ لا أعرف سـيدي مـاذا أفعـل، زوجـي أصبـح مُهـدَّدًا بالفصـل مـن عملـه لتغيُّبِـه الدائـم كي يظـل في المنـزل يمـارس الجنـس.

ورغـم أن القوانـين هنـا في بريطانيـا صارمـة، وأنـه مـن الممكـن أن يتـم سـجن زوجـي لأنـه لا يحـترم رغبـاتي ويُجـبرني في بعـض الأحيـان

عـلى الممارسـة، ولأنـه أصبـح يضرِبنـي إذا امتنعـتُ عـن تلبيـة رغباتـه، فـإن طباعـي المصريـة تمنعنـي مـن فعـل ذلـك؛ مـاذا سـأقول لأبنـائي إذا سـألوني: «لمـاذا سـجنتِ والدنـا؟».

ألا يحقُّ لي أستاذ وسام أن أقول إنني قد تعذبتُ على فراش طاغية؟!».

(42)

ترك صلاح عجور رسالة لوسام على البريد الإلكتروني:

«صديقي العزيز.. روكسانا تمر بظروف صحية صعبة بسبب الحمل، وقد طلبَت مني ألا أخبركَ بشيء، أنا أتابع معها عند الطبيب كل فترة كما طلبت مني، وقد أخبرني الطبيب أنه قد حذَّرها من الحمل بعد سن الأربعين، خاصةً وأنها كان لديها بوادر سرطان في الثدي منذ أكثر من عشر سنوات، وربما الحمل في هذا التوقيت يُعرِّضها إلى عودة المرض وبشدة، بسبب العبث في الهرمونات التناسلية التي تصاحب عملية الحمل، فتواصلتُ مع الطبيب دون علمها، وعرفت منه أن حالتها خطرة جدًا، لأن الحمل بعد الأربعين رفع نسبة البروجستيرون في الدم، ورفع ضغط الدم، وكذلك زاد نسبة الكوليسترول، مما يُهدِّد عضلة القلب فتصبح غير قادرة على تحمُّل مجهود الولادة.. باقٍ من الزمن المحدد للولادة ستة أسابيع، لا أعرف ماذا أفعل؟ للمرة الأولى أنقُض عهدًا أعطيته لأحد، لكن ما تمر به جعلني أنقض عهدي معها وأخبركَ بكل شيء، لا ترغب روكسانا حتى الآن في معرفة نوع الجنين، وقالت: «سوف أجعله مفاجأةً لنا، أنا ووسام»، لقد تم حجزها في مستشفى

الـولادة أول أمـس حتـى تكـون تحـت الرعايـة الطبيـة، وقـد فضلـتُ أن أكتـب لـك عـبر البريـد الإلكـتروني حتـى أُرتِّـب أفـكاري وأشرح لـكَ مـا قالـه الطبيـب بالضبـط».

شـعر وسـام بالـدوار بعـد قـراءة رسـالة صـلاح، وكأن كل الظـروف السـيئة تكاتفـت عليـه في آنٍ واحـد.

سـاقته قدمـاه إلى بيـت عليـاء، دقَّ دقـات خفيفـة مهزومـة مـترددة عـلى بابهـا، وحـين فتحـت البـاب، ألقـى بنفسـه بـين أحضانهـا، وبـكى بـكاءً شـديدًا.

حاولـت تهدئتـه، لكنـه اسـتمرَّ في النحيـب، فاصطحبتـه إلى غرفـة النـوم كي يسـتريح، ثـم ذهبـت إلى المطبـخ وأعـدت لـه كوبًـا مـن الليمـون، إلا أنـه رفـض أن يحتسـيه وقـال:

- أنا في حاجةٍ ماسَّةٍ إليك.

ثـم فتـح هاتفـه وأعطـاه إلى عليـاء كي تقـرأ الرسـالة، كانـت تقـرأ وتنظـر إليـه بتعجُّـب مصحـوبٍ بالشـفقة، انتهـت مـن قـراءة الرسـالة، وضعـت الهاتـف بجانبهـا، ثـم قالـت:

- روكسانا حامل منك! كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟!

قال:

- أنـا لسـتُ هنـا لتسـأليني عـن أخطـائي، أنـا جئـتُ أطلـب منـكِ العـون كصديقـة، لا أعـرف مـاذا أفعـل؟ هـل أتخـلى عـن روكسـانا خاصـةً وأنهـا كانـت مُـصِرة عـلى أن تسـجل المولـود باسـم عائلتهـا؟ هـل أترُكهـا لمصيرهـا المحتـوم؟ وماذا أفعـل مـع نادِيـن وابنتَـي؟ مـاذا أقـول لهـن؟

وقـعَ عـلى الأرض مغشـيًّا عليـه، فشِـلَت في حملـه، فأمسـكت بهاتفهـا كالمجنونـة لا تعـرف مـاذا تفعـل، اتصلـت بريانـا وأخبرتهـا بمـا حـدث.

اتصلـت ريانـا بالإسـعاف وأعطتهـم عنـوان عليـاء، وطلبـت مـن مسـئول الإسـعاف نقـل الحالـة إلى مستشـفى «عـين شـمس التخصـصي» حيـث تعمـل هنـاك هـي وريحانـا.

أخـبرت ريانـا شـقيقتها ووالدتهـا بمـا حـدث، ثـم هرولَـت نحـو المستشـفى كي تكـون في اسـتقبال والدِهـا، ولحِقَـت بهـا كل مـن ريحانـا ونادِيـن.

كانـت عليـاء بصحبـة وسـام في سـيارة الإسـعاف، ودخـل وسـام إلى غرفـة العنايـة، وقـد وُصِفـت حالتـه بأنهـا بدايـة ذبحـةٍ صدريـة، فتـم التعامـل معهـا سريعًـا، وأُجريَـت لـه الفحوصـات والتحاليـل اللازمـة، فتبـين وجـود قصـورٍ في الشريـان التاجـي بسـبب ارتفـاع نسـبة الدهـون الثلاثيـة في الـدم، ثـم تـم وضعـه في غرفـة العنايـة المركـزة.

قالت علياء:

- كنـت أخـشى هـذه المواجهـة، لكـن الظـروف القهريـة جمعتنـا، قبـل أن أقـول أي شيء، لقـد تـمَّ الطـلاق بينـي وبـين وسـام هـذا الصبـاح، لكننـي في المسـاء وجدتـه أمـام بيتـي، كان في حالـةٍ يُـرثَى لهـا، كان يريـد أن يتحـدث معـي، ثـم وقـع عـلى الأرض فاقـدًا الوعـي، لم أجِـد إلَّاكُـن لأخبركُـن بمـا حـدث لـه، فأنـتن أهلـه مهـما حـدث، وسـام يمـر بظـروف صعبـة.

حكـت لناديـن عـن فحـوى الرسـالة التـي وصلـت إلى وسـام مـن صديقـه صـلاح عجـور، وطلبـت منهـا أن تُعالـج الأمـر بحكمـة، لأنـه

أصبح أمرًا واقعًا، وأخبرتها بأنها سوف تسافر إلى أمريكا خلال أيام، وسوف تظل هناك ما تبقَّى لها من عمر، وأنهَت حديثها بعبارة:

- حاولي ألا تفقديه .

ظلت نادين بجواره في المستشفى حتى استردَّ عافيته، طلب وسام من ريحانا أن تنقِله بسيارتها إلى الفندق الذي يُقيم فيه، فنهرَته نادين بشدة قائلة:

- سوف تعود إلى بيتك، وغدًا سوف أذهبُ أنا لآتي بأغراضك، وسوف نسافر بعد أربعة أيام إلى بوخارست لنكون بجوار روكسانا، هي في حاجةٍ إليكَ الآن، وجودي معك كي أطمئن عليكَ فقط، لا وقتَ الآن للعتاب، سوف أنسى الماضي، ولنبدأ من جديد.

***

كان صلاح عجور في انتظار وسام في مطار بوخارست، وفوجئ بوجود نادين معه، بدا قلقًا وخشيَ الخوض في الحديث، ضحك وقال:

- تحدَّث بحرية، نادين تعلم كل شيء، هيا بنا نزور روكسانا في المستشفى.

حاولت نادين التنصُّل من الذهاب معهم، إلا أن وسام أصرَّ على أن تكون معهم، كي تشعر روكسانا بالرضا وأن أمور حياته تسير بطريقة طبيعية.

كانت روكسانا في حالةٍ مزرية، لا تتحرك إلا في حدود حجرتها، وسَعِدت كثيرًا بزيارة نادين لها، حاولت أن تبرر موقفها، إلا أن نادين قالت وبشكلٍ قاطع:

- لا داعـي لأي تفسـير أو تبريـر، ربمـا نتحـدث معًـا بعـد الوَضـع، أمـا الآن، فكـري فقـط كيـف تكونـين بخـير، علمـتُ مـن صـلاح أنـكِ في الأسـبوع السـابع والثلاثـين، ربمـا تضَعـين جنينـكِ خـلال أيـام، سـوف نكـون جميعًـا إلى جانبـك.

كان وسـام في حـيرةٍ مـن أمـره، تصرفـات نادين جعلتـه يعيـد حسـاباته كلهـا مـن جديـد، للمـرة الأولى يكتشـف بأنهـا رقيقـة المشـاعر، رزينـة، وليسـت أنانيـة كـما كان يعتقـد.

أنَّـب نفسـه كثـيرًا لأنـه كان دائمًـا مُقـصِّرًا في حقهـا، أهملهـا وأهمل مشـاعرها، حرَمهـا مـن مُتَـع الـزواج، كان دائمًـا يجـري وراء نزواتـه، وهـي صامتـة، لم تسـأله يومًـا عـن شيء؛ سـفره المتكـرر، سـهره خـارج المنـزل كل يـوم، مغامراتـه التـي لا تنتهـي ويَعلـم بهـا القـاصي والـداني، وفطِـن إلى أن نادين قـد قاسَـت كثـيرًا معـه، وقـرر أن يعوضهـا عـن سـنين العـذاب التـي سـببها لهـا.

اتصـل صـلاح بوسـام يُخـبره أن المستشـفى قـد أبلغتـه أن روكسـانا في حالـة وَضـع، وأنهـا بعـد قليـل سـوف تدخـل إلى غرفـة الـولادة.

تحـرك وسـام ونادين وتوجَّهـا صـوب المستشـفى التـي تبعُـد عـدة أمتـارٍ مـن مقـر فنـدق الإقامـة، وكان صـلاح في انتظارهـما عنـد مدخـل قسـم الـولادة، واصطحبهـما إلى مقـر السـكرتارية الخـاص بالقسـم مـن أجـل مِـلء بعـض البيانـات الخاصـة باسـم الأب وجنسـيته، فأعطـى وسـام للسـكرتيرة جـواز سـفره الألمـاني لتأخـذ منـه البيانـات.

عـرض الطبيـب عـلى وسـام إذا كان يريـد أن يحـضر لحظـة الميـلاد بصفتـه الأب، لكنـه رفـض بشـدةٍ لأنـه أضعـف مـن أن يراهـا وهـي تتـألم.

أمسكَت روكسانا بيد وسام قبل أن تدخل إلى غرفة الولادة، وطلبت منه أن يقترب منها أكثر، ثم همسَت في أذنه:

- ربما تكون هذه آخر الكلمات التي أقولها لك، لو حدثَ لي مكروه، لا تترك طفلنا هنا في بوخارست، لقد علِمت بالأمس أنه ذكر، خُذه معك إلى مِصر، زوجتكَ سيدة فاضلة، وأنا واثقةٌ من حُبها لك، فلن تُهين ابنك، لأنه قطعةٌ منك، ولو كتبَ الله لي عمرًا، فسوف أسافر معكما إلى القاهرة، تذكَّر أنكَ الرجل الوحيد الذي تربَّع على عرش قلبي.

ما أصعب لحظات الانتظار؛ الوقتُ يمر ببطءٍ شديدٍ جدًّا في المواقف المرتبطة بالخوف والخطر!

علَّق وسام نظره على ساعة الحائط التي أمامه، كان يستجدي عقاربها أن تتحرك بسرعةٍ أكبر، كان قلقًا عليها، فما قاله الطبيب لصلاح لا يُطمئِن، روكسانا هي المرأة الوحيدة التي لم تطلُب منه يومًا شيئًا لنفسها، أعطتهُ جسدها وقلبها ووقتها بكل رضا.

خرج الطبيب من غرفة الولادة، وهرول نحوه وسام، ثم قال وهو يُربِّت على كتفه:

- لقد فعلنا ما بوِسعنا، قلبها كان أضعف من أن يحتمَّل، ابنكَ بخير، اطمئن.

سار بخطى ثقيلة ونادين تنظُر إليه بشفقة، فقامت لتلحَق به، وصلاح كان ما يزال يتحدث مع الطبيب بشأن الأوراق الخاصة بالدفن، وأخبرَه الطبيب بأن المستشفى سوف تعمل كل الإجراءات اللازمة.

تواصل وسام مع السفارة المصرية من أجل استخراج وثيقة سفر للمولود الجديد إلى حين استخراج جواز سفر له، كانت روكسانا قد تركت وصيةً بنقل كل ما تملِك من أموال سائلة وعقار في حالة وفاتها إلى السيد (وسام عبد العزيز البحيري)، فترك وسام توكيلًا خاصًّا لصلاح عجور من أجل الانتهاء من إجراءات الميراث، وسافر ثلاثتهم إلى مِصر.. نادين، وسام، وجوزيف.. المولود الجديد.

(43)

كانت سعادة ريانا وريحانا لا توصف، كانتا تحلُمان دائمًا بأن يكون لهما شقيق، وقد تحقق الحلم بعد سنين طوال، وسام عادَ ليعيش معهم من جديد، والعلاقة توطدت من جديد بينه وبين والدتهم، والهدوء والسعادة غلَّفا الفيلا من جديد.

بدأ وسام في كتابة روايته الجديدة «على فراش طاغية»، والتي استوحى فكرتها من مجموعة الرسائل التي تلقَّاها عبر «الماسنجر».

في الثامنة صباحًا، كانت راشيل أمام مبنى جريدة «الأنباء»، كانت الأبواب مُغلَقة، وأفراد الأمن بالداخل، فضغطت على زر الجرس، ليفتح الحارس نافذةً صغيرةً في البوابة الحديدية الكبيرة، ويجد امرأةً بصحبتها طفل صغير.

فتح الحارس البوابة وسأل راشيل عن الخدمة التي مِن الممكن وأن يُسديها إليها، فردَّت بلغةٍ عربيةٍ ركيكةٍ قد تعلَّمتها في مدرسة بولندية:

- هذا الطفل ابن الأستاذ وسام، وقد طلب مني أن أُحضِره إليه، وهذا جواز سفره لتتأكد من كلامي، مضطرةٌ أن أترُكه لكَ

لأن لـديَّ طائـرةٌ بعـد سـاعة ونصـف مـن الآن، سـوف أتركـه معـكَ إلى حـين وصـول الأسـتاذ وسـام، لقـد حاولـت الاتصـال بـه لكـن هاتفـه مغلـق، هـذه الحقيبـة بهـا متعلقـات الطفـل، وهـذا المظـروف خـاصٌّ بالأسـتاذ وسـام، سـوف أتـركك لأن السـيارة تنتظـرني لتنقِلنـي إلى المطـار.

وأخرجت مئة دولار وأعطتها للحارس وانصرفت.

صعـد الحـارس إلى الـدور الثـاني وفتـح حجـرة الأسـتاذ وسـام حامـلًا دافيـد الـذي غلبـه النعـاس، فوضعـه فـوق الأريكـة الجلديـة وانـصرَف.

جـاءت عليـاء مبكـرًا كعادتهـا، لكـن هـذه المـرة مـن أجـل أخـذ مُتعلَّقاتهـا مـن مكتبهـا، وتوديـع الأصدقـاء الذيـن أصروا عـلى أن يقيمـوا حفـلًا صغـيرًا لهـا قبـل سـفرها إلى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة.

قابلهـا الحـارس بترحـابٍ وأعطاهـا جـواز سـفر دافيـد والمظـروف الخـاص بوسـام وقـال:

- ابن الأستاذ وسام نائمٌ في حجرته.

صعـدت مسرعـةً إلى حجـرة وسـام، ووجـدت طفـلًا يغـطُّ في النـوم، ونظـرَت إلى جـواز السـفر، وتأكـدت أن راشـيل مـا زالـت تُضمِـر شرًّا لوسـام.

اتصلـت عـلى الفـور بوسـام عـلى هاتـف المنـزل، لأنهـا تعلـم أنـه لا يفتـح هاتفـه المحمـول إلا عندمـا يهُـم بالخـروج.

ردت نادیــن عليهــا، وأعطــت الهاتــف لوســام، فوقــع الخــبر كالصاعقــة عليــه، وضـعَ فنجـان القهـوة فـوق الطاولـة، وهـمَّ بالانـصراف مسرعًـا،

في حين كانت نادين تحاول أن تفهم ماذا حدث.

كانت الأفكار تتزاحم وتتصارع داخل رأس وسام كلما حاول إغلاق صفحةٍ من صفحات الماضي، لم يعلم لماذا تركَت راشيل دافيد، وإلى أين ذهبت.

لاحظ وسام عند دخوله الجريدة همسات العاملين، كان لديه يقينٌ بأنه مِحوَر الحديث بينهم.

دخل مكتبه دون أن يرُد تحية السكرتيرة، ووجد علياء تحاول فَهم ما يريده دافيد الذي كان يبكي لدرجة النحيب، وكلما أعطته شيئًا أطاحَه بيده.

لم يعبأ وسام بما يفعله دافيد، وجلس على المقعد المجاور لعلياء وقال:

- ما العمل؟

- في ماذا؟

- فيما فعلَته راشيل.

- لم تفعل شيئًا، فقط تركَت لك ابنك!

- لقد حكم القاضي بعدم بنوته لي.

- لكن كان للقدَر حكمٌ آخر.

- إنها تنتقم مني!

- وأنتَ أيضًا انتقمتَ منها وشهَّرت بها.

- أنتِ من أشرتِ عليَّ بهذا.

- نعم، لكن الآن الأمر مختلف.

- لماذا؟!

- الآن دافيد هنا في مِصر، وراشيل سافرت إلى إسرائيل، وللأبد.

- من قال لكِ ذلك؟

- لقد تركَت لكَ هذا المظروف، به الأوراق الخاصة بدافيد، جواز سفره البولندي، وجواز سفره الإسرائيلي، وشهادة التطعيم، وتقرير طبي عن حالته الصحية والأدوية التي يستخدمها، وهذا الخطاب -أعتذِر لأنني قرأتُه- ولكن هذا من أجل أن أعلمَ بأبعاد الموضوع.

- ماذا يحوي هذا الخطاب؟

«عزيزي وسام..

لقد مات جدي جاكوب منذ أسبوعين، وأصبحتُ وحيدةً في بولندا، الأهل جميعهم في يافا، لذلك بِعتُ البيت وتركتُ العمل، وسوف أذهب للعيش في إسرائيل، لكنني فكرتُ في مصير ابننا دافيد.. نعم، ابنك رغمًا عنك، هل آخذه معي ويُصبِح بالفعل يهوديًّا إسرائيليًّا؟ أم أترُكه لكَ ويصبح مسلمًا مصريًّا؟ الاختيارُ لك.

أردتُ أن يكون دافيد شوكةً في ظهري طوال العمر، لكن في حقيقة الأمر سوف يكون هو وجنسيته وديانته شوكةً في قلبك، نعم يا وسام، دافيد حقيقةٌ تسير على قدمين، وإسرائيل حقيقةٌ تُنغِّص حياتكم، وتؤرق نومكم وتشعركم بالخوف وعدم الأمان.

تركتُ مع دافيد جوازَي السفر البولندي والإسرائيلي، من حقكَ أن تمزق الجواز الإسرائيلي وتبدأ صفحةً جديدةً مع ابنك، أو تحتفظ به ربما يكون عاتقًا لكَ عندما تحتل إسرائيل أرضكُم من جديد.. نعم، لن نتنازل عن حُلمِنا، إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.

سوف أتقدم بأوراقي للإلحاق بجيش الدفاع الإسرائيلي.. نعم، أنا مَن سوف يُصوِّب بندقيته في وجهِك يومًا ما، وسأنتقم لنفسي منكَ ومن جبروتك.

لقد أحببتُك يا وسام، ولم أُفكِّر يومًا في إلحاقِ الأذى بك، لكنك أنتَ من ناصبني العداء وشهَّر بي وبابني، لذلك سوف أنتقمُ منكَ يومًا.

لا تحاول أن تقترِب من السفارة الإسرائيلية، لن يفيدوك بشيء، حاول أن تستوعب الأمر سريعًا، وربما إذا أحسنتَ تربية دافيد، تكون قد كفَّرت عن جزءٍ كبيرٍ من ذنوبكَ تجاهي».

بعد أن فرغَ من قراءة الخطاب، نظر إلى دافيد، ثم انتقل بجواره وضمه إليه وهو يقول:

- أشيري عليَّ ماذا أفعل؟ وكيف سأواجه نادين والبنتين، ناهيكِ عن الأصدقاء والأهل، أنا في مأزقٍ كبيرٍ استطاعت راشيل بمكرها أن تضعَني فيه.

تعجَّبت علياء من هدوء دافيد عندما جلس وسام بجواره، رغم أنه لا يعرفه ولم يرَه من قبل إلا مراتٍ معدودة، لكنها طبيعة الألفة المغروزة داخل جينات البشر.

قالت علياء:

- اتـرُك لي أمـر ناديـن وابنتيـك، انتظـر هنـا مـع دافيـد، حـاول أن تقـترب منـه، فهـو المظلـوم بينكـما، وربمـا كـما قالـت راشـيل؛ سـوف يكفِّـر عـن بعـض ذنوبـك.

لم يسـتغرق الأمـر دقائـق معـدودة، تقبَّلـت ناديـن الأمـر بقلـبٍ رحـب، وكذلـك ريانـا وريحانـا كانتـا سـعداء بالوافـد الجديـد، ورجعـت بعدهـا علياء إلى الجريـدة، فحـضرَت الحفـل المُقـام لهـا، ولملمـت مـا بقـيَ لهـا في مكتبهـا، ودَّعـت الجَمـع والدمـوع تحفُـر طريقًـا عـلى وجنتيهـا.

(44)

عـاد وسـام ومعـه دافيـد إلى الفيـلا، اهتمَّـت ريحانـا بـه واصطحبتـه إلى غرفتهـا كي ينـامَ معهـا إلى حـين إعـداد حجـرةٍ خاصـةٍ بـه.

جلـس وسـام في غرفـة المكتـب، وقبـل أن يـشرع في كتابـة الروايـة الجديـدة، سـمع صـوت الجـرس يُعلِـن عـن وصـول رسـالةٍ جديـدة، فابتسـم وتمنَّـى أن تكون هـذه الرسـالة مـن الرسـائل المتعلقـة بمقالـه «عـلى فـراش طاغيـة»، فوجدهـا بالفعـل رسـالةً مـن مجهـولٍ بخصـوص مقالـه.

«عزيزي الأستاذ وسام عبد العزيز..

أحـب أن أخـبرَكَ بـأن هـذه الرسـالة هـي الأخـيرة التـي سـوف تصِلـكَ بخصـوص مقالـك «عـلى فـراش طاغيـة».

بدايـة المقـال عاديـةٌ جـدًّا، وكل المعلومـات التـي ذُكِـرت فيـه معلومـاتٌ للعامـة، أنـا أعجبَنـي فقـط عنـوان المقـال، لأنـه مسَّـني بصفـةٍ خاصـة، صدمَـك رأيـي في المقـال؟ هزَّتـك المفاجـأة؟! انتظـر قليـلًا؛ سـوف تتـوالى المفاجـآت تباعًـا!

المفاجـأة الأولى: أنـا صاحبـة كل الرسـائل التـي بُعِثـت إليـكَ عـلى

مـدار الثلاثـة أشـهر الأخـيرة، كنـت أحـاول في كل مـرةٍ أن أُضفـي عـلى الشـخصية صاحبـة الرسـالة بعـض الرُّتـوش حتـى لا تتمكَّـن مـن التعـرف عـلي، وكنـت أضيـف بعـض الأحـداث وأحـذِف بعضهـا إمعانًـا في تشـتيت أفـكارك.

كنـت أتَّبِـع معـكَ سياسـة «هـزِّ الجـوال»، هـل تتذكَّـر ذاك المقـال الـذي كتبتَـه إبـان فـترة حكـم السـادات بهـذا الاسـم وتـمَّ عزلُـك مـن جريـدة «الأهـرام» بسـببه؟ نعـم، اتَّبعـتُ معـكَ هـذه السياسـة حتـى لا يسـتقيم فكـرك وتربِـط الأحـداث ببعضهـا بعضًـا، وقـد أعـماكَ غـرورك للوصـول إلى الحقيقـة.

المفاجـأة الثانيـة: أنـتَ الشـخصُ المقصـودُ والمعنِـيُّ في معظـم مـا جـاء في تلـك الرسـائل، مـن حـين إلى آخـر كنـت أضيـف شـخصياتٍ بعيـدةٍ كل البُعـد عنـك، حتـى لا تتعـرَّف عـلى صاحبـة الرسـائل.

نعم، يا أستاذ وسام، أنتَ طاغية!

الرجـال أمثالـك يقومـون بأفعـالٍ وتصرفـاتٍ مـع المـرأة دون وعـيٍ وإدراك، يظنـون أنهـا أمـورٌ عاديـةٌ بالنسـبة إلى المـرأة الشرقيـة، لأنهـا مـن المفـترض أن تتحمَّـل أكـثر مـن مثيلاتهـا مـن نسـاء العـالم المتحـضر، لكـن مـا تظنُّـه عاديًـا بالنسـبة إليـك، ربمـا يكـون أمـرًا مدمـرًا للمـرأة.

تتحدثـون في كتاباتكـم عـن حريـة المـرأة وحقـوق المـرأة، أمـا في بيوتكـم فكلٌّ منكُـم «سي السـيد»؛ الآمـر الناهي المُسـيطِر، والمُشـبَع بالازدواجيـة في كل شيء.

تريـدون زوجـات طاهـرات عفيفـات مهذبـات يرتدين ما يسـتُر كل أجسـادهن، وتعشـقون خـارج بيوتكم نسـاء أخريـات كاسـيات عاريات!

ما زالت المرأة الشرقية تعيش تحت مظلة المجتمعات الذكورية، ليس ضعفًا منها، ولكن لسطوةِ مجتمعات جاهلة، لا تتعجب أستاذ وسام من حديثي، لكنني أطلُب منكَ أن تتولى وجهة نظر السيدات في كتاباتك.

لقد تحطَّم قناع قِوامة الرجل في المجتمع المصري بالتحديد، بعد ارتفاع نسبة المرأة المعيلة فيه إلى خمسة وثلاثين في المئة.

كُن عادلًا يا أستاذ وسام، أعِد قراءة الرسائل من جديد، وسوف تعرِف مدى قصور الرجال نحو النساء، فلتكُن رسالتكَ موجهةً إلى الرجال، إن للمرأة حقوقٌ ولا بد وأن تحصل عليها.

تحياتي.. لن أُسبِّب لكَ أي إزعاجٍ بعد اليوم».

دخل (وسام) على «الماسنجر»، ووجدَ أن الحساب ما زال مفتوحًا، فأرسل إليها علامة ترحيب، وطلب منها ألا تُغلِق، لأنه يريد أن يناقشها في كل ما كتبَته من رسائل.

- من فضلِك، انتظري!

- ماذا تريد مني؟

- أريد أن أناقشكِ فيما كتبتِه.

- وفيمَ تفيد المناقشة؟!

- أريد أن أتأكد من شيء.

- ما هو؟

- هل أعرفك؟

- ربما!

- من أي بلد؟

- من مِصر، ممكن لحظة، سأرد على الهاتف.

- تفضلي.

أخـذ يُقلِّـب في كل الرسـائل التـي وصلَتـه، لعلـه يسـتطيع أن يتعـرَّف عـلى صاحبـة الرسـائل، وكان يتنقـل بـين أسـطرها بسرعـةٍ كمَـن يُسـابِق الزمـن.

قطـع حبـل أفـكاره طـرقٌ رقيـقٌ عـلى بـاب غرفـة المكتـب، وإذا بنادِيـن تسـتأذِن للدخـول، كانـت تحمـل صينيـةً مـن المعـدن عليهـا كوبـين مـن الشـاي وطبقًـا بـه أربـع قطـعٍ مـن كعكـة البرتقـال التـي يُحبهـا وسـام.

ابتسمت وهي تضع الصينية فوق سطح المكتب وقالت:

- هـل تسـمح لي بـأن نُكمِـل حوارنـا حـول الرسـائل التـي وصلَتـك، هُنـا وجهًـا لوجه؟

- إذًا أنتِ صاحبة الرسائل!

ردت نادين بصوتٍ مكسور:

- نعـم، وأنـت الطاغيـة يـا وسـام، لقـد سـاعدتُك في طغيانـك، لسـتُ وحـدي مـن سـاعدَك في ذلـك، بـل كل النسـاء التـي عرفتَهـن، كل منهـنَّ صنعَـت جـزءًا مـن تمثـال طُغيانـك، صمتـي الدائـم عـلى أفعالـك، خـوفي مـن أفقِـد أبـا ابنتَـي، خضوعـي في بعـض الأحيـان لوَهـم أنـكَ سـوف ترتـدِع يومًـا وتعـودُ إلى صوابـك، كل هـذا جعلنـي أصـبِر عليـك.

كنـتَ تظُـن أننـي لا أعلـم عنـكَ وعـن مغامراتـك شـيئًا! للأسـف، أنـتَ غبـي! المعـذرة، فالزوجـة أول مـن يشـعر بتغـيُّر حـالِ زوجهـا، لديهـا حاسـةٌ خاصـةٌ لقيـاس مـدى حُـب زوجهـا لهـا وقيـاس تذبـذُب شـعوره نحوهـا.

ظننـت أن وقـوفي بجـوارك في الأزمـات التـي ألمَّـت بـكَ في الآونـة الأخـيرة هـو صـكُّ الغفـران، وأننـي قـد سـامحتُك عـن كل مـا بـدَر منـك طـوال خمسـةٍ وثلاثـين عامًـا، للأسـف أخطـأتُ التقديـر هـذه المـرة أيضًـا، فقـد حاولـتُ أن أُنقِـذ والـد ابنتـيَّ مـن فضيحـةٍ ربمـا سـتنالُ منهـما.

لقـد اتخـذتُ قـرارًا منـذ أن قـرأتُ مقالـك، وعلمـتُ أنـك ذهبـت إلى روكسـانا في رومانيـا، وبـدأتُ في كتابـة الرسـائل إليـك، الغريـب أنـكَ لم تلحـظ ولـو لمـرةٍ واحـدةٍ أنـكَ تُشـبِه طاغيـةَ الرسـائل، رغـم أن بعـض الرسـائل كانـت تُشـير إليـكَ وبقـوة.

لسـتُ نادمـةً عـلى أي شيء، لقـد كانـت رسـائلي إليـكَ مـادةً خِصبـةً لكتابـة روايـةٍ رائعـة، حتـى ولـو كنـتُ أُمثِّـل أنـا فيهـا دور البطولـة المُطلَقـة، لم أسـتطِع طـوال فـترة زواجنـا أن أُمثِّـل لـكَ شـيئًا مهـمًا، لـذا عـلى الأقـل سـأكون بطلـةً مـن ورقٍ في أحـداث حياتـك اللاهيـة.

حـاول يـا وسـام أن تُغـيِّر مـن نفسِـك؛ لم يتبـقَّ في عمـرك الكثـير، الأيـام تمـر وقطـار الرذيلـة يجـرُّك وراءه بقـوة، حـان الوقـت كي تتطهَّـر مـن رِجـس المـاضي، لقـد حبـاكَ اللـه في أواخـر أيامـكَ بطفلـين، حـاول أن تـزرع فيهـما الأخـلاق والحـب والصفـات الحميـدة، حـاول أن تُصلِـح وتـرُمَّ نفسـك، إنـه الاختبـار الأخـيرُ لـك.

لقد قررتُ من اليوم ألا أعيش على فراش طاغية، من فضلِك طلِّقني!

انتهت

السبت 2018/11/17

هشام فياض